

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومى

الشعر العراقى الحديث

وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه

تأليف
دكتور يوسف عز الدين
المجمع العلمى العراقى

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الشّعرُ العِراقيُ الحَديثُ

وأثر التيّارات السّياسيّة والاجتماعيّة فيه

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومي

بفرعيها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

"الدار القومية للطباعة والنشر ـــ الدار المصرية للتأليف والترجمة"

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومى



الشعر العراقى الحديث

وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه

تأليف
الدكتور يوسف عز الدين
المجمع العلمى العراقى

الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة

١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

لك أيها القارئ :

الكتاب جزء من كيان الكاتب ، وقبس من روحه ودمه وقلبه ، يصاحبه كما يصاحب الوالد ولده ، ويتعهده بكل ماله من قوة ، ويصرف عليه ما يملك من جهد ليراه نضرة النفوس وابتسامة الثغور . حتى يستوى على ساقه فتعجب الباحث أصالته ويرضى عنه .

وهذا الكتاب جزء عزيز على فقد صرفت معه أحلى سنى حياتى راضياً مسروراً ، لأنى شغفت بالشعر طفلاً ، وزهوت بحفظه يانعاً ، ورضيته معبراً عن أحاسيسى شاباً يافعاً ، ونما معى حب الشعر وموسيقاه ، ونمت معى عواطف الشعراء وأحلامهم ، وكنت منكباً عليها تغمرنى اللذة والرضا ، ويدفعنى الشوق ، وأخذت أجمع ما يقع بين يدى من مختارات ثم أمزقها عندما أبلغ من العمر مرحلة ، وجمعت دواوين الشعراء على اختلاف أنواعها غير مفرق بين قديم وحديث ، حتى جمعت مالم أكن أفهمه وأطلب شرحه من مدرسى فيضجر من الإلحاف ظاناً أننى أمتحن قدرته .

وقد استهوانى الرصافى لأنه كان ينبض بالحياة التى نحياها ، وكتبت عنه أول بحث فى الجامعة . وقد كانت التفاتة كريمة من أستاذى العلامة محمد خلف الله أحمد عندما اصطفانى طالباً لإكمال الماجستير تحت إشرافه وهو الشاعر الرقيق والذواقة المرهف الإحساس ، واقترح على أن أكتب عن (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) فسرت فى هديه ، وتحت دربته ، ووفقت بما بذله لى من عون لا ينسى ، وتوجيه لا يبلى . وسرت فى الطريق العلمى حتى وصلت القرن العشرين الذى أحسست بآلامه ، وشعرت بأوجاعه فكان كتابى هذا (الشعر العراقى الحديث) الذى كلفنى ما كلفنى أخوه الأول .

وبدأت قصة هذا الكتاب عندما عدت إلى العراق بعد الحصول على الماجستير فأخذت أطالع الجرائد العراقية من صدورها واتخذتها قاعدتى الأولى فى البحث لأن ما ينشر فيها لا يغير متى اختلفت سياسة الحكومة واتجهت وجهة جديدة . وتبقى قوة الشعر وشعور الشاعر دون تبديل أو تغيير حتى إذا غيرها خوفاً أو رهبة أو طمعاً . وسافرت إلى البصرة فى صيف العراق ووجدت فى مكتبة «باش أعيان» بعض هذه الجرائد وكنت خلال عملى فى تفحص الجرائد أبعث برسائل دورية للشعراء ، صغيرهم وكبيرهم، مغمورهم والمشهور منهم ، واتصلت بمن أعرف منهم — وأعرف جلهم — كما أعلنت إعلانات متنوعة فى الجرائد والمجلات راجياً فيها الشعراء أن يتفضلوا بمساعدتى ، ومنهم من لم تتح لى الظروف للتشرف بمعرفتهم . ولما أنجزت ما قدرت على إنجازه فى العراق سافرت إلى تركيا وبحثت فى مكتبات الآستانة وذهبت إلى باريس وفتشت فى المكتبة الوطنية ومكتبة فرساي ، ثم بحثت فى مكتبة المتحف البريطانى ومكتبة معهد اللغات الشرقية والإفريقية وكانت معى خلاصة أخذتها من مكتبات بيروت والقاهرة والإسكندرية .

وبدأت فى كتابة هذا الكتاب باللغة الإنكليزية فكانت مشقة جديدة وجهداً عميق الأثر وخير معبر لهذا الجهد ما كتبته لصديق فى أول أيام وصولى لندن قلت له (أكتب إليك والقلم يهتز فزعاً من عميق مشاعرى وحنينى إلى وطنى وسأهتز منه فزعاً عندما أكتب بعد ذلك باللغة الإنكليزية) فقد كانت الترجمة وخاصة الشعر عسيرة علىّ لأنى حاولت نقل أحاسيس الشاعر كما أتحسسها على أن أحافظ على الذوق الأوروبى فحاولت أن أترجم حرفياً فلم يكن المعنى واضحاً ، ثم أردت أن أترجم المعانى وكان من العسير على ترجمة التورية والجناس والمحسنات اللغوية الأخرى بسهولة ويسر ، وأخيراً مزجت بين الطريقتين فاستقام لى بعض الأمر .

وعدت إلى العراق بعد أن أنهيت دراستى وعكفت على ترجمة ما كتبته باللغة الإنكليزية فوجدته سهلاً بسيطاً أقرب إلى لغة العلم منه إلى لغة الأدب فاضطررت إلى إعادة الكتابة مرة أخرى ناسياً التكوين الذهنى الذى اكتسبته فى أوروبا وحاولت أن أجليه عربياً سليماً وعساى وفقت .

كان موضوع البحث شائكاً لأمرين ، الأول : أنه يبحث في أمور ما كانت مقبولة رسمياً وتجر كاتبها إلى المتاعب ، فقد تطرقت إلى الإقطاع والفقر والمرض والجهل وذكرت أثر الاستعمار ،وموقف الحاكمين الذين كانوا فى الحكم منه ، والثانى : أن البحث يقدم إلى جامعة إنكليزية وأنا عربى أبحث مشكلات وطنى وأكتبها للإنكليز ، الذين سيقررون مصيرى ومستقبلى وطالما نصحت أن أترك هذا البحث وألا أتطرق إلى هذه المشكلات أو أن أخفف من حقيقتها . ولكنى أبيت إلا المضى فى الطريق السليم ، وإبراز الحقائق ، ورسم صورة جلية صادقة عن العصر الذى أدرسه ، حسب طاقتى وقدرتى لأن مشكلات العراق هى مشكلات العرب أجمع ومشكلات الإنسانية جمعاء وتفهمها يعجل فى حلها . وقد كانت هيئة الامتحان منصفة كل الإنصاف فلم تتحيز برغم ما فى البحث من حقائق مرة ، وأوصت بطبعه تقديراً له ، فضربت مثلاً كريماً فى حرية الفكر وتقديسه .

بعد أن اتخذت الشعر قاعدة أستند عليها عولت على توضيح الحياة السياسية والاجتماعية فى دراسة التاريخ فوجدت شعر هذه الفترة مثل عصره أوضح تمثيل وأصدقه . ووقفت البحث حتى سنة ١٩٣٩ لسببين ؛ الأول : ظهور اتجاهات جديدة على الشعر العراقى لم تكن متبلورة وكانت فى فترة التطور ، والحكم على أمر غير ناضج أو مستقر لا يقره البحث العلمى ، ثم أتيحت لى فرصة لإخراج كتاب آخر عن (الشعر العراقى المعاصر) سأبحث فيه التيارات الشعرية التى عاصرتها وعشت فى جوها . والسبب الثانى : أن العراق بعد هذه الفترة مر بأزمات سياسية دعت إلى إعلان الأحكام العرفية ، ومنع كل شاعر لا يسير فى ركاب الحاكمين والاستعمار أن يعبر عن رأيه ، وقيدت الآراء ، وضغطت على الحريات العامة ، وهددت المفكرين ، وساقت إلى المعتقلات والسجون من ساقت ، واتهمت آخرين بتهم شتى ، فعاش الفكر فى محنة جرته إلى ركوده وضمور قواه ، فسجل التاريخ فترة تحكم فئة قليلة بأكثرية أبناء الشعب محاولة توجيهها نحو الوجهة التى تريدها .

وليس هذا الكتاب كل ما كتبته باللغة الإنكليزية ؛ فقد شمله الحذف والإطالة ليتناسب والذوق العام ، ولكنه يحوى الأسس الأولى واتجاهاتها وروحها فهو أكثر منها فى بعض أقسامها وأصغر منها فى جميعها ، ولابد من الإشارة إلى أننى درست تيارات العصر واعتمدت كثيراً على المنشور من الإنتاج فإن فاتنى بعضه فما تركته إهمالاً ، ومعذرة لمن لم أتعرف عليه .

حسبى أنها محاولة من طالب أدب يقدمها للأدب العربى الخضم أردت بها أن أخدم أمتى ، ولست بالعالم الذى لا يخطئ ، أو الكامل الذى لا يعتريه الشك ، ولكننى أقولها صريحة : إننى بذلت جهدى ووضعت عن كاهلى بعض العبء ، وألقى تبعة نقصه على الشعراء والكتاب الذين يجدون فيه ما يقربه نحو الصواب والحقيقة ولا يفعلون ، سواء فى النقد أم فى النصح أم بالتقويم ، ولست بمستكثر على أحد تقديمى ونقدى ونصحى ، وسجدنى من الراضين الشاكرين .

ولا يسعنى إلا شكر أولئك الأجاويد الذين مدوا لى يد المساعدة سواء فى إنكلترا أم فى العراق مهما كان نوعها وسواء كانت إعارة جريدة أم كتاب أم تصليح ملزمة من الملازم ، أو جواباً على رسالة كتبتها له أم مساعدة فى الكتابة على الآلة الكاتبة وهم كثر منهم الأستاذ الجليل الفريد كيوم A. Guillume والأستاذ آربرى A. J. Arberry والأستاذ سارجنت R. B. Serjeant والأستاذ داودكون D. Cown وجون كوكس J. Cox وجون براون J. Brown وأسرة فراير Frier والدكتورة حكمت أبو زيد ، والأخ العقيد عبد الرحمن التكريتى ، والأستاذ عبد الستار القرهغولى والدكتور إبراهيم السامرائى ، والأستاذ أحمد ناجى القيسى ، والأخ يحيى جاسم والشاعر عبد الرزاق بستانه ، والشيخ على الشرقى ، والأستاذ مصطفى على ، والشيخ فريق مزهر الفرعون ، كما أشكر جميع موظفى المكتبات فى لندن وباريس واستانبول وبيروت والقاهرة ومكتبة المتحف العراقى منهم السيد حكمت فتوحى ، والآنستين ساجدة العزى ، وفكتوريا مولود ، والسيد عبد المجيد عبد على .

وختاماً – أيها القارئ – ما أنا إلا طالب أدب أتحرى الحقيقة جهدى فمعذرة مما وقع لى من أخطاء ، ولا تأسف على ما دفعت ثمناً لهذا الكتاب . نرجو الله أن يأخذ بيدنا نحو السداد بما فيه خير هذا الوطن وهذا الشعب ، فمن أجله نحيا ومن أجله نبحث ونتحرى عن الحقيقة لنراه رافلاً فى السعادة والخير .

بغداد رجب الأصم سنة ١٣٧٩ الهجرية
مطلع عام ١٩٦٠ الميلادى

يوسف عز الدين

الفصل الأول

الشعر العراقي في العهد العثماني

١ – المجتمع العراقي ومشكلاته

٢ – الاتجـــاه الإســـلامي

٣ – الدستـــــور العثماني

٤ – حـــروب الدولة العثمانية

— ١ —

المجتمع العراقي ومشكلاته

قبل أن ندرس أثر المجتمع والسياسة فى الشعر العربى فى العراق فى هذه الفترة (١٩٠٠ — ١٩١٩) أرى أن نرسم صورة لهذا المجتمع والمشكلات التى كانت تؤثر فيه :

فقد كان الوالى هو الحاكم المطلق الذى يدير سياسة الولاية ، ولو أنها كانت مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، بيد أن للوالى الرأى الأول فى أمور الولاية ، وكانت سيطرته تشمل الرئاسة العامة على الجماعات ، مثل رئاسة البلدان والأمراء والجيش والقبائل وما شابه ذلك . أما السياسة الخارجية فقد كانت جزءاً من سياسة الدولة العثمانية العامة التى تدار من قبل الآستانة مباشرة(١) .

هذى الثمانى عشرة سنة من حكم الأتراك فى العراق لم تكن إلا استمراراً لحالة العراق فى القرن التاسع عشر ، وتكاد تكون جزءاً لا يمكن بتره عنه ، لولا بعض إصلاحات ناظم باشا ، وأثر اليقظة الفكرية المحدودة التى تسربت من أوربا ، ولولا أثر الدستور العثمانى .

كان العراق بلداً متأخراً هيمن عليه الجهل ، وفقد الأمن والنظام ، مخرب الجوانب والجنبات ، وخير وصف لحالة العراق هو وصف جريدة « صدى بابل » ؛ فقد وصفته بأنه بلد حاق الخراب به والظلم والخوف والاضطراب ، وذكرت الفوضى التى حلت به وكيف كانت ضواحى بغداد تسلب وتنهب وتسرق ، وما حاق بالحياة العامة من تأخر(٢) .

---

(١) يلاحظ (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) للمؤلف .

(٢) صدى بابل العدد ٤٠ السنة الأولى عام ١٣٢٨ هـ .

وقد لخصت هذه الجريدة حاجات العراق فردتها إلى أمور رأتها أهم ركائز الإصلاح ؛ أحدها : الأمان ، وثانيها ، العدل ، وثالثها العلم (٣) . ولا أدرى ما أبقته الجريدة فهذا مختصر واف لحاجات البلد المتأخر . ويجب أن أقول : إن هذا التأخر الذى ساد العراق لم يكن غير جزء من تفسخ عام شمل جميع الإمبراطورية العثمانية ؛ فقد كانت الولايات — ومنها بغداد — تباع وتشترى كأية بضاعة أخرى(٤) ، وقد كان هناك سماسرة يتصلون بالراغبين فى مثل هذه الصفقات(٥) ، فلا نستغرب أن انحصر همّ الوالى فى جمع المال الكافى للوصول إلى الثراء العاجل ، فهو مسئول عن دفع هدايا مستمرة لأسياده فى الآستانة ، وعليه أن يكون له أصدقاء يحافظون عليه وعلى مركزه كيلا يعزل(٦) ، فهو يبيح لنفسه الاستيلاء على الأموال واستيفاء الضرائب(٧) ، فيتخذه الموظفون قدوة ؛ إذ يستوفون الضرائب دون أن يسجلوها فى السجلات وتبقى ديوناً على أبناء الشعب(٨) .

لذلك انتشرت الرشوة بين الموظفين ، وتدنى بعضهم إلى درجات مضحكة ، فأخذت تندد بهم جريدة « أبابيل » فى عددها الثامن والأربعين بنشر أبيات هزلية تسخر من هؤلاء المرتشين ، وتطالب بالإصلاح العام معتمدة على إعلان الدستور الذى من أهم مواده الإصلاح ومحاربة الارتشاء المنتشر فى أنحاء الدولة .

---

(٣) صدى بابل العدد ٤٠–١ .

(٤) لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق ص ٢٧٨ و ٢٧٩ .

(٥) غرائب الاغتراب ص ١٨٨ .

(٦) غاية المرام حوادث ١٨٠٠ وغرائب الأثر ص ٥١ .

(٧) لونكريك ٢٧٨ و ٢٨٩ . يقول ولى الدين يكن وهو كاتب يتعصب للأتراك ويدافع عنهم عن سرقة أموال الشعب ما يلى :

« فتجبى أموال الرعية بلا حساب فيضيع بعضها فى جيب الوالى وبعضها فى جيب من هو فوقه فلا يبقى لبيت مال الدولة إلا ما يتصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طرب الملوك ولذاتهم وجانب على المقربين من الغرانقة ، ويبقى الموظف الصغير صفر اليدين أو تدرك أمره رحمة فيمد إليه بما يسد به رمقه (المعلوم والمجهول ص ٤٤) .

(٨) صدى بابل ٤٥ – ١ .

وهذه هي الأبيات :

إذا ارتشى اليوم (مأمور ببرطيل) إليه أرسلت طيراً من أبابيـــل
ترمى على رأسه شر الحجارة من نوع الفضيحة لا من نوع سجيـــل
فتترك الوجه منه حين تخجـــله يحوى بثوراً كأمثال الثآليـــل (٩)

والرشوة سبب من أسباب ضعف الدولة ؛ فالموظف المرتشي يكون ضعيفاً خائفاً لا يقدر على تطبيق النظام مما يساعد على انتشار الفوضى ، حتى إن الناس لم يكونوا بقادرين على ترك بيوتهم فى المدن دون أن يحملوا معهم ما يقيهم من أذى اللصوص ، وسطوة الناهبين والسالبين(١٠) . بل تجرأ اللصوص على السلب والسرقة علانية ، ولم يكن يمضى يوم دون سرقة أو جرح أو قتل أو سلب(١١) . وقد وجدت عدة رسائل مفتوحة موجهة إلى الوالى تشكو ما حل بالولاية من إراقة الدماء ، وانتهاك الأعراض ، واغتصاب الحقوق ، وما عمها من فوضى وخراب ودمار(١٢) ، وما كانت شكاوى الأهلين بمجدية لأن الوالى ومن بيدهم الأمر هم أصحاب المنافع المباشرة ، وهم أساس هذه الفوضى ، والرابحون من جرائها(١٣) ، وكثيراً ما ثاروا على الدولة ، وقطعوا علاقتهم بها ، وجروا على البلاد الدمار بحروبهم(١٤) بل إن بعض هؤلاء الولاة كانوا يحرضون الأشرار على تعكير صفو الأمن للفوز بالغنائم ومصادرة ما بأيدى اللصوص(١٥) ، لذلك انكمش الناس فى قراهم تاركين العناية بالزراعة ، والاهتمام بالتجارة ، فظهر نقصان الغلال

---

(٩) جريدة الرقيب العدد ٩٠-١ يقصد : (مأمور) الموظف فى الدولة والبرطيل كلمة تركية معناها الرشوة .
(١٠) لونكريك ص ٢٥٢ .
(١١) الرقيب العدد ١١٥-١ وفى غمرة النضال ص ٥١ .
(١٢) الرقيب العدد ١١٤ - ١ .
(١٣) غرائب الأثر ٩٤ وغرائب الاغتراب ص ١٩٩ وتذكرة الشعراء ٣٥ .
(١٤) كما حدث لسليمان باشا القتيل عام ١٨١٠ ولداود باشا ١٨٣٠ .
(١٥) غرائب الأثر ص ٦٧ ولونكريك ص ٣٢٣ .

فى بلد هو من أخصب بلاد العالم وأغناها فعمه الغلاء والقحط وتردت حياته الاقتصادية(١٦) .

استمرت جميع مشكلات العراق التى كان يعانى منها فى القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ؛ ومن هذه المشكلات الأساسية قضية سكان العراق فقد كان أغلبهم من العشائر الذين لهم نظامهم الخاص بهم ، وكثيراً ما كانت هذه العشائر تتمتع باستقلال ضمن دائرة العشيرة ؛ إذ لم تتمكن الحكومة من السيطرة عليها سيطرة فعلية ، وكثيراً ما تثور العشائر على الحكومة فتنشر الذعر والرعب فى النفوس(١٧) مغتنمة ضعف الحكومة فى فرض إتاوات وضرائب على بعض المدن ، إضافة إلى بعض المغانم التى تفوز بها عندما تهاجمها دون وازع من نظام يردعها(١٨) . وقد حاولت الحكومة العثمانية السيطرة عليها ، ولكنها لم تفلح لتحول رجالها من عصاة إلى مواطنين صالحين لأنها لم تكن تمهد لهم الوسائل اللازمة ، ودون أن تبذل أى جهد لتضمن طاعتهم واحترامهم لها(١٩) ، فلا عجب أن كانوا مصدر قلق عام للحكومة وللبلاد ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا مسلحين بأسلحة هى أجود وأحسن من أسلحة الجيش الذى كان يذهب لقمع حركاتهم(٢٠) .

ولقد كانت المرأة بعيدة عن المجتمع العراقى ؛ فقد احتجزت فى البيوت إذ لم يكن يسمح لها بالاختلاط مع الرجال ، وقد كان الوالد يريد أن يتخلص من ابنته مفضلاً عليها الولد مهما كانت درجة فضلها وخلقها ؛ فقد كانت ممنوعة من تعلم القراءة والكتابة كيلا توصلها إلى أغراض فاسدة(٢١) . وقد كان لاضطراب المجتمع وقلق مثله العليا أثر فى حياة الرجل الذى تفككت مثله

(١٦) المصدران السابقان .

(١٧) صدى بابل العدد ٩٧ السنة الثانية سنة ١٩١١ .

(١٨) جريدة الزوراء العدد ١٧٣ السنة الثالثة سنة ١٢٨٧ .

(١٩) لونكريك الصفحات ١٧١ — ١٧٥ و ٢٨٨ — ٢٩٢ .

(٢٠) صدى بابل ٩٧—٢—١٩١١ .

(٢١) تراجع الإصابة فى منع النساء من الكتابة (مخطوطة لنعمان الآلوسى) ، وديوان التفتاف ، ومجموعة أمثال الموصل ، ليعرف القارئ مدى خوف الآباء وأولى الأمر من عار البنات .

العليا ولم يعد يردعه الوازع الديني أو الخلقي عن ارتكاب الجرائم ؛ فالقبائل كانت تشن الغارات على المدن ، والإيرانيون يهددونها ، وموظفو الحكومة العثمانية نفسها كانوا يسبون النساء ويأخذون السبايا إلى الآستانة(٢٢) ، لذلك حرص القوم على إخفاء بناتهم خوفاً من العار والسبي .

أما الحالة الصحية فقد كانت متردية نتيجة إهمال الدولة لشئون البلد فلم يكن فى بغداد طبيب واحد يشرف على المرضى ، فغدا العراق مرتعاً خصباً للطاعون الذى كان يفتك دون رحمة ، ودون أن يقف أمامه شيء(٢٣) حتى غدت الجثث طعاماً سائغاً تعودت عليه الكلاب(٢٤) .

وإذا تلمسنا حالة التعليم فى هذه الفترة فلا نجد للتعليم ظلاً إلا فى المساجد فى المدن الكبرى وبحدود ضيقة(٢٥) ، ولولا عناية رجال الدين فى مساجد بغداد والبصرة والموصل والنجف الأشرف لقضى على اللغة العربية ، ولعل أزهى عصر من عصور التعليم هو عصر مدحت باشا ، غير أن بارقة الأمل التى لمعت فى عصره اندثرت بعد ذهابه من بغداد وبقيت الحال مهملة ، حتى أن الحكومة لم ترصد عام ١٩١٤ للتعليم مبلغاً من المال مع أنها رصدت مبالغ للجندرمة وللأمن العام مهملة شئون التعليم وكأنه شيء غير ضرورى، أو يمكن الاستغناء عنه ، ولم تجد المطالبة بالإصلاح بضرورة نشر التعليم فتيلاً . ومن الطريف أن الحكومة كانت تدفع للبواب ٥٠٠ قرش وتدفع للمعلم ٢٠٠ قرش(٢٦) .

---

(٢٢) أخذ عاكف باشا بعض النساء العربيات من الحلة أسيرات إلى الأناضول . راجع مقالا بقلم يوسف رجيب عن بدر الرميض فى مجلة عالم الغد العدد ٩-١-١٩٤٥ و (الحقائق الناصعة) ٤٣ .

(٢٣) لونكريك ص ٣١٦ .

(٢٤) غاية المرام ص ٢٢٧ وحديقة الورود ص ١٣ ونيل المرام ص ٧٩ .

(٢٥) نشرت جريدة صدى بابل الميزانية فى عددها ٢٣٨-٢-١٩١٤ وقد كان مصدر إيراد ميزانية الخزينة فى الولاية يتألف من (معارف وير كومى) أى ضريبة المعارف و(شوصه بدلى) ضريبة الطرق وضرائب أخرى ، ولكن الولاية لم تكن تستفيد شيئاً . وهناك ميزانية أخرى توضع فى الاستانة مع الميزانية العامة . أما ميزانية الولاية فليس للاستانة دخل فيها .

(٢٦) تنوير الأفكار ١-١-١٣٢٨ .

ما اللغة العربية فقد بقيت ممنوعة الاستعمال فى الدوائر الرسمية حتى بعد ظهور الدستور العثمانى ، وكانت ترفض العرائض التى تكتب بها ، بيد أن جريدة الرقيب لم يرضها الحال ، فقارنت بين حالة العراق ، وحالة سوريا التى تجيز استعمال اللغة العربية فى الدوائر والمراجعات الرسمية ، فأمر الوالى باستعمال العربية(٢٧) ، وقد يكون للوالى عذر فى أن يكتب له باللغة التركية ليفهمها مباشرة دون أن تكون هذه الرغبة مدعاة لاستعمالها فى جميع الدوائر وفى المحاكم ، لذلك فقد كان أبناء الشعب يفضلون تعلم التركية لأنها السبيل الوحيد للتوظف والعمل فى مصالح الحكومة(٢٨) ؛ فلا نعجب إذا وجدنا أن نسبة التعليم لم ترتفع عن ٠,٥ ٪ فى جميع أنحاء العراق(٢٩) .

هذه نظرة عاجلة إلى المجتمع العراقى ومشكلاته وجدت من المناسب تقديمها لهذه الفترة ليكون القارئ قد تعرف عليها قبل البدء فى دراسة هذه الفترة الأدبية ، ومنها يرى مقدار التردى الذى حاق بالعراق فى جميع نواحيه الاجتماعية ، والثقافية ، والصحية : وقد سكت الشعب طويلاً خوفاً أو مجاملة للدولة المسلمة حتى ظهرت بوادر الإصلاح ، وارتفعت صيحاته من كل أطراف العالم ، ومن ثم بدأت الآراء الجديدة فى العدالة والمساواة والحرية تتسرب تارة بوساطة الجرائد والكتب الواردة من مصر وسوريا ، وطوراً بما تنقله جرائد بغداد من أخبار العالم ، وآونة بما ينقله العراقيون المسافرون إلى الآستانة عند عودتهم بعد احتكاكهم بأبناء الإمبراطورية العثمانية . هنالك بدءوا يحسون بضرورة الإصلاح والمبادرة إلى عمل يفيد الشعب ، وقد كان منهم المطالب الجرىء المستميت ، ومنهم الهادئ المعتدل . ومن تلك الصيحات الهادئة ما كانت تنشره جريدة صدى بابل ، أما الجرائد الجريئة فقد كانت « الرقيب » ، « وتنوير الأفكار » ومن ذلك قولها فى إحدى مقالاتها : « لقد عم عموم التبعة العثمانية ، بل والأجانب حال العراق وما كان يئن تحته

(٢٧) الرقيب ١١٤ صدر فى جمادى الأولى والعدد ١٣٥ صدر فى الخامس من رجب سنة ١٣٢٨ .

(٢٨) لونكريك ص ٣١٦ .

(٢٩) المصدر السابق .

من ثقل الاستبداد الذى كان مخيماً عليه ضاغطاً إياه ، وعلى الخصوص ما كان تجرى فيه من المصائب الناتجة عن استبداد الولاة وكتمهم أغلب الأمور عن الآستانة .. » وهذه جرأة وصراحة لم يكن يعهدها أهل العراق فهو تعريض واضح باستبداد الولاة وتزويرهم للأخبار التى ترسل إلى الآستانة العاصمة ولم تكتف الجريدة بهذا . إنما ذكرت بصورة جلية لاتدعو للشك طريقة تزوير هذه الحقائق ، والأسلوب الذى تكتب فيه هذه التقارير التى تصدر عن الولاية إلى مركز الحكم فى الآستانة فقالت : (إن القتل والنهب والسلب ، واصل إلى العيوق ، ولكن الإفادات اليومية لا يحرر فيها . إلا أن الأمن والراحة العمومية على غاية المرام ...)(٣٠) .

ولابد لنا من أن نذكر هنا بعض المحاولات المشكورة فى سبيل الإصلاح ، فناظم باشا كانت له مشاريع كبيرة فقد انتوى شق ثلاثة شوارع فى بغداد ، وحاول تسيير الترام بالكهرباء ، وبناء جسر حديد وجسرين من خشب ، وأمر بعمل خرائط لثكنات ومستشفيات . ثم بدأ فعلاً ببعض الإصلاحات ، كإصلاح الأسواق وتعديل وتسوية الطرق المؤدية إلى إيران تسهيلاً لمرور عربات النقل ؛ ووضع مخافر للمحافظة ، وتعيين بعض الموظفين الأمناء فى الكمرك ، وتعجيل أعمال التجار ، وتعيين مأمورين للبرق والبريد ليلاً ونهاراً . غير أن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار لأنها كانت دائماً تصطدم برغبات الحكومة المركزية التى كثيراً ما يضطر لأجلها الوالى إلى ترك العمل أو الاستقالة(٣١) . ولم تكن غالبية الموظفين تهمها حركات الإصلاح لأن ذلك سيقطع عنها طريق الإثراء غير المشروع ، ويسد عن جيوبها موارد سهلة مستديمة من أموال الشعب ، بل لا يهمها مطلقاً إلا خراب البلاد ، وفساد النظام لضمان عمران بيوتهم(٣٢) ؛ فقد كانت الوظيفة غاية يتوسل بها الموظف إلى جمع أكبر قدر من الأموال ، ومن كان همه الإثراء على حساب

---

(٣٠) جريدة الرقيب العدد ٥٢ السنة الثانية ١٣٢٨ .

(٣١) صدى بابل الأعداد ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٨ من السنة الاولى ١٣٢٨ و ٩٧-٢-١٩١١ و ٣٠-١٩١٠ .

(٣٢) الرقيب العدد ١١٤-١-١٣٢٨ ولونكريك ص ٢٨٢ و ٣١٩ .

الشعب الذى لا تربطه رابطة قومية قوية لن يحاول مطلقاً معالجة الأمور بصورة جدية ، أو أن يعطى أية أهمية لشكوى تأتيه من فلاح بائس ، أو عامل محروم إضافة إلى أن البحث فى الإصلاح والعمل الجدى المثمر المنتج يكلف الموظف الوقت الطويل والتفكير العميق وجهداً ومشقة لاطاقة له بها ، وكل ما يريده الذهاب إلى الديوان ، أو العودة إلى البيت أو للنزهة(٣٣) .

هذا الانحطاط وهذا التأخر هو الذى دفع الشعراء فى أوائل القرن العشرين(٣٤) إلى المطالبة بالتحرر والإصلاح متأثرين بالحركات التحررية التى عمت العالم ، ولم يكونوا فى دعواتهم هذه ــ خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ــ راغبين فى الانفصال عن الجامعة العثمانية ؛ وإنما كانوا يريدون إصلاح الأمور العامة تحت ظل الخليفة العثمانى ، لأنه الرمز الإسلامى العثمانى للوحدة الإسلامية ، . ومن ثم أخذت هذه الدعوة طريقاً آخر هو الدعوة إلى الانفصال وتأسيس دول مستقلة منفصلة عن هذه الرابطة .

أما الأسلوب الذى سار عليه الأدب فهو نهج القرن التاسع عشر العناية باللغة عناية تخرجه إلى حد التزويق الممجوج الذى تمله النفس ، إضافة إلى أن الموضوعات التى قد طرقها الشعراء كانت موضوعات تافهة ، مبالغاً فيها مبالغات تخرج إلى حد الإسفاف ، ولا سيما المديح والرثاء .

(٣٣) تنوير الافكار ١-١-١٣٢٨ .

(٣٤) فى كتابنا الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر المطبوع فى بغداد ١٩٥٨ تفصيل لحالة الشعر والحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية .

— ٢ —

الاتجاه الإسلامى

بقيت الدولة العثمانية — حتى الحرب العظمى الأولى — تحكم البلاد العربية ، وقد كان السلطان العثمانى ممثلاً للشرق والمسلمين ، يقود هذه الشعوب أنى أراد وأين أراد ، ومتى أراد لسيطرة النزعة الإسلامية على غيرها من النزعات الأخرى بين الشعوب المسلمة والعربية ؛ إذ لم تكن الفكرة القومية قد ظهرت بعد ظهوراً شعبياً ، ولم تكن الفكرة العربية قد تغلغلت فى النفوس بعد ؛ إذ كان أكثر العرب ينظرون إلى الخليفة العثمانى على أنه ممثل لآمالهم الإسلامية ، ولم يكن العربى المسلم يأنف من الاعتراف بسيطرة السلطان ، ولعل الخوف من سيطرة الأوربى الكافر هو الذى جعل هذه الشعوب قوية الالتفاف حول السلطان العثمانى ؛ فهى ترى الحاكم المسلم خيراً من حاكم لا يربطها به أية رابطة ، وقد اتخذت الدول الأوروبية نفس السلاح ودعت الشعوب غير المسلمة إلى الثورة والتخلص من حكم المسلمين (١) .

فالفكرة الإسلامية كانت نزعة هذا العصر ، ومن أراد الخروج عليها والدعوة لغيرها فهو خارج على الدين الإسلامى . مع أن أكثرية المنادين بالجامعة الإسلامية ليسوا من مؤيدى النفوذ العثمانى ؛ وإنما كانوا يفضلونه على سواه من النفوذ الأجنبى مسوقين بالعاطفة الدينية التى تقول : إنما المؤمنون إخوة ، لذلك فهم يرون الخليفة العثمانى الركن القويم الذى تعتمد عليه الوحدة الإسلامية .

والشعراء جزء من الشعب يعكسون رغباته ، ويمثلون أمانيه فنراهم فى

(١) فى (الاتجاهات الوطنية) بحث نفيس عن مطامع الدول الأوروبية وأعمالها ويراجع عبد الحميد ظل الله على الأرض ص ٦٣ — ٧٢ .

شعرهم قد اتخذوا الخليفة العثمانى رمزاً للوحدة الإسلامية ، فهم امتدحوا سجاياه ، وأشادوا بأخلاقه وفضائله ورفعوا ذكره ومجدوا سياسته ، فجعلوه فى مصاف الآلهة لأنه يحمى (بيضة الإسلام) وهو (ظل الله فى أرضه) وهو الذى (يدافع عن المسلمين) (ويقاتل المشركين والكافرين) (٢) . وقد بقيت هذه الفكرة مسيطرة سيطرة تكاد تكون تامة على الشعر حتى أعلن الدستور العثمانى وبدأت الأحزاب تتشكل ، وتنتشر الجرائد ، وأبعد السلطان عبد الحميد عن الحكم ، فهوت قداسة السلطان على الأرض، فلم يعد الرمز المقدس الذى لاتصل الأيدى إليه ، ولا تنوشه الألسن ، وبدا مثل البشر فى سيئاته ومزاياه ، لا يزيد عنهم شيئاً ؛ لذلك فعندما كان هذا السلطان فى قوته ونفوذه ، وسطوته ، كان الأدباء يحاربون كل من سولت له نفسه الخروج على طاعته — سواء كان العاصى من العرب أو من المسلمين — فقد كان معنى ذلك انشقاقاً على الإجماع الإسلامى الذى حاولوا جاهدين الاحتفاظ به وصيانته ، فهم يريدون فى حماية السلطان أن يحموا الوحدة الإسلامية من التبدد والتفرق .

فلا عجب أن نرى بعض الشعراء يتخذون السلطان عبد الحميد رمزاً مقدساً يسيرون فى ركابه ؛ فقد أشادوا بالحروب التى أعلنها ، وطربوا للغزوات التى شنها ، وتغنى الشعراء بالانتصارات التى حازها على أعدائه ؛ فكان محور الشعر ومداره حوله يحرق بخور الأدب ، وينشر عبير الشعر ، ثم جاء من بعده محمد رشاد فأصابته بقايا هذا البخور الأدبى والعبير الشعرى ! !

وقد اشتهر فى هذا القرن شعراء كان منهم الذى شب وترعرع ومات فى العصر العثمانى — وهم الذين بحثت شعرهم فى كتابى : (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) — وقسم شب فى هذا القرن ، ولكنه تأثر بالتيارات الفكرية الجديدة ، وحركات الإصلاح التى انتشرت فى ربوع الدولة العثمانية ، ومع ذلك فقد بقى ولاؤهم للدولة حياً ، ونافحوا عن عقيدتهم الإسلامية والتمسك بها ، ومن هؤلاء الشعراء معروف الرصافى ؛ فإنه على

---

(٢) يراجع الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر فصل مدح السلطان .

الرغم مما كان يراه من انحطاط فى أرجاء الدولة ، وتفشى التأخر بين أبناء الشعب لم يرض للعرب أن يخرجوا على هذه الدولة ، وأن ينظموا المؤتمرات فى سبيل هذه الغاية ، فقد أيد حركات الإصلاح التى نادوا بها ، وطالب بها دون أن تخطر فى ذهنه فكرة الانفصال عنها ، كان يريد الإصلاح فى إطار الدولة العثمانية ، لأنه يرى الانفصال جريمة كبيرة تقترف ضد الإسلام ، ويؤدى إلى أن يتدخل الأوربى فى شئون المسلمين ، لذلك نراه يبارك دعوة الإصلاح التى دعا إليها جماعة من العرب . بل إنه دعا العرب للانضمام إلى هذه الدعوة فى قصيدة طويلة منها :

أبلغ بنى وطنى عنى مغلغلة فى طيها كلمٌ فى طيها ضرم
ما بالهم لم يفيقوا عن عمايتهم وقد تبلج إصباح المنى لهم(٣)

ولكنه لما رآهم يطالبون باللامركزية والانفصال عن الدولة، وأنهم عقدوا مؤتمرهم فى فرنسا (٤) ثار عليهم ، وزادت ثورته عندما أرسل «حقى العظم» إلى جريدة الطان Le Temps طالباً من الحكومة الفرنسية التدخل فى أمر سوريا . إن هذا الطلب كان دعوة صريحة من العرب المسلمين إلى دولة أجنبية استعمارية أن تتدخل فى أمور دولة مسلمة ، لذلك كانت مهاجمة الرصافى عنيفة دون هوادة ؛ فقد رآهم فى قصيدته أنهم أثاروا فى البلاد الإسلامية شراً وما قصدوا الإصلاح فى دعوتهم هذه ، وإنما أرادوا تهديم الكيان الإسلامى الشامخ ، وقد كان شاعرنا حريصاً على إبقائه حرصاً شديداً لذلك قال لعبد الغنى العريسى (٥) الذى عقد مؤتمر باريس :

قل للعريسى والأنباء شائعة والصحف تروى لنا عنه الأعاجيبا
علام تعقد فى باريس مؤتمراً ماكنت فيه برأى القوم مندوبا

(٣) ديوان الرصافى الطبعة الثالثة ص ٣٩٣ مصر .
(٤) فى غمرة النضال – تفصيل عن أهدافهم وأعمالهم ص ١٢٧ – ١٣٠ .
(٥) شنق جمال باشا السفاح عبد الغنى العريسى خلال الحرب العظمى الأولى .

ويخاطب « حقي العظم » ويصف عمله بأنه كعمل الحمل الذى يطلب المعونة من الذئب :

وهل تعمد حقّى العظم فعلته | لما نمى خبراً للظان مكذوبا
إذ راح يستنجد الإفرنج منتصفاً | كأنه حمل يستنجد الذيبا

ولم يكن يؤلم الشاعر إلا عمل « حقّي العظم » الذى يريد أن يفر من سيطرة إسلامية إلى استعمار أجنبي لاتربطه به رابطة ، ولن يكتفى الفرنسيون بالمساعدة فقط – كما يظن حقّي العظم – وإنما يريدون استعمار الشام بأجمعها ، وقد تحقق ظن الرصافى بعد ذلك ، وصدقت نبوءته فيما بعد لأنه ثار عندما عقدوا مؤتمرهم فى باريس ، وتمنى أن يكون مؤتمرهم فى بلد ليست له مطامع استعمارية ، فهو متفق معهم فى الحاجة إلى الإصلاح . لكنه يجب ألا يكون فى ظل حكومة فرنسا فقال :

لو كان فى غير باريسٍ تألبهم | ماكنت أحسبهم قوماً مناكيبا
لكن باريس مازالت سياستها | ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا
ولم تزل كل يوم من سياستها | تلقى العراقيل فيها والعراقيبا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتها | جيش يدك من الشام الأهاضيبا(٦)

وكان الرصافى يذود عن حياض الإسلام والمسلمين لأنه ربى تربية دينية ، وكان من أشد ما يؤلمه أولئك الذين يتخذون من تأخر المسلمين وتخاذلهم سبباً للطعن فى الدين الإسلامى ، لذلك يسرد البراهين ويأتى بالأدلة ، ويسوق الحجج ليبعد تهمة التأخر والانحطاط عن الدين الإسلامى نفسه ، فالدين الإسلامى لم يكن السبب فى تأخر المسلمين عن ركب الحضارة والمدنية ، وإنما كان عاملاً قوياً فى تقدم المسلمين الأوائل وازدهار المدنية ، وسعادة الإنسانية قروناً ، ثم إن واقع الدين الإسلامى بنصوصه وتعاليمه يثبت ماله من فضائل ومميزات فهو الدين الذى يدعو إلى المساواة بين البشر ، فلافرق بين غنى وفقير ، أو صعلوك وملك ، ، فهم كلهم إخوان متساوون فى

(٦) ديوان الرصافى ص ٣٩٦ .

الحقوق والواجبات ، ولافضل لأحدهم على الآخر إلا بالأعمال الصالحة ، وتقوى الله ، لأن الدين الإسلامى فى طبيعته لم يخلق طبقات من أبناء البشر ، ولم يفاضل بين ذوى المجد،وبين مقطوعى النسب فقال الرصافى يؤيد رأيه :

وما ترك الإسلام للمرء ميزة على مثله ممن لآدم ينتمى
فليس لمثرٍ نقصه حق معــدم ولا عربى بجنسه فضل أعجم
ولا فخر للإنســان إلا بسعيه ولا فضل إلا بالتقى والتكرم(٧)

وفى ديوان الرصافى الشىء الكثير من شعر ينافح فيه عن عقيدته . وهناك شاعران آخران ألف كل واحد منهما كتاباً عن الدين الإسلامي هما : محمد حبيب العبيدى الموصلى ، وجميل صدقى الزهاوى.

فالزهاوى آلمه أن تظهر الدعوة الوهابية لأنها دعوة تنادى بشىء جديد يختلف عما ألفه العثمانيون ، إنها دعوة تدعو إلى قومية عربية وهذا تهديد لكيان الدولة العثمانية فيؤلف (الفجر الصادق) ليهاجم فيه الوهابيين ويقول: الوهابية دعوة رفعت راية العصيان ، وتجاهرت بوخيم عدوانها ، وسمى الوهابيين بالجماعة الباغية(٨) . وحفظاً للجامعة الإسلامية رأى أن الخلافة لايشترط فيها أى شرط فلا يجب أن يكون الخليفة إماماً ولامعصوماً ، ولا أن يكون علوياً أوقرشياً (٩) ، كل هذا ليمهد إلى القول بأن حكم آل عثمان حكم شرعى ، ولم يكتف بهذه الشرعية بل يوجب على المسلمين طاعة السلطان العثمانى ، ويعتبر العاصى كافراً لايؤمن بالنبى ولا بالقرآن حيث يقول :

من كان يؤمن بالنبى محمد وبما أتى من منزل القرآن
علم اليقين بأنه فى دينــه وجبت عليه طاعة السلطان(١٠)

---

(٧) ديوان الرصافى ص ١٣٠ .

(٨) الفجر الصادق طبع مصر سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) المقدمة .

(٩) الفجر الصادق ص ٧ .

(١٠) وقد كان رجال الدين يتقربون إلى السلطان بوسائل شتى منها البحث عن الأحاديث المنسوخة ، وغير الصحيح منها ، فلا يرون للملوك إلا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين إصبعى الله يقلبه كيف شاء) وقولهم (الملوك ملهمون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة) كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقرباً إلى جفانهم . لاحظ (المعلوم والمجهول) مصر سنة ١٩٠٩ ص ٤٣ .

ولسنا بصدد صدق عقيدة الزهاوى أو كذبها بعد أن تنصل من هذا الكتاب وادعى أنه اضطر إلى تأليفه خوفاً من السلطان ، ولكن يهمنا الكتاب نفسه لأنه عكس روح العصر التى كانت تسيطر – يومذاك – على الكتاب ، وقد مثل الزهاوى هذا الدور أصدق تمثيل .

أما العبيدى فقد كان السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه « حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام » أقوى وأعمق من السبب الذى دعا الزهاوى . لأنه رأى أن الوهابيين أرادوا أن ينقوا الدين من شوائبه ، وأنهم دعوا إلى الإصلاح العام الشامل ، ولكن الخطر كل الخطر فى المستعمر الذى يريد أن يقضى على الدين ويهدم الخلافة ، لهذا فقد دافع عن الدولة العثمانية التى تمثل عقيدته ودينه ضد مستعمر بعيد عنه فى كل شىء ، ضد بريطانيا التى تريد أن تقضى على الخلافة الإسلامية ، وقد صرح برأيه هذا قائلاً : إن الغرض من تأليف هذا الكتاب الدعوة إلى اتحاد المسلمين ، وتحت رسالة الهلال . وقد برهن فى الفصلين الثانى والثالث على أن الخلافة الإسلامية قائمة بالدولة العثمانية(١١) ، وتزول الخلافة بزوال الدولة العثمانية ، ويرى استحالة قيام خلافة جديدة مكانها ، ثم يسبغ على الخلافة قدسية فى الفصل الأول إذ قال : إن الخلافة الإسلامية خلف النبوة بل النبوات ، وأنها واجبة قبل كل واجب دينى . وعندما يهاجم بريطانيا فهو يهاجمها لأنها تريد أن تزيل الدولة الإسلامية من وجه البسيطة ، والقضاء على الخلافة التى هى كعبة السياسة للمسلمين ، والرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية(١٢) ، وفى ظل الوحدة الإسلامية لن تجد فرقاً بين المسلمين فهى قوة واحدة تقف أمام كل اعتداء على المسلمين فى أى قطر من الأقطار ، فإذا دخلت روسيا إيران ، أودخلت إيطاليا طرابلس ، أو حاربت بريطانيا الدولة العثمانية ، نجد الفتاوى من علماء الدين تنشر لتحث المسلمين جميعاً على محاربة الكفار فى ديار الإسلام(١٣) ، فالاعتماد على الرابطة الإسلامية معناه اعتماد

---

(١١) هناك كتاب آخر باسم (جنايات الإنكليز) طبع فى بيروت سنة ١٩١٦ .

(١٢) حبل الاعتصام بيروت ١٩١٦ ص ١٢٠ .

(١٣) مجلة لغة العرب ج ٧ كانون الثانى ١٩١١ .

على شعوب كبيرة لها سيطرتها وقوتها لذلك كان السلطان يحرص كل الحرص على هذه الرابطة لأنها الوتر الحساس الذى يضرب له العرب والمسلمون ، فإذا أرادت الدولة أن تبنى أسطولاً فتكون الدعوة للمساهمة فى هذا البناء باسم الدين ، وباسم المحافظة عليه فيجد المسلمون لزاماً عليهم هذا التبرع ، وهل هناك من لايريد أن يحافظ على الدين الإسلامى أو يريده معرضاً لخطر الكفار ، فلا عجب أن دعا محمد طاهر السماوى النجفى الناس إلى التبرع والمؤازرة باسم الدين ، فقد تصور سير الأسطول فى البحر وحده يكفى المسلمين فخراً وعزة ومنعة ، لذلك من المحتم أن يتبرع فى سبيل إنشائه الصغار والكبار لأنه أسطول إسلامى حينما قال :

وبحق المجد قد ناشـــدتكم ... يا حماة المجد شيخاً وغلاما

أن تساعدوا فى بناء هذا الأسطول لأن فيه أبطال المسلمين وأحلافهم ، وهؤلاء هم الذين أبلوا بلاء حسناً فى المعارك عندما فتحوا الأقطار لرفع راية الإسلام وحينما قال :

فيه أبناء الميـــامين الألى ... دوخوا الأعداء حرباً واصطلاما

من بنى الإسلام أو أحلافهم ... كل مشتاق إلى الحرب غراما

فتحوا الأمصار قدماً بالضبا ... تنفد الأكباد أو تنقف هاما(١٤)

ولم تكن الروح الإسلامية مقصورة على ناحية من نواحى الشعر ، أو على اتجاه معين ، وإنما كانت مسيطرة على كثير من قصائد الشعر التى كان يمدح بها القواد والولاة ؛ فعندما يمدح الشاعر والياً أو قائداً فهو يمدحه لأنه يؤازر الخليفة الإسلامى ، ولأنه يد قوية ترمى الأعداء الذين يريدون أن يعتدوا على الدين الإسلامى ، وأن السلطان العثمانى هو الخليفة ، وأنه أمير المؤمنين وهو إنسان لاينتخب إلا من يجد فيه المقدرة والكفاية الحربية والإدارية والفكرية ، ويهتز الشعراء طرباً للانتصارات العثمانية ، والحروب التى يفوز بها الجيش العثمانى لأنها حروب فى سبيل إعلاء راية الإسلام والمسلمين . ومن

---

(١٤) جريدة الرقيب ١٠٤ السنة الأولى ١٣٢٨ هـ .

أمثلة ذلك عبد الرحمن البناء(١٥) ، فهو يفرح بهذا الانتصار العثمانى لأن الانتصار فيه حفظ لمركز الخلافة فيقول :

حفظوا مركز الخلافــة حتى عاد ما حاول العدى مستحيلا(١٦)

ومثله الشاعر على البناء(١٧) فقد مدح القائد خليل باشا فى معركة الكوت(١٨) لأنه رأى الجيش الإسلامى العثمانى الذى يقوده خليل باشا قد انتصر على جيش الكفار الذين يريدون كسر راية المسلمين ، وقد رجع هؤلاء الكافرون خاسئين ذاهلين فقال يخاطب القائد :

لقد خفقت رايات عزك بالنصر وأطفأت فى ماضى الشباسورة الكفر
أمدك رب العرش فى الجند هيبة ملأت قلوب الشرك فيها من الذعر

ثم يهنئ الإسلام بالنصر الذى أحرزه القائد ، ويطرب للانتصار الذى ناله ثم يمدح السلطان رشاد فخر الإسلام بقوله :

لتهنا بهذا ملة الدين إنــــه سرور بنى الإسلام فى كل ذى قطر
وتكسى فخاراً آل عثمان سرمداً بما فيهم قد شد للدين من أزر
وسلطانها الغازى رشاد عمــادها وفخر بنى الإسلام بل مفخر الفخر (١٩)

ولم تكن هذه الروح الإسلامية مقصورة على شعراء بغداد الذين لهم اتصال مباشر بمركز الحكومة وقد تكون لهم مصالح خاصة ، إنما كان ذلك فى جميع أنحاء العراق دون فرق بين الطوائف والقوميات ؛ فقد تغلبت النزعة الإسلامية على كل نزعة ، ووقفت كل الطوائف الإسلامية — بشهامة — تناصر الدولة العثمانية فى جميع حروبها ، فعندما أعلن الجهاد فى الحرب

---

(١٥) لايعد عبد الرحمن البناء من شعراء الطبقة المعدودة فهو قابلية شعرية فياضة ، لكن لم تقدر له ظروف المعرفة العالية والدراسة المنظمة .
(١٦) جريدة صدى الإسلام ٢١٥–١–١٣٣٤ هـ .
(١٧) لم يكن من الشعراء المشهورين .
(١٨) سنتحدث عن هذا مفصلا فى فصل تال فى حروب الدولة العثمانية .
(١٩) صدى الإسلام ٢٦٦ فى ٣ شعبان ١٣٣٤ هـ .

العظمى على خصوم الدولة العثمانية كان العلماء الأعلام يحفزون الشعب على الدفاع عن الدين الإسلامى ، فقد نظم كاظم آل نوح خطيب الكاظمية قصيدة تشيد بالانتصارات العثمانية لأنها تمثل انتصارات المسلمين فيقول متسائلاً :

أحرز المسلمون فى هذه الحر — ب انتصاراً لم ينس فى كل جيل
أأهيل الناقوس تغلب فى الحر — ب أهيـل التكبير والتهليل

ثم ينظر بازدراء إلى جيش الكفر الذى يحارب العثمانيين ، ويصفهم بأنهم كالسوام التى تريد أن تحارب الأسود ولكنها عادت فاشلة :

من هم الكفر إنما هم سوام — أفتخشى السوامَ أسدُ الغيـل
قفل الكفر عن أسود الغيـل — خاسئاً ذاهلاً بإثر قفول (٢٠)

ومن الشعراء المشهورين الذين ناصروا الجيش العثمانى من النجف الأشرف محمد على اليعقوبى حيث أسماه الجيش الإسلامى الذى يحرس الدين والوطن ويشيد ركن الإيمان ، فترتفع ذرا الإسلام شامخة :

حييت فى الحرب بنصر الرحمن — ياكالئ الدين وحامى الأوطان
شيدت فى بيضك ركن الإيمـان — وأصبح الإسلام عـالى الشان
ومجدنا عاد رفيع البنيان (٢١)

ولم تكن هذه المناصرة مقصورة على شاعر أوطبقة ؛ فقد نظم فى هذا الباب محمد مهدى البصير ، ومحمد رضا الشبيبى ، وكاظم الدجيلى كما سنراه مفصلاً .

فقد قال البصير مخاطباً وزير الحربية العثمانية أنور باشا عندما زار العراق :

كم وقفة لك دون ملة أحمد — فيها برأيك بل بسيفك تنصر (٢٢)

(٢٠) صدى الإسلام ١٥٨–١–١٣٣٤ هـ .
(٢١) صدى الإسلام العدد ١٧٢–١–١٣٣٤ هـ .
(٢٢) صدى الإسلام العدد ١٨٣ من السنة نفسها.

وبقى الحنين طويلاً نحو الدولة العثمانية لأنها تمثل الاتجاه الإسلامى ، حتى بعد أفول نجم هذه الدولة واندحارها واحتلال الإنكليز العراق ، فقد نظم كاظم الدجيلى قصيدة يؤيد فيها « الملك حسين » لكنه عطف على الدولة العثمانية بقلب ملؤه الأسى والأسف والحسرة لما حاق بها ، ولم يكترث بما سيلقاه من الدولة الإنكليزية ، مع أن القصيدة قد نشرت زمن الاحتلال البريطانى فقال :

سلامٌ على أبناء عثمان وافر فدولتهم أضحت بأيدى مواليها

ثم يهيب ببانى الدولة العثمانية وأشهر سلاطينها أن يقوموا من قبورهم لأن دولتهم أصبحت بيد الأعداء ، وأن عاصمتهم غدت محتلة من قبل الأجانب :

أعثمان قم وانظر إلى الملك مهملاً فدولتك العليا قد انحطّ عاليها
أفاتح اسطنبول فانهض لحفظها فقد حكمت فيها عداك مواضيها
غزتها رجال كنت تغزو بلادها وتفتحها قهراً فسموك غازيها
سليمان فاجلس للعزاء فدولة تكفلتها قد مات بعدك حاميها
وأصبح فيها ضاحك السن باكياً ومادحها بالأمس ذا اليوم راثيها(٢٣)

وقد قال السيد عبد المطلب: إن العرب والترك إخوان يجمعهم الدين ، وللأتراك فضل لأنهم قد حموا الدين من الكافرين فخاطب العرب بقوله :

أقول للعرب إن الترك إخوتكم والدين أماً لكم أضحى معاً وأبا
ماذا الذى قد نقمتم منهمُ وهمو فى أول الدهر شادوا للهدى قببا
هم الذين أقاموا الدين فى قضب فى حدها عاد حبل الكفر منقضبا
وحطموا بالضبا الأوثان وانصلتوا إلى الكنائس حتى حطموا الصلبا(٢٤)

وقد خاطب الشبيبى معاتباً الأتراك على ما قدموه من إساءات وكيف أن العراقيين صفحوا عنهم ، وعن زلاتهم ؛ كل ذلك حتى لاتتفرق الوحدة

---

(٢٣) دار السلام العدد الأول السنة الأولى سنة ١٩١٨ ونشرت بتوقيع ك . د .
(٢٤) شعراء الحلة جـ ٣ ص ٢٠٩ .

الإسلامية التى تربطهم بها مع ماقتلوا وشنقوا وأسروا(٢٥) ، وقد كان الرصافى صريحاً — كل الصراحة — فى ندب أيام الدولة العثمانية ، وقد أظهر وفاءه لأيامهم مع أنه يلومهم لأنهم فرطوا فى حقوق العراق ، وتركوه نهباً بيد العدو ؛ إذ راح يملأ نفس الشعب أملاً بعودة العثمانيين لإنقاذهم من الاستعمار البريطانى ، فقد فضل أن يبقى العراق عثمانياً على أن يكون مستعمرة بريطانية ؛ فقال يرد على سليمان نظيف الذى يعاتب العراقيين على لسان دجلة :

أنا باق على الوفاء وإن كا	نت بقلبى ممن أحبّ جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو	بلغيهم شكايتى يا رياح(٢٦)

ويتحسر الزهاوى على أيامه التى قضاها فى زمن الدولة العثمانية فيقول :

أين عزى فى دولة الأتراك	أنا مما فقدته أنا باكى
كنت بالأمس راضياً عن حياتى	وأنا اليوم من حياتى شاكى(٢٧)

ولم تخمد الروح الإسلامية ، وقد بقيت مسيطرة على نفوس العراقيين طويلاً حتى بعد ظهور الروح القومية ، وفشل الجامعة الإسلامية ، ويأس دعاتها من تحقيقها . ومن الشعراء الذين لهم أثر كبير فى تاريخ الأدب فى العراق الرصافى ؛ فهو الذى لم يتغير فى رأيه وعقيدته ، فقد نظم قصيدة فى الحرب العالمية الثانية يقول فيها :

قل لمن رام صدعنا بشقاق	أنت كالوعل ناطح الصفوان
ويك إن الإسلام أوجد فينا	وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بحبل وثيق	هو حبل الإخاء والإيمان
ليس معنى توحيدنا الل	ـه إلا اتحادنا فى الكيان(٢٨)

---

(٢٥) ديوان الشبيبى ص ٢٦ — ٢٩ .

(٢٦) ديوان الرصافى ص ٤١١ .

(٢٧) اللباب ص ٦٥ بغداد ١٩٢٨ .

(٢٨) ديوان الرصافى ص ٤٦٧ وقد أخبرنى سيادة الأستاذ مصطفى على أنها نظمت بعد الحرب العالمية الثانية .

- ٣ -

الدستور العثمانى

كان إعلان الدستور العثمانى بداية عهد جديد فى التفكير العربى عامة والعراقى خاصة ؛ فقد أثر كثيراً فى تغيير الاتجاه العقلى وفتح الأذهان على مثل جديدة وألفاظ حديثة لم تكن مألوفة لأهل القرن التاسع عشر وما نشئوا عليه من استبداد مطلق ، وتحكم فى رقاب الناس ، فقد تفاعل الشعب به كثيراً فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية وظنه يخصب الأرض ، ويثرى الفقير ، ويكسو العريان ، ويشبع الجائع ، ويطلق للناس حرية كاملة فى التعبير عن آرائهم بصورة مطلقة لاتحدها قيود ولاتقف أمامها حدود .

أعلن الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ فكان صدى إعلانه كبيراً على الشعب — وخاصة الشعراء — فقد فرحوا فرحاً شديداً به وبدت علائم الفرحة تسرى فى شعرهم ، وقد انقسم هؤلاء الشعراء إلى قسمين أو اتجاهين :

الاتجاه الأول وقد ضم جماعة ممن عاشوا على التراث التقليدى ، وهو امتداد للقرن التاسع عشر فى أسلوبه ومعالجته للموضوع ، فوجدنا فى شعرهم المبالغة ورصف الألفاظ ، والإطالة التى تطفح بحشو يخرجهم عن الموضوع الذى نظموا فيه فقد يبدءون القصيدة بالغزل ، أو بمدح إنسان ، ويبعدون عن الموضوع كثيراً ، وعن أساسه ، ومن أمثلة هذا الاتجاه حسن العذارى ، وصالح الحلى ، ويكاد ينضم تحت هذا أكثر شعراء النجف.

والاتجاه الثانى انبثقت تياراته من شعراء ابتعدوا عن أجواء المساجد والبيئات الدينية الصرفة ، وانضموا إلى ركب الحياة الواقعية ، وفى هذا الاتجاه وجدنا بذور التطور الحديث تنمو فى أسلوب الشعر ومعانيه وأغراضه

وأهدافه . وقد كان هؤلاء من الشباب المندفع الذى أوتى حرارة الشباب ، وحماسة العمر فأيدوا الدستور باندفاع ، فقد أخذ الزهاوى والرصافى يخطبان فى الناس ويشرحان لهم فوائد الدستور (١) ، وقد كان محمد رضا الشبيبى عضواً من أعضاء حزب الاتحاد والترقى العاملين (٢) ، كما انضم الأزرى إلى حزب الائتلاف .(٣) والواقع أن الشعراء آزروا الدستور العثمانى آملين فيه المساواة مع الأمم الأخرى ، والحرية للتعبير عن آرائهم ، والعدالة التى يجب أن تشمل بلادهم (٤) ، فجاء شعرهم أناشيد تطفح بالحرية والتغنى بمحاسنها ومزاياها وما ستدره على الناس من خير ، ثم تطرقوا فى شعرهم إلى مساوئ الاستبداد والطغيان والحكم المطلق ، الحكم الدكتاتورى الفردى ، الذى يؤدى دائماً إلى الانحلال والتقهقر ونشر الفساد وهدر قيمة الشعب فى جميع الأمور ، والاعتداد بشخصية الحاكم مهما كانت تافهة جاهلة .

ومن أمثلة شعراء الاتجاه التقليدى السيد عبد المطلب الحلى ؛ فقد وجدت له قصيدة يندد فيها بالعهد الاستبدادى الذى كان مخيماً على الشعب ، وماجره هذا العهد على البلد من فساد وفوضى ثم يشيد بالعهد الدستورى الجديد . والقصيدة تطفح بالمبالغة ويكثر فيها الحشو وتعتمد على المحسنات اللفظية ، ففى الأبيات الثلاثة التالية يقول :

لك الأمر فاحكم بالذى أنت عالم ... فمن ذا يرد الحكم والله حاكم

عن القائم المهدى قمت بأمره ... أيا قائماً أنهى له الأمر قائم

عزمت فأغرمت المليك وقد نجا ... بحق الهدى والمتلف الشىء غارم

فى الأبيات جناس اشتقاق بين حاكم وحاكم ، وجناس تام بين القائم المهدى الإمام الثانى عشر والقائم الممدوح ، وفى الفعلين عزم وأغرم جناس تصحيف فى حرفين ، ثم نجد الطباق والمقابلة فى المتلف والغارم ومثل ذلك .

---

(١) سحر الشعر ص ٥٢ مصر ١٩٢٢ .

(٢) معروف الرصافى – طبانة – ص ٧ مصر ١٩٤٧ .

(٣) الأدب العصرى جـ ٢ ص ٥١ .

(٤) ومن هؤلاء خيرى الهنداوى فقد وقف قلمه على نظم القصائد وكتابة الفصول فى تحبيذ الحرية والدعوة لها – الأدب العصرى جـ ٢ ص ١٦٢ .

ويستمر في القصيدة على هذا النسق إلى أن يصل إلى القصد فيهاجم الجور ، والظلم ، والاستبداد ، الذي يحطم المستبد كما حطم عبد الحميد الذي لو عدل بين الرعية ، وساوى بينهم ، ونشر لواء الحرية والمساواة لما أصبح رهين القيد كسيراً ذليلاً ، وبعد ذلك يتطرق إلى مدح أولئك الذين أفاءوا على الشعب بالحرية والعزة ، وهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (٥) الذين زحفوا من سلانيك بعزم وقوة وإيمان لإرغام الجبار على التسليم بحقوق الأمة فيقول :

فهبت رجال من (سلانيك) أيقظت　　إلى العدل عين الحزم والحزم نائم

رجال هم الأسد الضراغم صولة　　لدى الروع لاأسد العرين الضراغم

دعوا للتساوي دعوة وطنيـة　　أجاب لها منهم جهول وعالم(٦)

ويمتدح بعد ذلك الخليفة الجديد محمد رشاد آملاً في عصره الخير والرفاه والسعادة ، ولايخرج عن أسلوب القرن التاسع عشر من حيث العناية بالألفاظ فيقول : إنه بيض وجه الملك الذي سودته المظالم وأصبح ثغر الليالي مبتسماً .

أما الشاعر الآخر الذي نأخذه مثلاً لهذه الطبقة فهو الشيخ حسن العذاري فقد بدأ قصيدته بغزل متكلف ليس فيه روح ، وتأبى الروح أن تسري في أوصاله ثم يتخلص منه إلى مدح السلطان محمد رشاد ، ويراه بدر الخلافة ينير الدولة العثمانية ، ويبشر الأمة بأن عهده عهد العدالة ومحق الظلم ، وقد تساوى في زمنه الشعب أو الرعية ، ثم يطيل في قصيدته ، ويخلص إلى مدح حزب الاتحاد والترقي الحزب القوي الأمين الوطني المخلص الذي قضى على استبداد عبد الحميد وعلى أيامه فيقول :

ما الانتظار وما القعود ذوي النهى　　شرف (الترقي) بابه لايوقب

---

(٥) بشأن حركة الاتحاد والترقي يراجع المقال: The Young Turk Movement في كتاب صدر في نيويورك عام ١٩٢٤ اسمه : Modern Turkey وقد ألف من قبل Eliot G. Mears الصفحات ما بين ٤٧٦ – ٤٩٠ .

(٦) شعراء الحلة للخاقاني – ٢٢٣ – ٢٢٦ ج ٣ نجف ١٩٥٢ وله قصيدة أخرى يمدح فيها الاتحاد والترقي ص٢٠٩ ويراجع تفصيل طريف في الفصل الثاني عشر من كتاب (عبد الحميد ظل الله على الأرض) .

لاتقعدوا متكاسلين عن العـــلا   من شاء أن يصل الغزالة يتعب(٧)

أما الاتجاه الشعرى الثانى الذى ناصر الدستور فهو اتجاه العصر الذى كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، ومن هؤلاء معروف الرصافى الذى نظم كثيراً (٨) فى الدستور ، وناصره مناصرة المؤمن به الحريص عليه ، فوصف يوم إعلانه ، وكيف استقبل الناس هذا الإعلان ، ووصف مشاعره وتطرق فى شعره إلى مجلس « المبعوثان » وما يأمل على يد هذا المجلس من الخير للشعب ، ثم هاجم السلطان عبد الحميد ممثلاً للاستبداد والحكم المطلق ، والجور ، والطغيان ، ثم ناصر الجيش الذى عزل هذا السلطان ، وقضى على حركة الرجعية التى أرادت بالبلاد الشر والفساد ، وأرادت القضاء على الدستور . وعندما لم يطبق الاتحاديون نصوص الدستور ، ولم يرعوا حقوقه شكا إليه بحرقة وألم مما حاق به وبالبلاد من عدم تطبيق أحكامه ، ولما سقطت وزارة الاتحاديين سجل هذا بقصيدة . ويكاد الرصافى أن يكون المؤرخ العراقى لهذه الفترة من حياة الأمة ، هذه الفترة الحافلة ، فترة نضال بين شعب يريد أن يسترد حريته ، وبين رجعية تريد أن تنقض عليه ، وتستعبده خادماً مطيعاً ذليلاً لذلك كانت أفراح الرصافى أفراح شعب ، أو أفراح شعوب فى الشرق أو فى الغرب عندما فرح بالدستور . وغنت الدنيا طرباً به عندما زف رجال الجيش هذا الدستور للشعب فأقبل الشعب شاكراً راضياً فقال :

سقتنا المعالى من سلافتها صرفـا   وغنت لنـــا الدنيـــا تهنئنا عزفا

وزفت لنـا الدستور أحرار جيشنا   فأهلاً بما زفت وشكراً لمن زفا

فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً   وقد كان قبل اليوم لايشكرالسيفا

---

(٧) شعراء الحلة ٦١ — ٦٥ .

(٨) لاحظ ديوان الرصافى الصفحات ١١٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ .

ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا بيعض هتافاً يصعق الظلم والحيفا
ولاحت لنا حرية العيش عندما أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفا (٩)

وقد شارك عبد المحسن الكاظمي فى مهجره بالإشادة بالدستور بقصيدة طويلة جاوزت المائة بيت ؛ فقد رأى الدستور خفاق اللواء ، وأن ذكره العاطر قد انتشر بين المحافل ، وتبرز لنا أشواق الكاظمي للدستور شعور الناس ، وما انتابهم من غبطة وسرور بهذا الإعلان ، وبذلك قد ثبت أن جميع أبناء الدولة العثمانية أو رعاياها قد فرحوا بهذا الإعلان آملين خيرهم وسعادتهم. وقد رسم الكاظمي صورة طريفة وصف فيها مشاعر الناس وحالهم بعدما تخلصوا من العبودية وغدوا جميعاً إخواناً ، وصفهم وهم يتعانقون ، ويصافح بعضهم البعض شأن كل عمل خير يعود على الأمة فيوحد بينها ، وتطغى على الشاعر الفرحة وموجة التفاؤل فيوجب إحياء الليل والنهار فى هذا العيد الذى لايدانيه عيد . إنه عيد الإنسانية جمعاء ، عيد الحرية وما أجمله من عيد فيقول :

هو العيد أحيوا ليله ونهاره وحيوه بالبشر الذى هو لائق
وما مثل هذا العيد عيد تجلة جميع الورى أعداؤه والأصادق (١٠)

فرح الكاظمي وهو فى مصر وكانت مصر منقطعة الصلة السياسية بالعاصمة إلا بالاسم ، فراح يهتف باسم الشعب ، ويهتف للحرية التى ستعم العثمانيين وغير العثمانيين لأن الأقلام ستكون طليقة حرة تكتب ما تريد ، وتعبر عن الرغبات بصراحة وبأمانة لاتخاف من السلطان ، ولامن أعوانه ، وبذلك فقد دالت دولة الظلم بعد أن قاسى الشعب من إرهاقها ماقاساه من الآلام ، وعانى ما عاناه من تحمل الذل والهوان ، ثم يصف الثقة بالمصلحين ، وبما يحققه الدستور للشعب بقوله :

ولما تبدى للعيان تيقنوا بأن بروق المصلحين صوادق
إذا ما دعوا للحق صمت وجلجلت مسامع أخزاها الهوى ومناطق

---

(٩) ديوان الرصافى ص ١١٣ .
(١٠) مجموعة شعر الكاظمي ج ٢ ص ١٢٦ مصر ١٩٤٨ .

أجابوا نداء الشعب رغم أنوفهم وقالوا سلاماً والصدور حوانق(١١)

وقد سرّت ثورة حزب الاتحاد والترقى على السلطان محمد رضا الشبيبى لأنه يرى أن الثورة تحقق مطالب الشعب بإعلان الدستور ، لأن الدستور كالنور الذى ينبعث فى الظلمة الحالكة فيحيلها عالماً واضحاً مشرقاً جميلاً بعيداً عن الأشباح والمخاوف ، فتعم الفرحة الشعب بهذه الإشراقة الحبيبة ، وتخطر النجوم فرحاً وابتهاجاً بالدستور . وكيف لاتضحك البحار ، وتبتسم النجوم ، وتشرق الدنيا وقد تحرر العبد ، وانتشرت الحرية بين الشعب.

طرقت وضاحية النهار دجنة والحر عبد ، والدنى أملاك
فأضاء عنها البرق ينبض عرقه سلكاً عليه حلى السنا أسلاك
ضحك المحيط لوقعها وتبسمت عن ثغر أنجمها لها الأفلاك (١٢)

أما الزهاوى فيلقى خطبة طويلة بعد إعلان الدستور عندما تعقد جمعية الاتحاد والترقى فى بغداد اجتماعاً ويرى أن الدستور العثمانى قد حقق العدالة ، ثم يصف هذه العدالة بالفتاة الجميلة وقد تجمع حولها الأحرار يحمونها من المعتدين والمستبدين ، ثم يتطرق إلى فضل الحرية على الأمة التى تطلق الشعب من إساره فلا يعرف الذل الدائم عند ما تنشر ألويتها ويعرج على الظلم يندد به ، ويهاجم الظالمين الذين يسوقون الشعب بالسوط ، ويحكمونه بقوة الحديد ، ويسخرونه دون أن يراعوا له عاطفة أو إحساساً فيقول :

والظلم مفسدة ما حل فى بلد إلا وأزعج فيه أى إزعاج
قد أعلنت للورى حرية فمضى زمان سخرة ذى أمر وقرباج(١٣)
وأطلقت كل نفس من إسارتها هذا الذى كان يرجو نيله الراجى(١٤)

وللزهاوى قصيدة أخرى بلغت خمسين بيتاً نظمها بعد إعلان الدستور وموت صديقه وزير الحربية رجب باشا ، وفيها تطرق إلى شعار الاتحاديين

---

(١١) المصدر السابق ص ١٢٩ .
(١٢) ديوان الشبيبى ص ٥٢ طبع مصر سنة ١٩٤٠ .
(١٣) القرباج — السوط — تركية .
(١٤) الكلم المنظوم بيروت ١٣٢٨ ص ١٨٣ .

(الحرية والعدالة والمساواة) ، وأثر هذا الشعار فى حالة الشعب ، ويقف عند العدل ويشبهه بالغانية الجميلة التى تحلت بالأحجار الكريمة فبدت زاهية حالية (١٥) .

ومن الذين عقدوا الآمال الجسام وطربوا طرباً شديداً عبدالرحمن البناء ، فقد رأى الحرية فتاة حلوة الشمائل ، رقيقة السجايا ، لطيفة المزايا ، وأنها ستغمر الشعب بهذه المحاسن ، وضمن شعره بكلمة مشروطة التى أخذها من المشروطية (١٦) التى يرى العدل بها منتشراً ، والجور مولياً الأدبار ناجياً هارباً من العدل الساطع الأنوار .

أما إبراهيم منيب الباجه جى فقد نظر من زاوية أخرى زاوية الأحزاب ، فقد رأى الدستور يهدم بناء المفسدين بعد أن شاد الأحرار مجدهم شامخ الذرا سامقاً بين الشعوب ، وأن دولة الإسلام ارتفع نجمها بين الأمم لأن يوم الدستور هو عيد الشعب ، وهل غير الحرية والدستور من أمانى هذا الشعب حين قال :

يوم تهدم ركن المفسدين بـــه	وقد تشيد للأحرار صرح علا
يوم به خاب حزب المستبد وقـــد	ولى ونال بنوالشورى به الأملا(١٧)

هكذا كان حال الشعراء الذين عكسوا أفراح الشعب وأمانيه وأحلامه فى الدستور ، وفرحوا بالانقلاب الجديد واصفين بشعرهم ماكان للدستور من أثر فى جميع الشعوب من مختلف الأجناس ومتنوع الأديان والقوميات ، لأن الدستور معناه المساواة بين الناس دون النظر إلى أى اعتبار إلا كونهم مواطنين ، بيد أن عبد الحميد نكث بعهده الذى قطعه فى المحافظة على الدستور ، وأغرى الصحف بمهاجمته ، وتلمس الأسباب المفتعلة للقضاء عليه ، معتمداً على بعض رجال الدين للقيام بحركة رجعية مما دفع بالجيش إلى أن يستعمل القوة ويدخل الآستانة ويحاصر قصر عبد الحميد (يلدز) ويشتبك مع رجاله

---

(١٥) الكلم المنظوم ص ١٨٥ وديوان الزهاوى ٢٧٤ و ٢٧٥ .

(١٦) صدى بابل العدد ٥٥-١ شعبان ١٣٢٨ هـ .

(١٧) زنابق الحقل طبع بغداد ١٩٣٩ ص ١٢٠ .

عبد الحميد ، ويحمل السلطان على التسليم ، ويقبض على أنصاره ، ويعدم عدداً منهم ، وتجتمع الجمعية العمومية فتعزل عبد الحميد ، وتولى السلطة السلطان محمد رشاد فى ٢٧ من نيسان ١٩٠٩ (١٩) .

هذه السياسة الرجعية للقضاء على حقوق الشعب التى حصل عليها تبدو واضحة فى شعر هذه الفترة ، ويبرز اسم الجيش واضحاً ، وينظم الشعراء فى تمجيده وتخليده ، ويهاجم الشعراء سياسة عبد الحميد التى انتهجها ، تلك السياسة الظالمة سياسة التفرد بالحكم ، وجر البلاد إلى الانحطاط ، والتدهور ، والتأخر ، وكبت حريات الشعب ، والتنعم بملذات الحياة ، ويقف الرصافى على رأس هؤلاء الشعراء العرب ، فيصف زحف الجيش الذى قدم من سلانيك إلى الآستانة لقمع الحركة الرجعية التى تناصر حكم السلطان عبد الحميد ، وتؤيد سياسته (٢٠) . ويصف جنود هذا الجيش الذى وحد الهدف السامى بينهم برغم اختلاف أديانهم وقومياتهم ، وهل هناك هدف أسمى من الحرية والمساواة والعزة والكرامة يوحد الشعوب فتسير من أجله نحو المنية ؟ . فيقول :

فكانوا الجيش ألف من جنود مجندة ومن متطوعينا
تراهم فيه متحدين عزماً وما هم فيه متحدين دينا
هى الأوطان تجعل من بنيها إخاء فى محبتها رصينا
وتتركهم أولى أنف كباراً يرون حياة ذى ذل جنونا
وأن الموت خير من حياة يظل المرء فيها مستكينا

لقد رأى الرصافى أن ضياع الدستور ، وكبت الحريات ، ونجاح الحركة الرجعية التى يقوم بها السلطان عبد الحميد ماهى إلا العودة بالشعب إلى عهد الاستبداد وتحكم الفرد بالجماعة إيثاراً للذته وشهواته ورغبة فى

---

(١٩) الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد حسين ، مصر ١٩٥٤ ص ٣٠ .

(٢٠) فى ديوان الرصافى وصف لأحد المشنوقين الرجعيين ص ٢١ . انظر جريدة الرقيب العددين ١٥ و ١٧ من السنة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ بصدد حركة بعض القبائل لمناصرة السلطان عبد الحميد ، وقمعها من قبل يوسف باشا . وفيها شعر لمحمد طاهر السماوى .

إعادة الظلم والجور والطغيان إلى سابق عزه وضراوته على أبناء الشعب فقال :

فقد هاجوا على الدستور شراً　　بدار الملك كي يستعبدونا
هم الأشرار باسم الدين قاموا　　فعاثوا فى المواطن مفسدينا

ولكى يضرب مثلاً حياً للطغاة ودرساً خالداً للظالمين استمر فى وصفه دخول الجيش إلى قصر « يلدز » والقبض على السلطان عبد الحميد وإرساله سجيناً إلى « سلانيك » لأنه لم يرع حرمة الدستور واليمين التى حلفها من أجل صيانته فقال :

لقد نقض اليمين وخان فيها　　فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى　　شقاء من تجبّره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم　　وكم من أهلها قتل المئينا(٢١)

والرصافى شاعر الحرية لم يكتف بقصيدة واحدة للدفاع عن الشعب وعن حقوقه إنما كان مثلاً حياً ولساناً ناطقاً معبراً خير تعبير عن أمانى الشعوب ؛ فقد وقف نفسه فى سبيل الذود عن الشعب ، وعن حريته ، ومحاربة الجور والحكم الفردى ، وفى ديوانه الشعر الغزير ، نظمه فى مناسبات كثيرة ومن هذه القصائد ما كان منها قبل إعلان الدستور وبعده (٢٢) . وبذلك الدليل الواضح على أن الشعب كان له من شعور وإحساس بمرارة الظلم والاستبداد قبل أن يوقظ الدستور حماسة بعض الشعراء فيدفعها إلى النظم ، ومن هذه القصائد تلك التى نظمها بعد سقوط عبد الحميد خاطب فيها القصر (يلدز) الذى كان يطفح بالغبطة والسرور والصفاء ، وإلى جانبه شعب يفيض بؤساً وشقاء وآلاماً ، فيخاطب ملوك العالم وطغاته جميعاً ، ويجعل من عبد الحميد مثلاً ودرساً يجب على الملوك اتخاذه عبرة حتى لاتسول لهم نفوسهم يوماً الاعتداء على حقوق الشعوب بخنق حرياتها وإهمال مصالحها لأن عاقبة الظلم والطغيان

---

(٢١) ديوان الرصافى القصيدة ص ٣٧٤ — ٣٧٧ .

(٢٢) لاحظ فى ديوان الرصافى الصفحات ٤٥ و٦٣ ، ١١٦　١٢٢ — ، ١٦٢ — ١٦٤ و ٣٧٧ - ٣٨٠ .

وخيمة تجر على صاحبها الويل ، وما تقييد الملوك لحريات الشعب إلا لخوفهم من ثورته التي تركتهم يعيشون في رعب وجزع من هذه الحرية التي تجرهم إلى مصيرهم المحتوم .

يا ملــوك الأنام هلا اعتــبرتم   بملوك تجـــور في الأفعـال
ليس عبد الحميد فرداً ولــكن   كم لعبد الحميد من أمثـال
فاتركوا النـــاس مطلقين وإلا   عشتمُ موثقين بالأوحـــال
هل جنيتم من التجـــبر إلا   كل إثم عليكم ووبال (٢٣)

وقد كان لأعمال عبد الحميد أثر كبير في نفوس بعض الشعراء فقد لاحقوه حتى في سجنه وتصوروه يلوم نفسه حسرة وألماً على ما قدمت يداه ، وما فرط في حقوق الشعوب التي كان يحكمها ذاكراً تلك الأيام العِذاب لائماً الدهر الذي أنزله من عرشه بينما أصبح الذين كانوا رعاياه أسياده وحكامه والمتصرفين في أمره فيقول إبراهيم منيب الباجه‌جي على لسانه :

أرقت ومالي مؤنس غير وحشتي   وتسكاب دمع صاعد من حشاشتي
أفكر في ماض سعيد قضيتــه   فأعقبه دهري الخئون بشقوتي (٢٤)
سقاك الحيا يا معهد الأنس والمنى   فبعدك شابت بالفراق شبيبتي

ويخاطبه عبد العزيز الجواهري بقوله :

أراك أسير أحــزان وقيــــد   وكنت أراك ترسف في السرور
وقد كنت الأمير على السرايــا   فكيف رسفت في قيـد الأسير
غريب لو جزيت الخير لــكن   جزيت الشر يا شر الدهور
لقد أوغرت صدر الجند حتى   أراك الله عاقبـة الغـرور (٢٥)

وقد شارك عبد المحسن الكاظمي إخوانه في العراق في لوم الاستبداد ،

---

(٢٣) ديوان الرصافي ٣٧٧ — ٣٨٠ .

(٢٤) زنابق الحقل ص ١٣٧ .

(٢٥) الأدب العصري ج ٢ ص ١٦٦ .

واعتبر عبد الحميد ممثلاً له وأن عهده عهد المآسي والأحزان التي انصبت على كل الشعوب التي كان يحكمها . وبعد ذلك يعرج في القصيدة إلى نكث عبد الحميد للعهد الذي أقسمه على حماية الدستور ، والمحافظة عليه ، ولايكتفي بذلك ، إنما يندد بعبد الحميد ويهجوه هو وأصحابه الذين شنقهم الجيش ، ويقول لهم : إن المطامع الشخصية هي التي ساقت هؤلاء إلى حتوفهم ، وكم سقطت من أجل تلك المطامع رءوس :

حسبتَ زمان السوء يخلد عمره   فيمرح عات أو يتيه منافق

وفاتك أن الدهر يعطي وينثني   فيسلب والمغرور بالدّهر واثق

ألا قاتل الله المطامع كم هوى   بها من عل شيخ وضلّ مراهق(٢٦)

ليست العبرة بوضع الأنظمة والخطط والدساتير ؛ إنما العبرة في التطبيق وفي مدى استجابة الشعوب للنظم الجديدة . ولكن المحتاج تطربه رؤية المال ، ويزيد من طربه أن يقال له : إن هذا المال معد لك ، فيبني الآمال العراض حتى يعتقد أن الأمر أصبح حقيقة . وهذا ماحدث في الدستور العثماني ؛ فقد كان الناس بحاجة إلى الحرية والمساواة والعدالة ، وبحاجة إلى ما يشبع نفوسهم وأجسامهم ؛ فعندما أعلن الدستور انبعثت هذه العواطف تهتف من أعماقها تحيي هذا المولود الحبيب الذي سيحقق لها ما تريده ، وقد شملت الفرحة كل فرد في أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، فكيف لايشمل النواب الذين سيكونون حراساً لهذا الدستور . إن الفرح الواسع والأمل العريض المجنح رسما للناس صوراً خيالية اعتقدوا بأنها هي الواقعية ؛ لأن أيام الطغيان والاستبداد والسخرة وطولها أفقد الناس التمييز الذهني أوالتوازن العقلي ،وكانت نقلة الدستور ، وما أثير حوله من دعاية كافية لترسم للشعوب الخيال واقعاً ذهبياً عذباً يفيض بالسعادة ويرفل بالهناءة ، وكأنهم يعيشون في جنات عدن التي وعد بها المتقون .

وهاهم نواب العراق يرون الإصلاح وشيكاً ، وهاهم يتصورون

---

(٢٦) ديوان الكاظمي ص ١٢٨ - ١٢٩ ج ٢ .

العراق قطراً مزدهراً بالخصب والرخاء والزراعة ، فى ظل العهد الجديد ، عهد الحرية والمساواة والعدالة :

يخطب على علاء الدين فى حفل تكريمى لتوديعه قبل سفره إلى الآستانة فيقول :
« ..إننا — والثقة بعونه تعالى وتوفيقه — فى عزم أكيد على محافظة حقوق القطر العراقى خاصة ، والممالك العثمانية عامة ، وبذل الجهد فيما يعود على صلاح هذا الوطن العزيز الذى استحكمت فيه الرابطة بين أصناف جميع الرعية كائناً من كان ، فإنهم — على اختلاف مذاهبهم ، وأديانهم ، وتشعب فرقهم ، وآرائهم — يرمون إلى غاية واحدة ، هى سلامة الوطن باستخلاصه من حضيض التلف إلى أوج السعادة والشرف » ولايكتفى النائب بما ذهب إليه من تفاؤل يرفع به العراق من الحضيض إلى الأوج ، وإنما يشرح الأعمال التى يقوم بها فيقول : «علينا التوصل بكل وسيلة إلى ما يعود لسعادة الخطة العراقية التى لها من عظيم الأهمية فوق مايعلمه أهلها ، ونجهد كل الجهد فى حصول الأسباب الكاملة بترقى زراعتها وتجارتها وأمنيتها وانتظام إدارتها من إعمارها وتسهيل طرقها والوسائط النقلية فى أنهارها وداخلها وخارجها »(٢٧)
والرجل مخلص — كل الإخلاص — فى قوله وصادق النية وهذا دليل واضح على مدى تفاؤل الناس بالعهد الدستورى الجديد ، ولكن هل فكر بكل شيء قاله هذا النائب ، وهل له علم بمقدار الإصلاحات التى يجب أن تقوم بها الدولة ، والمبالغ التى يجب أن تتوفر لإنجازها ؟ والإمبراطورية تركة من فساد وانحطاط وإهمال فى جميع المرافق ! ! إن ساعات الخيال حلوة ، ولاتريد أن تهبط إلى الواقع ، ومتى اصطدمت به ردت قوية مثل اصطدامها . ولم يكن على علاء الدين وحده ؛ فهذا معروف الرصافى تذهله الفرصة فيرى فى المجلس النيابى الشمس التى تشرق لتبدد دياجير الظلمات الحالكة ، ويظن فى إعلان الدستور إيذاناً بزوال الظلم ، وسريان الحق فى مجراه الطبيعى ، لأن المجلس كالسماء التى تظلل الشعوب العثمانية كلها ، ولأنه نادى

(٢٧) أعلام العراق — القاهرة ١٣٤٥ هـ ص ٧٤ .

الحق والشورى والعدل ، ويظن ظهور الدستور فى الدولة العثمانية بادرة خير سوف تعم الشرق كله فيقول :

يا شرق بشراك أبدى شمسك الفلكُ ... وزال عنك وعن آفاقك الحلَكُ
أضحى به القوم أحراراً قد اعتصموا ... من النجاة بحبل ليس ينتبك
نادٍ به القول عن أهليه مستمعٌ ... والحق متبع والأمر مشترك (٢٨)

هذه الفرحة ، وتلك السعادة ، والآمال العراض العذبة الجميلة التى عمت النفوس كان من الصعب أن تترك بسهولة ، إن الخيال المجنح والآمال الواسعة التى رسمتها الأخيلة الجائعة صدمتها الحقيقة ، وكانت الصدمة قوية ، لذلك استحالت الفرحة إلى ألم دفين ومرارة لا تطاق لأن الشعوب أرادت المستحيل من الدستور الجديد فتصوروا أن إعلان الدستور — وحده — سوف يحيل الأفكار إلى عسل ولبن ، فتغدو البلاد مزدهرة والنفوس متمدنة متعلمة ، وسوف تنتشر المصانع والمعامل فى طول البلاد وعرضها،وأن جميع الأوضاع الفاسدة ستصلح ، وفاتهم أهم مقوم وأساس كل إصلاح؛ فاتهم ماتحتاجه هذه الإصلاحات من أموال ، ومن أيد فنية وخبرة طويلة ، بل فاتهم ما كان عليه القائمون على الانقلاب من أخلاق ، وأنهم لن ينقلبوا ملائكة فى ساعات معينة ، وأنهم بشر لهم مطامعهم الخاصة ، ورغباتهم الفردية ، وقد عاشوا فى عهد كله فساد وانحطاط ، ولابد من أن يؤثر الفساد فى نفوسهم وعقولهم وتصرفاتهم — إلا من عصم ربى — وهذا ماحدث فى الدولة العثمانية عندما قامت جمعية الاتحاد والترقى بعملها وعزلت عبد الحميد ، فوجدت الخزينة قد أشرفت على الإفلاس ، وأجدبت الأراضى نتيجة لإهمال الرى المتوالى ، وانتشرت الأمراض لعدم وجود أطباء ، وعشعش الجهل لعدم الالتفات إلى العلم ، واختل النظام لحرمان الدولة

---

(٢٨) ديوان الرصافى ص ٣٨٢ .

من أيد حازمة نظيفة أمينة ، وتفشت الفوضى(٢٩) . كل هذا مع عوامل كثيرة سيطرت على الدولة العثمانية والشعوب العثمانية ، جعل من المستحيل أن تتم الإصلاحات فى فترة قصيرة ، والدستور وحده لافائدة منه إذا لم تعد له أسباب التقدم ، ومالم يكن الشعب نفسه مستعداً للسير فى الحياة الدستورية وممارستها ، ولقد كان الصدى عميقاً فى نفس الرصافى الشاعر النائب الذى ردد أناشيد الغبطة والسرور بالأمس فقال اليوم :

شكاية قلب بالأسى نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق

أى شكاية أشد إيلاماً من قلب ينبض بالأسى والأحزان ! وماأشد وقع الألم على غير استعداد له ! وما أصعب الانتقال من السرور إلى الحزن ! لذلك فهو لا يرى لغير الدستور والعدل والحق أى سلطان وبذلك يطلب المستحيل فى هذا العصر الذى ضاع فيه الدستور وأهين العدل وهدرت كرامة الحق ، فيجأر شاكياً من كبد محترق قائلاً فى تعجب غير مصدق بما يراه :

فهل أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصوارم طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم تبد عنفاً حين جئت وإنما هتفنا جميعاً بالوفاق وبالرفق
وظلنا نرجى منك للخرق راقعاً ولكن تراخى الأمر متسع الخرق
بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعد لديهم فيا لله للمسعد المشقى

---

(٢٩) هناك كثير من الكتب التى تبحث فى العصر العثمانى التركى منها :

١ - The Caliphs, Last Heritage

وقد ألفه سير مارك سايكس النائب فى مجلس النواب البريطانى صاحب المعاهدة المشهورة عن سياحة قام بها باحثاً فيه حياة الإسلام منذ تكوينه حتى العهد الذى ساح فيه . ومركز الخلافة العثمانية . طبع فى لندن سنة ١٩١٥ .

٢ - تركيا وقد ألفه Kirk Wood, Toynbee

طبع فى لندن سنة ١٩٢٦ .

وبعد هذه الاستغاثة الواضحة بما حصل له فى قوله (يا لله للمسعد) يظهر ما حاق بالشعب من جراء تحكم الاتحاديين فى تأليف الوزارات حسبما تشتهى مطامعهم وأغراضهم فيقول : هم الذين استأثروا بالخيرات ولم يتركوا للأمة شيئاً عندما جعلوا الدستور الذى أرادته الأمة بكل قواها أداة للرزق والإثراء وغدا آلة لمصالحهم على حساب الشعب :

قد استأثروا بالحكم وارتزقوا به ... وسدوا على من حولهم طرق الرزق
كأنا لهم شاءٌ فهم يحلبوننا ... وكم مخضوا أوطاننا مخضة الزق
وهم يأخذون الزبد من بعد مخضها ... ولم يتركوا للساكنين سوى المذق(٣٠)

ويقف « على الشرقى » وقفة الحائر فى أمر العراق ؛ إذ أنه رأى إعلان الدستور لم يغير شيئاً من حالة العراق العامة ، وكأن هذا الحدث الذى كان مقدراً له أن يدر على العراق الخير الوفير لم ينله بشىء والعراق متأخر ، وقد عبر عن حيرته بشعر غير واضح الهدف ولجأ إلى اللف والدوران ولم يقدر إلا أن يقول :

نطقت بحاجتها الشعوب وأفصحت ... وأرى عراقى واجماً لا ينطق
وكأن هذا الشرق سفرٌ غرائب ... أضفى عليه الدارجون وعلقوا
خُتمت صحائفه وجئنا بعدها ... حتى كأنا فيه فصل ملحق
ماذا تغير والبلاد بأهلها ... بغداد بغداد وجلّق جلّق (٣١)

أما « البناء » فقد كان أوضح قصداً وأفصح مراداً من « على الشرقى » ؛

---

(٣٠) ديوان الرصافى ص ٣٨٩ و ٣٩٠ وله قصيدة لم تنشر فى الديوان وقد نشرت فى جريدة الرقيب العدد ١٥٦ – ١ سنة ١٣٢٧ مطلعها :

« أرى بغداد تسبح بالملاهى » قد أخبرنى سيادة الأستاذ مصطفى على : أن الرصافى لم يلحقها فى ديوانه عندما كان حياً . وللزهاوى قصيدة مطلعها :

لا تنتظر لعصابة رشدا ... فيها تساوى الرأس والذنب

هاجم فيها جمعية الاتحاد والترقى مهاجمة عنيفة ويبدو لى أنها نظمت بعد الحرب العالمية الأولى : راجع اللباب ص ٥٩ طبع بغداد ١٩٢٨ .

(٣١) عواطف وعواصف ص ١٩٨ بغداد ١٩٥٣ .

فقد طالب بالإصلاح ، ولام نواب العراق الذين ذهبوا ليمثلوه فى مجلس الأمة دون هوادة فقال معنفاً :

فقولوا لنواب العراق أما لكم تغافلتمُ عنا بأعلى المـــــراتب
يشق علينا جبنكم وخمـــولكم ولو كنتمُ نسل الكرام الأطايب

ويحثّ النواب على الدفاع عن حقوق الشعب والمطالبة بالإصلاح فيقول :

فليس انتخبناكم لإصلاح حالكم فنحن انتخبناكم لدفع النوائب
فلا تجعلوا للصمت فيكم سجيـــة فرب كلام فاق سيف المحارب

ويضع حالة الأمة المتأخرة بين أيديهم وما حاق بها من انحطاط حتى لايبقى لهم عذراً بقوله :

فما عذركم فى أمة قد تقهقرت ولم يبق فيها غير حسرة خائب(٣٢)

ومما زاد فى هذا التشاؤم العنصرية التى انتهجها رجال الاتحاد والترقى ، وكان الألم ممضاً إذ وجدت الشعوب فراغاً فى حياتها ، وكان هذا الفراغ واضحاً ؛ فقد كان يربطهم بالدولة الدافع الإسلامى ، ولم يكن هناك ما يركنون إليه بعد ذهاب هذا الرابط ، وفقدان شىء تعود عليه المرء يضاعف فى نفسه الألم والحزن إذ اضمحلت الروح العثمانية التى كانت تتميز بالإسلامية ورعايتها للإسلام ، وأخذ تيار التتريك الجديد يهدد العرب فى لغتهم وقوميتهم وحياتهم .

لذلك اندفع العرب نحو جهة جديدة ليسدوا هذا الفراغ ، وليحافظوا على كيانهم العربى ولغتهم ، فظهرت بوادر القومية ، ونمت ، وأخذ العرب ينظرون إلى أنفسهم عنصراً واحداً له ماللأتراك من حق الحياة ، وله قوميته كما أن للأتراك قوميتهم ، بل إن للعرب تاريخاً مجيداً حافلاً بالفخر لايدانيه تاريخ الأتراك ، ولهذا طالبوا بالانفصال عن الأتراك ، وتأسيس دولة توحدهم ، وتجمع شتاتهم وتدافع عن مصالحهم المشتركة :

---

(٣٢) صدى بابل ٧٥ – ٢ سنة ١٩١١ . ويراجع ديوان الزهاوى ص ٨٠ وله قصيدة فى الاتجاهات الأدبية يهاجم فيها قادة الاتحاد والترقى ص ٦٦ .

— ٤ —

حروب الدولة وأثرها فى الشعر

كان لحروب الدولة العثمانية أثر كبير فى إثارة حماسة الشعراء فقد أيدها الشعراء تأييداً مطلقاً يدفعهم الشعور الدينى لأنهم كانوا يرون فى حروب الدولة العثمانية دفاعاً عن الكيان العثمانى الذى هم جزء منه ، ضد أطماع أوروبا (الكافرة) التى تريد القضاء على الدولة (المسلمة) وبذلك قضاء على العرب والشرق (١) فلا نعجب أن نرى إجماع الشعراء على الذود عن الدولة العثمانية ضد أى عدوان عليها ،وقد كان من جراء هذا الشعور أن تطورت أساليب الشعر ، وتقدمت عما كانت عليه فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ؛ فقد أحس الشاعر أنه جزء من هذا الكيان العام ، وأن مصالحه الفردية غدت مهددة ، ورأى أنه مسئول عن كل شىء فى هذه الدولة ، فقد هزته الحروب العامة ، كما هزته من قبل الحياة الدستورية ، ورأى شيئاً جديداً يسمى المساواة مع الأمم الأخرى ، فلم يعد يتمنى أن يقبل أذيال الوالى ، ويتوسل أن يقبل يديه (٢) كما تمنى التميمى ، كما أنه لم يسف فى شعره ويهدر كرامته ليكون أداة تسلية وإضحاك للوالى (٣) ، فقد ظهرت على شعره سمة من الاعتزاز بالنفس وبالكرامة الإنسانية ، ورأينا الشعر يرتفع فى موضوعه وأهدافه عن أهداف من سبقه ، ويبتعد

---

(١) بلغ من تعصب أحد كتاب فرنسا أن اقترح — حلا للمسألة الإسلامية التى دوختهم — القضاء على المسلمين ونبش قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس (الاتجاهات الوطنية ص ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام ص ٨٠١ لمحمد رشيد رضا القاهرة ١٩٣١) .

(٢) ديوان التميمى ص ١٠٢ و ٤٠ .

(٣) الترياق الفاروقى فى ص ٢٨٣ .

رويداً رويداً عن المبالغات ، وانسابت فى الشعر روح فى طياتها عاطفة الشعر وإحساس الشاعر ، ولم يكترث كثيراً برصف الألفاظ ، وانتقاء العبارات وبذل جهد كبير فى المحسنات اللفظية ، وأخذ الشاعر ينافح صادقاً عن أمته ووطنه .

وقد نسى الشعراء جميع مساوئ الدولة العثمانية ، وتناسوا آلام الماضى الذى هيمن على العراق حتى يؤازروا الدولة صفاً واحداً ملتفين حول راية واحدة هى راية المسلمين ، خوفاً من تفريق الشمل وبعثرة القوى ، يدفعهم الدافع الدينى العميق ، والدافع الذاتى الحساس ، وقد كانت كل الحروب التى يشنها الغرب ذات أثر واضح فى عواطف المسلمين والعرب . ومن هذه الحروب التى ظهر أثرها فى الشعر العراقى فى هذه الفترة ، حرب اليونان، سنة ١٨٩٧ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ ، وحرب البلقان سنة ١٩١٢، والحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤(٤) .

حرب طرابلس :

وهى أول حرب تصادفنا فى القرن العشرين (٥) أثرت فى اتجاهات الشعر العربى عامة ، وفى العراق بصورة خاصة ، فقد شنت إيطاليا الحرب على طرابلس الغرب تريد امتلاكها واستعمارها ، ومتى كانت الشعوب ترضى

(٤) يراجع بشأن هذه الفترة Turkey لمؤلفه Toynbee ص ٥٤ و٥٨ و ٩٢ — ١٠٠ طبع لندن ١٩٢٦ والاتجاهات الوطنية ص ٣٩ عن مذكراتى فى نصف قرن ٢ : ب ٢٨٨ ومابعدها ومذكرات العسكرى عن الثورة العربية ١٨ — ٢٦ .

(٥) هاجمت إيطاليا طرابلس عندما سحبت الدولة العثمانية جل قواتها لمحاربة إمام اليمن والإدريسى فى عسير فدخلت إيطاليا طرابلس وقد حاولت الدولة العثمانية إعادة ما استولى عليه الطليان لذلك أعدت حملة اشترك فيها عزيز المصرى القائد المعروف ، ومصطفى كمال باشا الذى أصبح زعيم تركيا الجديدة ، ولكن لعدم وجود وسائط نقل ، ولعدم تنظيم مسيرة هذه الحملة طال أمد الحرب ، وعند إعلان دول البلقان ، مثل الصرب وبلغاريا والجبل الأسود ، الحرب على الدولة العثمانية فى تشرين الأول ١٩١٢ اضطرت الأخيرة إلى طلب الهدنة من إيطاليا إذ أن الخطر غدا يهددها فى عقردارها وقد تم بعد الهدنة التنازل عن طرابلس لكن العرب لم يرضوا بالاستسلام فقد قاومت القوات الوطنية ثمانية عشر عاماً حتى نفدت جميع الذخائر والعتاد ولعل من الطريف أن نذكر أن من المتطوعين كان ضابط نمساوى وآخر بريطانى .

بالاستعمار بدلاً عن الحرية ، والذل بدلاً عن الاستقلال ؟ لذلك أخذ أبناء البلاد بقيادة السنوسيين يدافعون عن أوطانهم بكل ما يملكون من قوة مضحين بالغالى والرخيص للمحافظة على الاستقلال ، بعد أن باءت الدولة بالفشل فى المحافظة على بلدهم ، وقد كان يدفع الشاعر العراقى دوافع كثيرة لمؤازرة طرابلس ، منها حق الحياة والحرية ، وما له من صلات وثقى بينه وبين أبناء طرابلس من دين وعروبة وبغض الاستعمار ، فثارت كل هذه العوامل فى نفوس الشعراء ، ودفعتهم نحو الانتصار لهذا القطر العربى المناضل فى سبيل حريته وكرامته وحياته ، فثار على أوربا المستعمرة ، وتطوع الكثيرون من جميع الأقطار — وخاصة أبناء مصر —(٦) لكى يدافعوا عن طرابلس الغرب ، ولكى يقفوا أمام المحتلين المعتدين ، وللدفاع عن الدين الإسلامى ، وقد ألفت كثير من اللجان لجمع التبرعات (٧) وإثارة الناس بإقامة الحفلات ، ومن تلك الحفلات حفلة النادى العربى فى الآستانة (٨) التى ألقى فيها محمد حبيب العبيدى خطبة حث الناس فيها على مساعدة الإسلام فى طرابلس ، ثم أعقبها بقصيدة تطفح بالحماسة الدينية والوطنية ، رأى أن الشرق مسئول كله عن الذود عن حياض طرابلس ، لأن الغرب هو الذى يهاجم الشرق فى مهاجمته لطرابلس ، ولا يقل الشرق قدرة وكفاية عن الغرب ، غير أن أبناء الشرق كسالى خاملون ركنوا إلى الدعة والهدوء ، فلذلك اتخذ طريق شحذ هذه الهمم الخامدة ، والنفوس النائمة سبيلاً له فقال :

كيف ترضى ياشرق أن يكسب الغر ... ب فخاراً من دونك العلياء

كيف ترضى يا شرق أن يمشى الغر ... ب أماماً وأنت تمشى وراء

---

(٦) قال تحسين العسكرى وقد كان من ضباط الجيش العثمانى الذين أرسلتهم الدولة لمحاربة الطليان : إن جمعية الهلال الأحمر أرشدتهم على الطريق المؤدى إلى طرابلس ثم زود بأربعة آلاف ليرة إنكليزية ذهبية إعانة من الشعب المصرى لمجاهدى طرابلس الغرب . وقال إن الحرب ضمت كثيراً من أبناء الأقطار العربية من سوريين وعراقيين (مذكراتى عن الثورة العربية ص ١٤ ، ١٦)..

(٧) الاتجاهات الوطنية ص ٣٥ لاحظ مصدره .

(٨) الأدب العصرى ص ١٤٨ (مصر ٩٢٣) وقد جاوزت القصيدة الـ ٤٠٠ بيت ..

ويبرهن على ما للشرق من مكانة وقدرة بضرب الأمثلة من التاريخ القديم الذى نشر فيه الشرق نوره ، وكان مهداً للمدنية والعلم ، وأن ربوعه كانت منبع العرفان والرقى والمفاخر فيقول :

من حمانا نور العلوم بدا فيـــها وعمت أقطارها الأضواء

نحن أحيينا ماأمات زمان الـــجهل مما قد أسس القدماء

ثم يجول الشاعر جولة طويلة فى التاريخ الإسلامى والعربى مذكراً الشعوب الإسلامية والعربية بما كانت عليه من عزة وكرامة وسؤدد ،ويخرج بعدها من تلك الجولة إلى حرب الطليان ، واستعمارهم لقطر عربى مسلم، ويقف متسائلاً كيف يرضى هؤلاء الأحرار أن يكونوا أذلة ، وكيف يرضون للاستعمار الحكم والسيطرة وهم الذين ماعرفوا الاستعمار الذى هو مرادف للموت فيقول :

أنسام الهـــوان دون المنـــايا إنما الموت والهـــوان ســـواء

ليس دار الهوان للحـــــر داراً إنمـــا الحر داره الجـــــوزاء

يا بنى الضاد إن للضاد حقاً ناطحت دون هضمه الآبـــاء

ليت شعرى ما ينقم القوم منـــا أم على أبصارهم هناك غشـــاء

ليت شعرى ما ينقم العمى منـــا رب قوم أرض ونحن سماء(٩)

ولم يتخلف الكاظمى عن المشاركة فى تأييد أحرار طرابلس — فى وطنه الثانى مصر — فقد هزه الاعتداء على طرابلس ، فنشر قصيدة فى جريدة المؤيد يحث فيها الشعب على إنجاد طرابلس بالأموال والأرواح والمسارعة فى هذه النجدة إذ لم يعد الوقت كافياً للتأخير والتأجيل ، وقد صور الكاظمى حال إخوانه العرب وهم صرعى على الثرى يتخبطون فى دمائهم ، وقد وقفت النسوة خائفات فى العراء ، وليس لهن من معين على هذه البلوى غير الدموع الغزيرة والزفرات الحرار والوحدة والحزن والهموم ، وقصيدة

(٩) الأدب العصرى ص ١٤٨ — ١٥٢ .

الكاظمى من روائع الأدب العربى ففيها طفحت العاطفة الكريمة المبدعة ، وحدث من الشعور الإنسانى النبيل ، يرفعها إلى مصاف الأدب العالمى .

وفى القصيدة وصف لطيف لجبن الطليان الذين اعتدوا على الآمنين والعزل ، فإنهم حين خافوا أن يحاربوا فى حومة الوغى رجال الحرب هاجموا هؤلاء العزل للانتقام من الأقوياء الذين دحروهم ، وأردوهم إلى درك الهوان .

وفى هذه القصيدة يدافع الكاظمى عن الدين الإسلامى الذى يصفه الغربيون بأنه دين متأخر دين الوحشية والعبودية ، ويضرب لهم مثلاً ويتساءل فيقول :

أبعد هذا التناهى فى تعصبهم ... يعزى التعصب للإسلام والتهمُ

ويرد عليهم رداً مقنعاً بأنهم دعاة حرب لا دعاة سلام ، وإلا لما هاجموا قطراً آمناً واحتلوا أراضيه بالحديد والنار والدماء فيقول :

أين السلام الذى شادوا جوانبه ... زعماً خلوباً فلا شادوا ولا زعموا
قالوا « السلام » فنمنا واثقين به ... أين السلام وأركان السلام دم
أبعد ما شنت الطليان غارتها ... وقام (مخدوعنا) بالسلم يعتصم
قالوا الحياد فقلنا ليس ذا عجباً ... عن نصرة الحق كم حادوا وكم وجموا

ويصف لنا أخلاق الأوروبيين من نكث العهود ، وحنث اليمين والوعود ، واهتضام حقوق الشعوب الضعيفة فيقول :

إن عاهدوا نكثوا أو أقسموا حنثوا ... أو عاملوا عبثوا بالحق واهتضموا

ولم يهاجم « المحسن » الدين المسيحى كما هاجم الغربيون الإسلام ، ولم يعتد على قدسيته كما اعتدى الأوروبيون على الإسلام ، إنما قال : إن الدين المسيحى هو دين الحق الذى يدعو إلى السلام والمحبة ، وأنه يضم بين جوانحه الفضيلة والمعروف والبر والرحم ، وإنما الطليان المستعمرون هم الذين ضربوا بتعاليم الدين المسيحى جانباً ، ولم يمتثلوا تعاليمه السمحة

فاعتدوا على الشعوب الضعيفة الآمنة ، واقترفوا الآثام باسمه وهو برىء مما يدعون .

وتبدو إنسانية الشاعر العربى بالدعاء لهم أن يأخذ الله بيدهم نحو الخير والسداد لأنهم قوم جاهلون يفعلون ذلك جهلاً وحمقاً فقال :

رحماك يا دين عيسى لاتؤاخذهم	إذا جنوا باسمك الفياح أوظلموا
أهلوك قد جهلوا الدين الذى اتبعوا	فحملوك خطاياهم وما علموا
حاشاك أنت برىء من خلائقهم	ورب ذى كرم أتباعه لؤموا
وأنت يا أكمل الأديان معذرة	مما عزاه لك الباغون واتهموا
أنت الفضيلة والمعروف أجمعه	أنت التقى والهدى والبر والرحم(١٠)

وأبيات القصيدة جاوزت المائة وكلها على هذا النسق ، ولم يكتف الكاظمى بهذه القصيدة ؛ إنما عرج على ذكر طرابلس عندما نظم قصيدة أخرى فى حروب البلقان .

وإذا تصفحنا ديوان الرصافى نجده قد نظم ثلاث(١١) قصائد حث فيها المسلمين على الحرب والدفاع عن طرابلس ، وقد نظر الرصافى إلى هذه الحرب نظرة أخرى لم يرها حرباً بين إيطاليا والدولة العثمانية للاستيلاء على طرابلس ، إنما هى حرب الاستعمار الغربى الذى يريد أن يسيطر على الشرق ؛ لكى يستغله ويعبث بمقدراته ، والاستعمار ضار ، ويبيد كل ما يقف أمام مصالحه فيجب أن يحارب الاستعمار نفسه الممثل فى إيطاليا الطامعة ، لذلك كان اندفاع الرصافى رائعاً فى الذود عن طرابلس ومثلاً حياً للحماس الدينى ، ومع هذه الروح فقد ابتعد عن مدح رجال الدولة العثمانية فى شعره ، وكأنى به يلقى التبعة على هؤلاء الرجال الذين تخاذلوا عن نصرة طرابلس ، وتركوها ضحية الاستعمار لذلك فقد صب كل شعره على الإشادة بالسنوسى ، وشجعه بكل قواه لأنه كان وحده المصطلى بنيران الحرب وبلاياها ، ويؤيد

---

(١٠) ديوان الكاظمى ج ١ دمشق ٩٩ — ١٠٩ ويلاحظ ص ١١٠ بصدد قصيدة البلقان .

(١١) ديوان الرصافى ص ٤٧٠ و ٤٧٤ و ٤٨٤ .

رأى الرصافى فى الاستعمار وضراوته ورغبته فى السيطرة على الشرق ماحل فى مصر وتونس ، وكيف استباح الغربيون حمى هذه الأقطار المسلمة ، لذلك فهو يخاطب أهل بنغازى والسنوسى مشيداً بشجاعتهم آملاً أن يسير المسلمون جميعاً إلى نصرة طرابلس. ولكنه يعرف سلفاً أن آماله بعيدة عن أن يحققها مسلمون ضعفاء متناحرون متأخرون ، فيشكو إلى الله ويقول مخاطباً السنوسى :

ومن مبلغ عنا السنوسىّ إنــه   يمدّ لهذا الصدع منه يد الرأب
فإنا لنرجو أن يقود إلى الوغى   طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمى بلاد المسلمين من العـدا   وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
فإن حشا الإسلام أصبح دامـياً   إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسىّ مدركاً   جنود بنى عثمان فى الجبل الغربى

ومع ذلك فإن قلب الرصافى مملوء بالأمل والفوز ، وإنه يأمل أن يؤازر المسلمون طرابلس فى حربها، وأن يفتكوا بالجموع المعتدية، ويبيدوا جيوش الاستعمار ، وليس من السهل على الغرب استعمار المسلمين ، وسوف يرد الاستعمار خاسراً حسيراً ، لأن المستعمر كاذب خداع يغتصب دون حق ، ويسيطر بالباطل على أرض المسلمين ، فيلتفت الرصافى — ساخراً — إلى هؤلاء فيقول لهم :

أيا زعماء الغرب هل من دلالــة   لديكم على غير الخديعة والكذب
تقولون إن العصر عصر تمـدن   أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب
ألم تبصروا القتلى تمج دماءهـــا   على الأرض والجرحى يئنون فى الحرب
أفى الحق أم فى العلم ألا يسوءكم   ويخجلكم شن الإغارة للغصب(١٢)

ويؤكد سخريته فى قصيدة أخرى من التمدن الذى يدعيه الغرب ، وتكذبه وقائعهم وأعمالهم العدوانية ، وما ينشرونه على الشعوب الآمنة من الويلات والمصائب ، معدداً مصائب الشرق التى جاءته من الفرنسيين فى تونس

(١٢) ديوان الرصافى ٤٧٠ — ٤٧٣ .

ومراكش ، وما جنته يد الطليان فى طرابلس ، وعبث الإنكليز بحقوق مصر واحتلالها فيقول :

يقولون إن العصر عصر تمـــدن فما باله أمسى عن الحق مزوّرا
إلى الله أشكو فى الورى جاهليـــة يعدون فيها من تمدنهم عصرا
أتتنا بثوب العلم تمشى تبختراً إلى الخير ، لكن قد تأبطت الشرا

ودليل الرصافى واضح فى قوله :

لقد ملك الإفرنج أرض مراكش وقد ملكوا من قبلها تونس الخضرا
ففاجأنا الطليان من بعد ملكهم لكى يسلبونا من طرابلس الأمرا
وقالوا ألم تأت الفرنجة تونساً وهذى جيوش الإنكليز أتت مصرا(١٣)

وقد كانت حرب طرابلس ــ شأن كل الحروب فى هذا العصر ــ سبباً عاطفياً هز المسلمين جميعاً ، ولم يتخلف عن مساعدتها شاعر ، فقد اشترك الجميع مخلصين فى الدفاع عن حقوق طرابلس الغرب العربية المسلمة ، وكانت هذه القصائد صدى عميق الأثر عكس وعى الرأى العام فى الشرق العربى المسلم ؛ إذ كانت هذه العواطف صادقة بعيدة عن التزلف والمداجاة والنفاق ، فهم ذادوا بشعرهم عن طرابلس وسواها ، آملين بالثواب الآجل ، لا راغبين فى الأجر العاجل من أمير أو سلطان ، فهم زاهدون فى عطف الوالى ورضاء الحاكم ، ويسمو الشاعر بعواطفه الكريمة يدفعه دافعان : الدافع الدينى العميق الذى يربطه بهؤلاء العرب الذين تطحنهم رحى الاستعمار بدون رحمة ، والدافع الإنسانى الذى يرى أخاه الإنسان يفقد حريته واستقلاله ، غير أن الدافع الدينى كان أمتن وأقوى من غيره من روابط الشعر بطرابلس . لذلك فقد أكثر الشعراء من النظم فى هذا المضمار ، غير أن بعض الشعراء لم يكونوا واضحى القصد صريحين صراحة الرصافى ، فلم يكونوا بينى القصد والغاية فى شعرهم كالشبيبى (محمد رضا) فقد تحدث بصورة عامة عن الحروب ، وعن الغربيين دون أن يتطرق إلى

---

(١٣) ديوان الرصافى ٤٧٤ .

الحادث نفسه ، فالقصيدة بحد ذاتها لاتنطبق على حادثة طرابلس ، إنما هى تنطبق على كل الحروب التى يشنها الغربيون ، ولولا ذكر (برقة) ووجود المقدمة الإيضاحية للقصيدة لما عرفنا أنها نظمت فى حرب طرابلس ؛ فهى قصيدة شاعر عربى أثارته حروب الأجنبى على بلده ، فسقط منهم صرعى فى سبيل الوطن ، فثار عندما رأى إخوانه العرب صرعى ، وهزته الروح العربية والنخوة القومية لتأييدهم ، والفخر بجهادهم وحروبهم فقال :

عرب على قسمات وجه وليدهم   متبيّن عنوان طيب المولـــد

لايطرقـون الماء شيب نمـيره   وغدا مخاضـة رائح أومغتدى

وإذا الذئاب وردن ماء حرمت   أسد الشرى غشيان ذاك المورد

وإذا اعتدى الباغى على أوطانهم   بطشوا به وأروه عقبى المعتدى

أوما أتاك ببــرقة نبأ التى   رمت البلاد بمبرق وبمرعد(١٤)

وتطفح القصيدة بالتهديد والوعيد وتفيض بالألم . أما أسلوبه الجزل فإنه يعيدك إلى العصور العربية ، عصور العناية بالسبك الجيد الرصين وعلى الرغم من أن أسلوب القصيدة جزل قوى ، فقد بدأت صرخات الألم تئن فى أبياته ، وقد تطرق الشبيبى إلى الموضوع الذى يتمشدق به الغربيون بأنهم أصحاب حضارة ومدنية ، وأنهم أصحاب التجديد والإبداع فيرد عليهم متهكماً بقوله :

إنا دعونا العصر عصر تقهقـــر   فليُدع عصر تقـدم وتجـــدد

ماذا يرجى من وراء حضـارة   عمى البصير بها وضلّ المهتدى

وجدت فأعدمت النفوس فضائلاً   خلقت لهـا فكأنها لم توجد(١٥)

وهذه الروح العربية أثارت شاعراً آخر هو على الشرقى ، وقصيدته تصلح أن تكون لأى موضوع عام فى الحرب التى تثار بين العرب وبين أى فريق آخر من أعدائهم ، فلوحذفنا بيتين اثنين منها ضاع علينا المطلوب من القصيدة ،

---

(١٤) الديوان ص ١٩ .

(١٥) الديوان ص ٢٠ .

هذا إلى أنه ليس فى القصيدة دعوة صريحة للقتال لمساعدة أهل طرابلس ،ولم يخص الشاعر الحادث الذى حاق بطرابلس إلا بخمسة أبيات ختم بها قصيدته، شبه فيها روما بالكلبة ، ثم جعل الكلبة حيواناً ناطحاً له قرون فقال :

ما لروما فلا استوى عرش روما   فتلت ذيلها وعجت نباحا
جبنت عن نضال كل قوىّ   فأغارت على الزوايا اكتساحا
نطحت برقةً وبرقة واحا   ت من النخل ماعرفن التطاحا
أبنى العرب لابراح عن الحر   ب وإلا عن الفخار براحا(١٦)

وكان الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء أوضح أسلوباً وأسطع قصداً من الشبيبي والشرقى فقد تجلت فى قصيدته روح العالم القائد الذى يشعر بالمسئولية الملقاة على كاهله ، وتجلت روح إسلامية أصيلة عميقة تطالب بالكفاح والنضال والمساعدة السريعة للمسلمين ، وصور الحادث تصويراً يدفع كل مسلم إلى المشاركة العاجلة ، لما فيها من تأنيب واستفزاز ونداء لإغاثة الإسلام الذى صم المسلمون آذانهم عن سماعه فقال :

أيها المسلمون هبوا فليس الـ   موت إلا حياتكم بهوان
قد دهاكم ويل فماذا التمادى   وأتاكم سيل فماذا التوانى
جاءكم جارف من الغرب تيا   ر يهد البنا وأس البانى
يستغيث الإسلام فيكم فيلقى   عنه منكم تصامم الآذان
صارخاً فيكم فهل من سميع   صرخات الإسلام والقرآن

ولايكتفى كاشف الغطاء بهذا بل يحرج المسلمين إحراجاً ليستثير همتهم وصمتهم ونخوتهم فى سبيل مساعدة إخوانهم حينما يمعن بقوله :

إن بيض الوجوه سود إذا لم   تغد حمراً من النجيع القانى
إن لبس الثياب خزى إذا لم   تجعلوها لكم من الأكفان
إنكم والنساء ــ مالم تذودوا   عن حماها عدوكم ــ سيان

(١٦) ديوان الشرقى ١٨٤ .

ولا يختلف الشعراء فى أن هذه الحرب الغربية إنما هى لإبادة المسلمين فى الشرق ، ولتهديم الدين وتقويض دعائمه فى كل مكان ؛ لأنهم يرون الجامعة الإسلامية صخرة قوية تقف أمام مطامعهم وغاياتهم ، فما على الغرب إلا أن يحطم هذه العقبة ليتمكن من استعمار الشرق . وقد بدا — فى حرب طرابلس والحروب الأخرى التى شنها — هذا المطمع الاستعمارى واضحاً :

أظهر الغرب ما أجن من الغـدر وأبدى كوامن الأضغـان
وأحاطت بالمسلمين علـوج الـبغى من كل جانب ومكـان
يتشكى (المراكشى) اعتصابـاً وكشكـواه يشتكى (العثمانى)
وإذا ولولت (طرابلس) فى الغرب أتاها العويل من (إيران)

وقد بذل قصارى الجهد فى التأثير فى نفوس المسلمين، وأراد أن يحفزهم للقتال فتفنن فى صوره ، ثم التجأ إلى الصور الإنسانية النبيلة ، ليهز هذه المشاعر صور الأيامى المشردات ، والأطفال اليتامى الباكين حسرة على آبائهم فقال :

كم نسـاء أضحت أيامى تعـانى من يتامى فقيـدها ما تعـانى
تعقد الراحتين بالقلب مهمـا نثرت بالدمـوع عقـد جمان
كم نكول تُشجى الحمائم بالنـوح فتبدى غرائب الألحـان
ولكم أم واحـد ذات رزء ما لها عن عويلها من ثـان

ويسخر سخرية لاذعة من مدعى السلام الذين يسلبون دماء الضعاف على الأرض باسم المحافظة على السلام ، وباسم المدنية والحضارة فيقول :

أفهـذا وضع السلام على الأرض وهـذا تمدن الإنسـان

ولا بد من الإشارة هنا إلى ما احتوت عليه القصيدة من سخط واضح المعالم على السلطان ، وعلى حاشية السلطان ؛ فقد قال صراحة : إن الملوك يجب أن يحموا البلاد لا أن يحموا عروشهم وتيجانهم بقوله :

إن عز الملوك فى حفظها الأمـــلاك لا فى العروش والتيجان

وصور هؤلاء الحاشية الذين غرتهم نعومة العيش وركنوا إلى الدعة ناسين الشعب الذى يعيش فى الفقر والفاقة ؛ لأنهم غلف القلوب إلا عن ترفعهم وملذاتهم ، عمى العيون إلا عن مصالحهم الشخصية ، وإلا فأين الضمير الحى الذى يدفعهم إلى أن يدرءوا الضيم عن أوطانهم :

بصرع البغى أهلـــه مستثيراً وعلى نفســه سيجنى الجــانى

غير أن « الإسلام » ضلوا عن الحز م وناموا على غـــرور الأمانى

أنذرتهم وقائــع الدهــر فيهم ناطقات لهم بكل لســـــان

فتعامــوا عن العظــات وهاموا بزخاريف نعمـــة ولســان

استلانــوا نعــومة الغرب حتى راعهم منــه نهشــة الأفعوان

تركوا دينهم لدنيــا ســـواهم رب ربح يكــون من خسران

وإذا القلب كان أعمى عن الـر شد فماذا تفيــده العينـــان

وإذا ما اليـــدان لا تدفع الضيـ ـم فأولى بالقطع تلك اليدان

ليت من لا يكون ذا حر دين فى البرايا يكون ذا وجـــدان (١٧)

ولم تكن هذه الروح الدينية مختصة ببلدة عراقية دون بلدة ؛ ففى بغداد وجدنا الرصافى والزهاوى، ومن النجف كاشف الغطاء، وها هو ذا شاعر آخر من الحلة هو السيد عبدالمطلب الحلى، وقد كان الحلى من الداعين إلى العروبة والقومية العربية ، والداعين إلى الانفصال عن الدولة(١٨) ، ولكن الروح الإسلامية العربية استأثرت بجانب كبير من قصيدة له نظمها فى مناسبة الاعتداء على طرابلس واحتلالها ، والقصيدة سفر من التاريخ مما لم نجده فى شعر غيره من الشعراء المعاصرين ؛ فقد تتبع نزول قوات إيطاليا فى الساحل ،

---

(١٧) الأدب العصرى ج ٢ ص ٨٠ .

(١٨) شعراء الحلة ج ٣ ص ١٩٦ والقصيدة ص ٢٣٠ ولم يتخلف البناء عن هذا المضمار فنظم فى (ديوان البناء بغداد ١٣٣١ هـ) فى أثر الحروب لاحظ الصفحات ٩٨ – ١١٥ و ١٢١ و ١٢٥ و ١٢٩ و ١٤١ .

وذكر بعض وقائع هذه القوات مع السكان المناضلين ، ووقف موقفاً نبيلاً ، إذ رأى الصلح ذلة واستكانة ، وامتهاناً لكرامة الدولة العثمانية أولاً ، وللشعب العربي ثانياً ، لذلك خاطب « فكتور عمانوئيل » مباشرة وأخبره أن الشعب لن يرضى بهذا الصلح ، ولن يكون صلح ما دامت أقدامه تطأ الديار العربية ، وقال صراحة بأن الصلح عار لحق بالإسلام والمسلمين ، ويجب أن يمحى ، ورجا السلطان العثماني الذي عقد الصلح برفض هذا الصلح الذي جلب العار على الأوطان ، واستئناف القتال لتطهير أرض العرب من الاستعمار ، والقصيدة طويلة حوت ضروباً متفرعة من الأغراض العامة ، لكنها امتازت بشيء بارز سيطر عليها ، هو الروح العربية والافتخار بالعرب ، وبالقومية العربية فقال :

أجهلتم بأننا — مذ خلقنا — عربٌ ليس ينزل الضيم فينا
ولنا نبعة من العز يأبى عودها أن يلين للغامزينا
قد قفونا آباءنا بالمعالي وإليها أبناؤنا تقتفينا
نحن قوم إذا الوغى ضرستنا لم نبدل بشدة البأس لينا

ويزهو والفخر يملأ أعطافه بقوميته وعروبته ؛ فيمدح العرب ، ويعدد شمائلهم الكريمة ، وفضائلهم السامية ، وأخلاقهم النبيلة ، ومحاربتهم للأعداء الذين يريدون أن يذلوهم ، ويستعبدوهم ، والعرب لا يرضون الذل ، وهم أبطال كرماء مغاوير ، فيهم من الصفات الإنسانية الكريمة ما تجعل العربي يفخر بها وبهم . وبعد ذلك يؤلمه ما أنزل الطليان بهم فقد قتلوا الأطفال ، وذبحوا النسوة دون رحمة ، أو أن تردهم الإنسانية عندما أبادوا حتى الجنين في بطن أمه ، ويعدهم باليوم الذي سيأخذون حقهم كاملاً من هؤلاء المستعمرين بقوله :

كم لنا بالواحات عندهم ثار عليها الضبا دماً قد بكينا
تركوها مجازراً قد بكتها أعين الكائنات دمعاً هتونا
كم نساء صبراً بها قتلوها وأبادوا طفلاً لها وجنينا

ويتهدد الملك « فكتور عمانوئيل » على ما اقترفت يداه ، وجنت جنوده

فى الأرض العربية بأن هذا الدين يجب أن يؤخذ بالجلاء عن أرض إفريقيا لأن إفريقيا لأهلها ، وليست للمستعمر فقال :

قل لعمانوئيــــل لا صلح حتّى ترجعوا عن بلادنا خاسئينــا
قل لعمانوئيــــل لا صلح حتّى تذعنــوا تحت أمرنا طائعينــا
قل لعمانوئيــــل لا صلح حتّى تقتضيكم بالمرهفات الديونــا
قل لعمانوئيــــل لا صلح حتّى من دماكم ظما القنا يرتوينا
قل لعمانوئيــــل لا صلح حتّى تصبحوا عن إفريقيــا مختلينا

هذا التأكيد الخطابى فى الشطر الأول يدل دلالة واضحة على عزم الشاعر — عن رغبة صادقة — على القتال لغسل العار الذى لحق بالمسلمين ، ولم يملك نفسه حتّى ينادى بأعلى صوته :

يا رسولى للمسلمين تحمــــل صرخة تملأ الوجــود رنينـــا
وتعمــد بطحاء مكــة واهتف ببنى فاطم ركينــاً ركينـــا

ويحز فى قلبه الرقيق ذى المشاعر المرهفة ، هجود العرب والمسلمين فيصرخ بهم :

فالحراك الحراك يا فئة اللــــه إلى الحرب لا السكون السكونا

ولما كان الصلح عاراً وأن السلطان العثمانى قد قبله مضطراً مكرهاً ؛ فجاء وفى أثره الهوان لم يصدق هذا القول ، فأخذ يتساءل عن حقيقة هذا الأمر :

أبلغا عنى الخليفــة قـــــولاً غثه فى المقـــال كان سمينـــا
أبجدّ بالصلح ترضى اقتســـاراً هل كذا شأن إمــرة المسلمينا
كيف ترضى بالصلح والصلح عار ذاك يأباه سيــد المرسلينـــا

وكانت للشاعر جرأة لم نجدها إلا لدى قليل من شعراء هذا العصر ، ودافع هذه الجرأة الإخلاص والحب والتفانى فى سبيل الأمة والشعب ، وإلا لما كان الشاعر بقادر أن يقول (هل كذا شأن إمرة المسلمينا) ، والشاعر موزع

العاطفة الصادقة تارة بين العرب ، وطوراً بين المسلمين ؛ فقد رأى الذين تربطهم روابط الدين والقربى يستعمرون . ولابد من الإشارة هنا بأن « الحلى » من الشعراء الذين جددوا كثيراً فى أسلوب الشعر وأخرجوه من قيود القرن التاسع عشر ، متخلصاً من جميع الاستعارات الجامدة ، والصيغ المتكلسة التى كان يستعملها شعراء القرن التاسع عشر ؛ فقد اعتنى بالمعانى أكثر من عنايته بالألفاظ فى قصيدته هذه(١٩) .

حرب البلقان :

والحرب الثانية التى هزت مشاعر الشعراء الإسلامية كانت حرب البلقان ؛ ففى عام ١٩١٢ عم الاضطراب البلقان ، وطالبت بلغاريا والصرب والجبل الأسود بالاستقلال الإدارى عن الدولة العثمانية وكان عزيزاً على الدولة ، وعلى أبناء الإمبراطورية أن تنسلخ منها بعض أجزائها ، ومعنى هذا ضعف فى كيان الإمبراطورية الإسلامية . وزاد الطين بلة أن تقف اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل ، وبرغم التسويات السلمية التى أرادتها الدولة العثمانية ، فقد باءت بالفشل ؛ فالشعوب بدأت تحس بأن حريتها واستقلالها أثمن من أية تسوية ، فأعلنت الحرب ، وعقد مؤتمر لندن لتسوية هذه المشكلة خوفاً من جر البلاد إلى حرب عالمية فيضطر المؤتمر العثمانيين إلى التخلى عن أدرنة والأرخبيل وجزره ، لكن ما كادت الوزارة توافق على هذا حتى ثار حزب الاتحاد والترقى عليها ، وأسقط الوزارة واستأنف القتال (٢٠) ، وقد كسبت الحكومة العثمانية بادئ الأمر نصراً على هذه الدول ، فعم الفرح والسرور جميع سكان البلاد الإسلامية لأنهم شاعرون بأن دول الغرب وراء هذه المطالب تريد أن يوهن من قوى دولتهم ، بيد أن هذا النصر بدأ يتحول إلى خسارة فتتقهقر الجيوش العثمانية ، وتسقط أدرنة ثم أخذت جيوش البلقان تتقدم نحو الآستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وفى الطريق ترتكب جرائم انتقامية من المسلمين ، مما يزيد فى الأسى والحسرة عليهم(٢١) .

---

(١٩) يمكن ملاحظة قصيدة باقر الشبيبى فى شعراء الغرى ج١ ص٤٣٠ وقصيدة عبد العزيز الجواهرى فى الأدب العصرى ج ٢ ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٢٠) مذكراتى فى نصف قرن ٢ – ب ٢٨٨ وما بعدها .

(٢١) الاتجاهات الوطنية ص ٣٩ و ٤٠ . يلاحظ المصادر .

وقد واكب الرصافى هذا الحادث منذ بدايته عندما أراد السلطان رشاد أن يهدئ الخواطر بزيارته إلى مقدونيا وبلاد الألبان ، راجياً أن تستقر الأمور العامة ، وحسب الرصافى أن زيارة السلطان رشاد تكفى لكى ينسى الشعب مطالبه ، لذلك خاطب حكومات البلقان قائلاً :

قل للحكومات فى البلقان هل علقت ... آمالكم من مواعيد بإنجاز
إن الذى تضمرون اليوم من طمع ... أمسى لأشعب يعزو مثله العازى
لم تعرفوا مذ لمستم عرق نخوتنا ... إذ قد لمستم بكف ذات قفاز
إنا لنعرف لغزاً فى سياستكم ... وما السياسة إلا بيت ألغاز

ووصف زيارة السلطان بأنها زيارة عفو وإحسان ؛ لأن العفو أقرب للتقوى وإلى جلب القلوب المتنافرة . وقد كان الرصافى حريصاً كل الحرص على الوحدة العثمانية وقوتها مهما تباينت هذه الأقوام والأمم التى يحكمها ، فقال :

يأيها الملك السامى بحكمته ... والمبدل الناس من ذل بإعزاز
قد عىّ فى وصف ما أوتيت من حكم ... كلا كلامى إطناب وإيجاز
غزوت غزو سلام دون غايته ... غزو الحروب فأنت الفاتح الغازى
ملكت بالعفو والإحسان أفئدة ... كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
وأنت لو شئت إرهاباً لجئتهم ... بصارم لنواصى القوم جزاز
لكنما جئتهم بالعفو تأخذهم ... والعفو أفضل ما يجزى به الجازى
فاغمد سيوفك إن العفو منصلت ... واهنأ بشعب محب غير منحاز
بالترك بالروم بالألبان قاطبة ... بالأرمنيين بالبلغار باللاز
أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم ... إلى مقام على الأقوام ممتاز(٢٢)

وعندما يستعد الجانبان للحرب ينظم الرصافى قصيدة يهدد فيها الصرب والبلغار ، ويهجوهم هجاء مراً لأنه لا يراهم أهلاً للقتال ، وأن جيش

---

(٢٢) الديوان ص ٤٠٣ و ٤٠٤ .

المسلمين سوف يبدد شملهم ويبعثر قواهم . وبعد ذلك يمتدح الجيش العثمانى ، وأنه جيش خلق للقتال والنضال ، وجبل على البطولة والفداء ، ويهجو الصرب والبلغار فيقول :

يا علــــوج الصرب والبلـــــ ـــغــــار أولاد الــــزوانى
لــم يكن إيعـــــادكم بالــ ـــحــــرب غير الهــذيان
إنمـــا الحـــرب لدينــــا من تمـــام الحيــــوان
ودعــــوا الحـــرب فليس الـ ـحـــرب من شأن الجبـــان
وتزيـــــوا يا مخـــانيـــ ـث بأزيــــاء الغــــوانى(٢٣)

ثم يتوعدهم بالذلة والانكسار والخسران فى الحرب ، وليست هذه القصيدة من عيون الشعر العربى ؛ فلم يأت الرصافى بشىء جديد فى هجائه يخلد هذا الهجاء سوى الكلمات القاسية اللاذعة التى لاتليق به . ولكن الرصافى يسف دائماً فى هجائه ، وينزل إلى مستوى لايتناسب وما عرف عن شعره من رصانة وقوة سبك وأسلوب ضخم ، ويبدو هذا واضحاً عندما تتردد انكسارات الجيش التركى ، ويصاب الرصافى بهزة عنيفة من خيبة الأمل فينظم قصيدتين يندب فيهما ما ضاع من الدولة العثمانية من أجزاء فيعود إلى أسلوبه المحكم الرصين ، ويجمع شتات ذهنه ، وكأنى بالحزن يسبغ عليه وقاراً وهيبة ؛ ففى القصيدة التى نظمها بعد هزيمة (لولابوغاز) وقد كان القائد ناظم باشا(٢٤) يصرف أمور الجيش إثر الهم العميق والحزن الدفين ؛ فقد خسر الجيش . وخسارة الجيش كانت من خيانة القائد نفسه ، لذلك كان الألم يصرخ فى نفسه عندما أقسم :

تالله لم ينكسر فى الحرب عسكرنا من أجل قلته أو من جبانتـــه
وكيف وهو تفوق الطيس كثرته وتستعبر الرواسى من رزانته(٢٥)

---

(٢٣) الديوان ٤٨٧ .
(٢٤) قتله الاتحاديون فى الآستانة .
(٢٥) الطيس الشىء الكثير من رمل وتراب ، أراد الشاعر التكثير .

لكن قائده ما كان يأبه له ولا يبالى بأمر من معانته[٢٦]
حتى لقد نفدت فى الحرب عيبته بحيث لم يبق سهم من كنانته

كان الرصافى شديد التفاؤل والأمل فى انتصار الجيش ورد الأعداء إلى دورهم ، وأنه سوف يكسب فخراً ونصراً وطنياً ، ولكنه انكسر فجاءنا بتعليل جميل فقال :

فظل يرسف فى النيران مرتبكاً مستفرغاً كل جهد من متانته
حتى غدا جله للنار مأكلة وما تزحزح شبراً عن مكانته
ولا استكان لهول الحرب من فرق بل كان يفرق من هول استكانته
فخاص غمر المنايا صابراً وأبى على الفرار انغماراً فى مهانته
ليس الفرار لجند المسلمين ألا إن الفرار لكفر فى ديانته
وكيف يغلب جيش كان قائده يحفه بجيوش من خيانته
فالجيش تلتهم النيران أنفسه وقائد الجيش لاه فى مجانته
أقام فى القصف والأجناد طاوية معاقراً بهناء بنت حانته[٢٧]

وتبدو آثار اليأس والألم الجريح فى القصيدة الثانية ؛ فقد استولى البلغار على أدرنة فأبدى التوجع والاستغاثة ، إذ لم يجد غير السلوى والعزاء فى بعث الأمل فى نفسه ، ولكن هذا الأمل كان مظهراً لحسرة تفيض باللوعة وإلا لما ودعها وداعاً يائساً ، وودع الجامع الذى لن يرتفع لصوت المؤذن فيه نداء ولو كان له بعض الأمل فى عودة أدرنة لما رثاها للنبى وأصحاب النبى فقال :

أدرنة مهلاً فإن الظبى سترعى لك العهد والموثقا
وداعاً لمغناك زاهى الربا وداعاً ولكن إلى الملتقى

***

---

(٢٦) يأبه يأن إذا تحمل مئونتهم وقوتهم ، والعانة : المعونة المساعدة .
(٢٧) الديوان ٤٨٠ .

عـزاء لمسجـدك الجامـع أفارق محـرابه المنبرا
وهـل فى مصـلاه من راكع يجيب المؤذن إن كبّـرا
فيالسقوطك من فاجـع به فجـع الدهر أمّ القـرى
وقبر النبـوة فى يثربـا ومثوى ضجيعيه مثـوى التقى
ومن فى البقيع ومن فى قبـا ومن شهدوا الفتح والخندقا

ويحيل الألم الشاعر إلى حكيم يردد الحكمة ، فيبصر حال المسلمين المتأخرة عن ركب الحضارة ، والعدو يوالى الضربات وهم لا يحركون ساكناً . إنه شاعر يريد لقومه ، ويريد لأبناء دينه ويريد للشرق كله أن يثورعلى الاستعباد وعلى الهوان ، ولكنه لا يجد من يلبى هذا النداء ، ومن يبلغه الأمانى ؛ فالقوم متخاذلون يفعل الغرب بهم ما يريد ؛ فهو يصب عليهم الكروب ، ويجر عليهم الآلام والحسرات . كل ذلك لأنهم متفرقون يعبث بهم الجهل فيهيب بهم قائلاً :

لقـد آن يا قوم ترك الونى وترك الشقاق وترك الدّد(٢٨)
إلى كم نكابد هـذا العنـا ونخبط فى جهلنـا الأسود
وبالعلم من قبـل نلنـا المنى وفزنا من العيش بالأرغـد
ولكنما العلم قـد غـرّبا فلا عيش إلا إذا شرقـا
فهبـوا إليـه هبوب الصبـا عسى أن يسحّ ويغـدودقا(٢٩)

ومع ما حاق بالدولة من تأخر واضمحلال ، فإن الشعراء كانوا يأملون أن ترفع الدولة العثمانية من مستوى الشعب ، وتنظر إليه بما يستحق من عناية ورعاية خاصة ، والأوربيون يهددونهم فى أملاكهم ، بل يهددونهم فى العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ما يصيب الدولة جزءاً مما يصيب الشرق أجمعه ، ولذلك كان الشعراء يثيرون النخوة الإسلامية والشرقية ، ويحاولون استنهاض الهمم الراكدة فى نفوس الضعاف ؛ لذلك وجدنا الروح الشرقية

---

(٢٨) الدد : اللعب العبث .
(٢٩) الديوان ص ٤٧٩ .

تسير مع الروح الإسلامية ، أو الروح القومية العربية فى كثير من قريض شعراء هذه الفترة .

وقد كانت الحروب المتتالية التى تشن على الدولة سبباً قوياً وباعثاً من بواعث استفزازهم إلى طلب النجدة لإنقاذ الدولة من التأخر والانحطاط الذى يهدد كيانها ؛ فقال الكاظمى معاتباً أولى الأمر فى الدولة العثمانية خلال حروب البلقان :

حماة العلا ! ضاق الزمان بحلمكم ألا غضبةٌ تأتى بعــذر الحوالم
سكتم فغرّ الطامعين سكــوتكم ألا كلمةٌ من ذى هزاهز كالم
وداويتمُ بالحلم داء غــرورهم ورب جروح أفسدت بالمراهم
تحوم على طيب الورود قلوبكم وعند الظبى رىّ القلوب الحوائم(٣٠)

أراد الشاعر أن يثير الحمية فى نفوس العرب ، والنخوة الإسلامية فى قلوب المسلمين بذكر ما حاق بالنساء من انتهاك لحرماتهن ، ووصفهن يستصرخن — ولا من مغيث لهن — من سطو المعتدين على حرماتهن فيقول :

ومستصرخات بالحمى تستفــزّكم لصون الحمى من عاديات المظالم
مخافة أن يسطــو على حــرماتها وهتك الهوادى دون هتك المحارم
إذا ما تشكت قلت فى الخدر نائح يشاركه فى الدّوح نوح الحمائم

أراد الكاظمى أن يثير النخوة الإسلامية فى هذه النفوس النائمة ؛ نفوس أبناء دينه وقومه ، وهددهم بما سوف يكون مصيرهم من استعباد ، وما سيكون عليه مصير النسوة وهن بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم . والكاظمى طويل النفس جال جولة تتناسب وما عرف عنه من الإكثار ذهب فيه إلى حال العالم العربى كله . وقد كان الشاعر مخلصاً كل الإخلاص فى روحه الإسلامية ، والخوف الشديد من الفريقين وما يحملون معهم ، وقد كان شديد الرغبة فى أن يرى الشرق كله زاهراً زاهى المعالم لاسيما وقد رأى

(٣٠) الديوان جـ ١ ص ١١١ .

الحكومات التى انفصلت عن جسم الدولة العثمانية قد ازدهرت ، وكونت حكومات لا تقل عمراناً ونهضة وتقدماً عن الأمم الأوروبية التى تقدمتها فى الاستقلال ؛ فكيف لا تتقدم الدولة التى انفصلت عنها هذه الدول !! وصور لنا شعر الكاظمى الرائع فى أسلوبه المخلص فى النداء هذا التأخر الذى هيمن على الشرق . فما على الشرق إلا أن يهب من هذا الرقاد والسكون :

حماة العلا ! طال السكوت فعاذر إذا انطلقت أسيافكم فى الجماجم
خصومكم ضلوا وطاشت سهامهم وما وسموا إلا بشر المياسم

إلى أن يقول :

أرى دول البلقان طالت أنوفها على دولة آثارها فى المخاطم
بإيمانها جاءت لثل عروشها ودك مبانى عزها والمعالم

وكل قصيدة من قصائد الكاظمى تصلح لأن تكون سجلاً حافلاً بالقديم والحديث من مصر ، فهو يخاطب آل عثمان ، وكيف أصبحت رعاياهم ملوك بغى قلبوا لهم ظهر المجن ، ويمتدح أعمال آل عثمان ، وكيف شادوا المجد بالقتال ، وهدموا تيجان المتجبرين الغاشمين ، كل ذلك لأن أعمالهم كانت جهاداً فى سبيل الله والحق والمكارم ، ويخلص من ذلك إلى نداء عثمان الذى أصبح ملكه بيد المغيرين ، ويريده أن يتيقظ من رقاده ليرد الباغين والظالمين من دول البلقان . والكاظمى يعكس لنا ما كان عصره يفكر فيه . فيجب ألا نتهم الكاظمى بأنه كان لا يريد الحرية والاستقلال ؛ وإنما كان يخشى على قومه وعلى أمته من أن تستولى عليها جموع الكافرين .

ويعتبر خصوم الدولة العثمانية خصوم المسلمين جميعاً بقوله :

حماة حمى الإسلام إن خصومكم خصوم جميع المسلمين الأكارم
فلم يعدهم صدق الأحاديث عنكم بإفك وشايات العدى والنمائم

ويخاطب دول البلقان أن ترعوى عن غيها وغدرها من أن تشنها حرباً صليبية ضد المسلمين فقال :

أفى أى حق غــدركم بجــواركم و فى أى دين حربكم للمسالم
جنايتـــه إحسانــــه لجـــواره وآثامه رعى البغـــاة الأوائم
فمـــا أنتم إلا جنـــــاة تعودوا ركوب الدنايا وارتكاب الجرائم
تخيفوننا بالحرب ، والحرب عندنا لمن ألف العدوان أشهى المطاعم

ويتهددهم قائلاً :

صليبية تدعونهـــا ، ونعـــــدها هلالية والسيف أعدل حاكـــم
وسوف ترى سود القلانس ما الذى ستلقـــاه من كرّات بيض العمائم

ويخاطب أبناء الشرق الذين عليهم المعوّل فى الحروب ويُحذرهم بقوله :

بنى الشرق هبوا إن فى الغرب هبة تعد عليكم كل بـــار وحاطـــم
تسير إلى إيمانكم بغـــــلائـــل وتمشى إلى أفواهكم بكمائم
أعدت عليكم منكمُ كلّ غافل وعدت لها أوطانكم غنم غانم
فهل وثبـــة ضارية بعـــد وثبـــة تقاوم دون المجد كل مقـــاوم !
أيا أمم البلقان فيئـــوا لرشدكم ولا تتراموا فى حضون الجواحم(٣١)

وقد اتخذ خيرى الهنداوى صورة جديدة فى تأنيب العثمانيين ؛ فقد تصور حادثة محبين كانا يعيشان فى سعادة وهناءة ، وقد خيم الحب عليهما ، وسقاهما من كئوس اللقاء مترعة فى نشوة وجذل ؛ إذ هاجمت قوات البلغار المعتدية الدولة التركية فما كان من الشاب (نجيب) إلا أن يلبى داعى الجهاد للذود عن حمى دولته ، والدفاع عنها ، وفى سلانيك يلاقى مصيره المحتوم ، فتنكب عليه حبيبته (أسماء) هلعه جزعة ؛ فقد اختطف العدو حبيبها الغالى ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وليس لها من معين غير حسرات حرار ، ودموع غزار ، والأسر الذى يوصلها ذليلة حسرى إلى أمير جيش الأعداء ، فتصرخ الفتاة مستغيثة تطلب النجدة والعون . فيجيب الهنداوى الحسناء بقوله :

---

(٣١) الديوان جـ ٢ ص ١١٠ — ١٢١ .

يا هـــذه كفى الدعاء فقومنـــــا	لو تعلمين عن الدعاء نيـــام
ما القوم إلا سحب صيف أرعدت	ثم انجلت بالريح وهى جهـــام
لا تستغيثى ليس معتصم بنــــا	كلا ولا فينـــا يعـــدّ همـــام
ماتت عواطفنـــا بمـــوت رجالنا	فجميعنـــا بممـــاتهـــا أيتام(٣٢)

هذا هو العهد العثمانى وأثره فى الشعر العراقى حتى نشوب الحرب العظمى الأولى ، وقد رأينا ما كان عليه العراق من تأخر شامل فى جميع نواحى حياته الاقتصادية والسياسية ، وبرغم أن الدستور أحيا موات الآمال فى نفوس العراقيين ، إلا أنهم لم يروا ظلاً للإصلاح الذى انتظروه طويلاً ، فقد تعذر الإصلاح ، وبقى الدستور حبراً على ورق ، وما فائدة الدستور – وإن ضم خير المواد التى تعود على أبناء الشعب بالسعادة – إذا لم تخرج هذه المواد إلى حيز العمل .

لم يكن فى طاقة الدولة القيام بالإصلاحات المنشودة لظروف أحاطت بالاتحاديين أنفسهم ، ولم تكن هناك أسس يتفق عليها الحكام ؛ لذلك ضاعت الدولة بأجمعها .

وقد كان الشعراء يؤازرون الدولة ، ويسيرون فى ركابها عندما كان الشعور الإسلامى هو المسيطر ، والخوف من الاستعمار الأجنبى يرعب المسلمين ، ولكن هذا الشعور ضعف عندما نادى الاتحاديون بالطورانية .

وقد أرجأت البحث فى الحرب العالمية إلى فصل قائم بذاته ؛ لأنها اشتملت على معارك وأحداث متنوعة ، وقد كان لأثر الحرب العظمى نصيب كبير فى حياة العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولابد من الإشارة هنا بأن العثور على شعر هذه الفترة كان صعباً ، ولم يتسن لى العثور على أكثر ما قيل فيه لأسباب منها :

١ – زوال العهد الذى نظم فيه هذا الشعر ، وحلول عهد آخر مناقض له ؛ هو العهد الذى حكم فيه الإنكليز وكانوا أعداء للأتراك .

---

(٣٢) الأدب العصرى ج ١ ص ١٧١ – ١٧٣ .

٢ — إن النظم فى بعض المناسبات ، أو فى بعض فترات من العمر تغير رأى الشاعر فى المناسبة وفى شعر الشباب ، لذلك أتلف عدد من الشعراء هذا الشعر لتقدمهم فى معارج الحياة الاجتماعية ، والفوز بالمكانة السياسية التى لاتتلاءم مع ما نظموه .

٣ — أهمل بعض الشعراء تدوين الشعر ، والإهمال طبيعة فى كثير من الشعراء . فضاع بنتيجة الإهمال الشىء الكثير . ومع كل ذلك فالشىء الباقى يعد قليلاً وما نشر فى الجرائد يعطى فكرة واضحة عن هذا العصر وإن لم يعط فكرة عن أجواء بعض الشعراء أنفسهم . ونحن نؤرخ العصر ونعنى به أكثر من عنايتنا بالأفراد ؟

الفصل الثانى

أثر الحرب العظمى الأولى

١ – أهم معارك الحرب العظمى

٢ – معارك العراق

٣ – الاحتلال البريطانى

٤ – الحرب والسلم

— ١ —

أهم معارك الحرب العظمى

كان للحرب العظمى أثر ظاهر فى حياة العراق ؛ فقد غيرت مجرى حياته السياسية والاجتماعية ، فقد دبت فيه حياة جديدة أيقظته من سباته العميق الذى كان يعيش فيه فى عهد الدولة العثمانية ، إذ هزت الحرب بحوادثها وأجوائها العراقيين هزاً عنيفاً ، واستيقظت الأذهان على صيحات القومية ، وشعارات الوطنية ، ورغبات الشعب فى الحرية ، والاستقلال ، فأخذ بعض الشعراء يفكرون تفكيراً جديداً يخالف التفكير الإسلامى الذى ساد العراق طويلاً ، والذى كانت أهم أسسه الجامعة الإسلامية ، فقد بدأت المطالبة بالكيان الذاتى ، والحكم المنفصل عن الدولة الحاكمة ، وأهم حافز دعاهم إلى ذلك ، هو الاحتلال البريطانى المباشر ، وتقسيم البلاد العربية إلى أجزاء متباعدة ، وشدد هذه الرغبة فى النفوس رؤية الجنود البريطانيين والهنود يحكمون بلادهم حكماً مباشراً ، وغدت قضاياهم تدار من المندوب السامى ، والحكام السياسيين الذين لا تربطهم صلة بالعراقيين غير صلة القوة والاستعمار ، والقوانين التى فرضتها قوات الاحتلال(١) ، والتشدد فى تطبيق نصوصها بوساطة قوات الشرطة المحلية التى أطلقت عليها لفظ (الشبانه) (٢) ولو قورن هذا العهد بالعهد العثمانى فلن يجد العراقى مظاهر الاحتلال المادية التى يراها اليوم ؛ فقد كانت قوات الدرك محلية ، وكان بعض ضباط الجيش من أبناء

---

(١) لاحظ بشأن عناية القوات المحتلة الأولى بالجيش والشرطة

Loyalties Mesopotamia by A. T. Wilson, p. 66 London, 1936 .

بقيت الإدارة حتى تشرين الثانى سنة ١٩٢٠ عسكرية على الرغم من تسميتها الإدارة المدنية فقد فرضت من قبل السلطات العسكرية لظروف الحرب .

(٢) الشبانه : كلمة فارسية معناها حراس الليل .

العراق ، ولم تكن لمظاهر الحكم العثمانى غير وجود حفنة من الموظفين الذين يوفدون من الآستانة ، تربطهم مع الشعب رابطة الدين ، والجوار والتأريخ ، مع أن الوالى والقائد وبقية الموظفين كانوا يعينون من الآستانة ، إلا أنهم لم يكونوا دائماً من دم تركى ، وقد شارك بعض العرب من السوريين ، وبعض الأكراد فى مسئولية الحكم فى إدارة إقليم العراق ، يضاف إلى ذلك أن هناك طبقة من الموظفين العرب ، كانوا قد تلقوْا دروسهم فى المدارس التركية جنباً إلى جنب مع الأتراك ، وكانوا يرسلون معاً إلى ألمانيا لدراسة الأركان ؛ فلم يكن التمييز واضحاً ، وغالباً ما حدث التزاوج بينهم . وعندما اندلعت الحرب كان العراقيون يحاربون فى صفوف الأتراك فى كثير من ساحات المعارك ، بينما كان الإنكليز يختلفون اختلافاً ظاهراً ويبتعدون عن العراقيين فى كثير من هذه الصلات (٣) . وشعر هذه الفترة السياسى كان متأثراً بعاملين مهمين :

الأول : العامل الدينى : وهو الشعور الذى كان قد تربى عليه الشعراء ؛ فقد كان يهز مشاعرهم ويربطهم بالدولة العثمانية ، كما تجلى ذلك فى الفصل الماضى ، وهذا الشعور دفعهم إلى مساعدة الدولة ، والمبادرة إلى نجدتها متى ألم بها خطب ، أو اعتراها أمر ، وقد كان من هؤلاء الشعراء المخلص العميق الإخلاص فى اعتقاده ، وكان شعره يصدر بدافع ذاتى محض ، ومنهم الشاعر المجامل الذى لاقدرة له على الوقوف أمام الوازع الدينى الذى كان يسيطر على الشعر آنذاك ، فيضطر لظروف متنوعة للنظم ، مجاراة أو لحب المشاركة والظهور .

الثانى : العامل الخارجى ، وهو الرغبة فى المنفعة الذاتية ، بغية التقرب من الحكومة ، وطمعاً فيما لها من قوة ، ودافعه الخوف من السيطرة والحكم ؛ فقد كانت تركيا تحارب الحلفاء مع الألمان ؛ أى أنها متفقة مع جماعة غير

---

(٣) النظام السياسى فى العراق : محمد عزيز ص ٥١ قال جمال السفاح الذى شنق أحرار العرب « أما العرب الذين تألفت منهم الفرقة الخامسة والعشرون فقد أدوا واجبهم – فرقة دمشق – بمنتهى الشجاعة والإخلاص » لاحظ الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد جـ١ ص ٩٧ مصر ١٩٣٤ بصدد إخلاص العرب .

مسلمة ، بل إنها أسلمت لها القيادة فى العراق ؛ فقد كان قائد الجيش التركى السادس ألمانياً (٤) وقف بجيشه للدفاع عن العراق ضد الإنكليز ، فكيف يلائم الشاعر المسلم بين شعوره مسلماً وبين شعوره موالياً لدولة يعدها كافرة !! إن المصلحة هى العامل الخارجى الجديد الذى ألجأ الشاعر لمسايرة ركب الدولة العثمانية المسلمة .

وعندما أعلنت الحرب العظمى ، بعد مقتل ولى عهد النمسا من قبل الصرب ، كانت هذه الطلقة عود الكبريت الذى أشعل البارود فى العالم ، والطريف أن يتنازع شاعران عراقيان فى صدى هذه الطلقة ؛ فقد رآها أحدهما (٥) قد أثارت الفوضى والاضطراب فى أنحاء العالم ، وقلبت السلام رأساً على عقب ، والصربى رجل فوضى يستحق كل عقاب ولعنة ، بإثارته الحرب حتى فسد النظام فقال :

وما هى لو أمعنت إلا رصاصة	فكم خربت ملكاً وكم أهلكت رهطا
أشاط بها الرامى ولو خال أنها	ستخترق الأرض العريضة ما اشتطا
رمى الطلقة الأولى فكان مجرباً	وعاد إلى الأخرى فأحكمها ضبطا
رماها وما أدراك أى رماية	أصاب بها قلب النظام وما أخطا
فوسطها قلباً ، شظاياه ، لو درى	من الدول الكبرى ، هى الدول الوسطى
رصاصة ذاك الفوضوىّ هى التى	أرتك النظام الاجتماعى منحطا (٦)

وأما عبد الرحمن البناء ، فقد انبرى له قائلاً : إن هذه الرصاصة ستكون السبب فى استتباب الأمن والنظام ، وعودة الأمور إلى مجاريها ، هذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على أن الموضوعات العامة لم تكن تعالج معالجة جدية منبعثة من نفس الشاعر ومشكلات المجتمع ، وكان الشعر وسيلة من وسائل إزجاء

(٤) كان القائد الألمانى الفلد مارشال فون دركولتز .

Field Marschall Von der Goltz: My Campaign in Mesopotamia: Sir Ch. O. F. Townshend p. 11, London 1920.

(٥) لم يذكر الشاعر اسمه وإنما وقع (شاعر) .

(٦) دار السلام ١٥ — ١ — ١٩١٨ .

الوقت كما كان فى القرن التاسع عشر ، وإلا فهذا موضوع جديد طريف أتيح للشعراء ولم يستفيدوا منه فى بحث مشكلات الحرب ، وما تجره الحرب على الناس من ويلات ؛ فلم يتناول هذان الشاعران المصائب الإنسانية التى تجرها الحرب . وكل ما كان من أمرهما أن يتنازعا فى الصربى الذى قتل ولى عهد النمسا : أهو فوضوى أم أنه أراد الخير ! وهذا ما يقوله الشاعر عبد الرحمن البناء :

لقد أكبرت نفس الأبى رصاصة ... قد استعرتْ ملكاً وقد حررت حرّا
رمى كبد الفوضى بها وأصابها ... فأصمت وفى حسن النّظام لها مجرى
وألهمها روح العلاء ـ وقد درى ـ ... من الدول الوسطى ستنتقم الكبرى
رصاصة ذاك الاجتماعى مذ دوت ... أرتك انحطاط الفوضوىّ سما قدرا
درى أن فى قتل الخصيم حياته ... فأقصد منه قبل إطلاقها الصدرا (٧)

والحقيقة التى لامناص منها أن الدول كانت تبحث عن سبب لإشعال الحرب لأنها كانت على أهبة القتال ، ولم يكن مقتل ولى العهد إلا سبباً تافهاً اتخذه هؤلاء لإيقادها . وقد عالج هذا الأمر محمد رضا الشبيبى بقصيدة قال فيها :

وما حربنا المشبوبة ابنة آنها ... ولا نشأت عن قتل من ولىّ العهدا
وما حمل الدولات أن تلج الوغى ... تعاهدها بل إنها اختلفت قصدا
فناشدة ثأراً لتدرك ثأرها ... وطالبة فتحاً وحارسة مجدا (٨)

واقعة الدردنيل :

لعل أول معركة حربية أثرت فى الشعر العراقى خلال الحرب العالمية الأولى كانت معركة الدردنيل ، فلما أعلنت تركيا الحرب فى الخامس من تشرين سنة ١٩١٤ ، ضد الحلفاء ــ تلك الحرب التى لم تكن تريدها ــ لما أصاب

---

(٧) نشرت فى دار السلام العدد ١٧ السنة الأولى ١٩١٨ بتوقيع « شاعر » وقد نشرت فى النور العدد ١٢٧ سنة ١٩٢٩ بتوقيع البناء الصريح وهى كأغلب شعر البناء ضعيفة البناء والتركيب.

(٨) الديوان ص ١٧ .

جميع مرافقها العامة من وهن ، سواء العسكرية منها أو الاقتصادية .
أرادت من إعلانها أن تتعلق بسبيل لخلاصها ، فقد رأى القادة ، أنور ،
وطلعت ، وجمال ، أن انتصار الحلفاء معناه استيلاء روسيا على الآستانة
والمضايق ، فيجب مساعدة ألمانيا للمحافظة على تركيا نفسها ، وإبعاد فرنسا
عن سوريا وإنكلترا عن العراق (٩) فأرادوا محاربة الحلفاء بغلق المضايق
فى وجه سفنهم الحربية لمؤازرة ألمانيا التى خسرت إحدى المواقع الحربية (١٠)
خاصة أن جرجل أراد أن يهاجم المضايق ومحالفة اليونان ، ويوضح قصده
الاستعدادات التى أقامها فى مصر وقبرص ، ثم الإنزال الذى أنزله الحلفاء
لفتح طريق المواصلات بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، لمساعدة
روسيا ، وقد بدأ الإنزال فى شباط ١٩١٥ كتدبير حربى ، ولكن القائد
هاملتون لم يقدر على إتمام عملياته الحربية ، فقد حصن الأتراك المواقع
الحربية فى المضايق (١١) ، وفشل الإنزال ، وكان لفشل الإنزال أثر كبير ،
ورنة فرح فى نفوس الشعراء ؛ فقد نشرت مجلة العالم الإسلامى — التى
تصدر فى الآستانة — قصيدة باللغة التركية ترجمها معروف الرصافى شعراً
سجل فيها انتصار الأتراك ، وردهم المعتدين على أعقابهم ، منها :

تقحّم ثغر الدردنيل مهاجماً عدوان للإسلام ، فى البر والبحر (١٢)
ولكن أمد الله — بالنصر — جيشنا فكان من الفولاذ حصناً على الثغر (١٣)

وقد هاجم كاظم آل نوح هاتين الدولتين ، وقال : إن حصن الدردنيل
حصن مكين قوى تحرسه الأسود ، وعندما أنزل العدو جيوشه ، كانت قوى
الجيش تقف لهم بالمرصاد فأذهلتهم وأدهشتهم بعددها وعديدها :

---

(٩) على طريق الهند بغداد ١٩٣٥ ص ٢٣٢ .
(١٠)
W. Churchill, The World Crisis (1910-1915) p. 229-235.
وعلى طريق الهند ص ٢٣٣ .
(١١) للتفصيل عن واقعة الدردنيل يقرأ المقال المنشور فى ص ٥٢ وما بعدها فى
Incyclopaedia Britanica Vol. 7. London.
وقد كتب العسكرى شيئاً عن هذا المعركة فى مذكراته ص ٤٦ ، ٤٧ .
(١٢) العدوان : فرنسا وإنكلترا .
(١٣) مجلة العالم الإسلامى ، الآستانة ، ٩ نوفمبر ١٩١٦ .

حصن الله حوزة الدردنيـــل بكماة غلب ، وآساد غيـــل
طهر الله ، إن تنجس منهـــا ـباحتلال الأعداء ـبعض الطلول
يوم سالت ـ إنكلترا وفرنســـا بالأساطيل ـ مثل جرْى السيـــول
وجموع ضاقت رحاب الفيافى فيهمو ، والرعيل إثـــر الرعيل
جهلت للإسلام حصنـــاً منيعـــاً عنه عادت ، بدهشة المذهول(١٤)

وقد بلغ من إعجاب البناء بالمحاربين ، أن تمنى أن يفديهم بنفسه لأنهم حفظوا الآستانة نفسها ، من عدوان الحلفاء وكبدوا الحلفاء الكثير فقال :

يا بنفسى من حفظـــوا الدردنيـــلا وعلى الائتلاف ، سدوا السبيلا
حفظوا مركز الخـــلافة ، حتى عاد ما حاول العدى المستحيلا
حصنوا ثغـــر بجرهم بدفـــاع كم وكم أغرقوا به أسطولا (١٥)

أما موقف محمد على اليعقوبى فكان موقف المتهكم على هذه القوات التى هاجمت البسفور ، ولكنها لم تنل منه شيئاً ، إنما أكسبت الجيش العثمانى فخراً جديداً ، وعزاً مجيداً . ولم ينس اليعقوبى ما للألمان من يد فى مساعدة الجيش التركى فى طرد المهاجمين ، الذين أرادوا احتلال الدردنيل عنوة فقال :

سلها غداة ازدلفت للبـــوغاز إذ خاب من خاب ، وفاز من فاز
تلنـــا بهـــا مكـــرمة وإعـــزاز والفوز أحرزناه ، أى إحـــراز
وانكفأت أعداؤنا بالحرمان

قد أقبلت تطفو بها الأساطيـــل فنازلتها صيـــدنا البهاليـــل
نحسبها ـ يوم سطت ـ أبابيـــل ترمى العدى حجـــارة من سجيل
حتى انجلى النصر لآل عثمان(١٦)

---

(١٤) صدى الإسلام العدد ١٥٨ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ .

(١٥) صدى الإسلام العدد ٢١٥ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ .

(١٦) صدى الإسلام ١٧٢ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ وقد نشرت القصيدة باسم محمد على يعقوب التبريزى .

وقد نشرت جل القصائد فى جريدة « صدى الإسلام » ، فى بغداد ، ومن هذه القصائد قصيدة لمحمد مهدى البصير ، عنوانها إلى بطل العثمانيين « أنور باشا » ، يحيى فيها الوزير العثمانى ، ثم يصف مشهد الحرب ، فيقول :

لئن أتتْ للدردنيــل فحاولتْ أمراً ، به عنه تقل وتصغــر
فلقد درى الأسطول كيف تذوده عنه ، المدافع بالصواعق تمطر
فكأنهـا كانت بأعلى جـوهـا سحباً ، عليه بالعذاب تسخـر
ما أن تقابله برمى شواظهـا إلا ورد مخافـة يتقهقـر

ومنها :

فعلى ضفـاف البحر تلك تذوده ووراء لجتـه الفنـاء المضمر
خبأت له الأمواج نار وغىً سـوى ما فيـه أفواه المـدافع تفتـر
فهناك قـر إلى قرارة لجـة والنـار فى حافاته تتسعّر(١٧)

وأطرف قصيدة نشرت فى هذا الحادث ، قصيدة محمد حسن أبى المحاسن ، الذى أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف ؛ فقد جمع فيها بين الغزل والتهكم ، على قوات الحلفاء التى هاجمت المضايق فقد قال :

وشـادن أورثنى حبـه كالائتـلافيين ، حزناً طويـل
عز على الوصل ، منـه كما عز عليهم موقف الـدردنيل
والكل منا لم ينل قصـده وهكذا من طلب المستحيـل
قد همت بالثغر وهـاموا به والثغر ـناء ما إليـه سبيـل
وفتحه كان لهـم منيـة ومنيتى أن أرد السلسبيـل
أشكو ويشكونى الهدى ، والوغى فكلنا يصلى بنار العليـل
يا دولاً فرت أساطيلهـا فرار سلوانى وصبرى الجميـل
كانت غاليبولى لهـم مصرعاً ومصرعى خد المليح الأسيـل

(١٧) صدى الإسلام العدد ١٨٣ السنة الأولى ١٩٢٥ وقد تطرق الزهاوى إلى حرب الدردنيل فى قصيدة له فى صدى الإسلام العدد ٢٦٤ .

دماؤهم مثــل دمــوع النــوى	على الظبــا والخد سالت مسيل
قد صـــادنى الظبى ولـــكنما	صادتهمو من تركيا أســد غيل
أودت بهم بيض حـداد ، كما	بالصب أودى سيف لحظ كليل
ضيعت قلبى يوم ترحــــاله	وضيعوا الشوكة يوم الرحيــل
ولست مسئولاً بشرع الهـــوى	إن سألوا (كجنر) أو (جورجيل)
قد رجعوا بالعــــار ، لــكننى	رجعت فى العشق بمجد أثيــل
وجدت للحب بنفسى ، وهــــم	قد آثروا جبناً حيــاة الذليــل
إن ندموا اليـــــوم على ما مضى	فلا أقيلت عثرة المستقيــل
قد نزلوا بالحرب أوطاننــــا	ونحن عجلنا القرى للنزيل(١٨)

(١٨) صدى الإسلام العدد ٢١١ السنة الثانية ١٣٣٤ هـ وقد أثبت القصيدة كلها لطرافتها .

— ٢ —

معارك العراق

كان دخول العراق ، إحدى الخطط التي أعدها الحلفاء للقضاء على تركيا ومبادرة العمل فيه ، فقد علم الإنكليز بعزم تركيا دخول الحرب ضدهم ، فبادروا إلى إنزال قواتهم في البصرة ، واحتلوها في ٢٣ من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٥ (١) ، فهز إنزال القوات الإنكليزية مشاعر العراقيين ؛ إذ أخذ المستعمر يهددهم في ديارهم ، فقد وطئ أرض الوطن ، يريد أن يكتسح العراق ويحتلها ، فتنادى أبناء الشعب للجهاد ، وقتال المغير المعتدى ، وقد أسهم رجال الدين إسهاماً كبيراً ، فقد أصدروا فتاوى تحث الشعب على الجهاد والقتال في سبيل صيانة أرض الوطن . غير أن قوات المستعمر الحديثة ، واستعداده المتواصل ، أثرا أثراً كبيراً في انتصاره وكان أثر إعلان الجهاد في الأقطار الإسلامية محدوداً ؛ فلم يأت بالثمرة التي كان يرجوها الألمان — حلفاء تركيا — ، والذى أخاف الحلفاء طويلاً (٢) ، فبعد أن تسربت الروح القومية بين أبناء الشرق (٣) ،

(١) كانت إنكلترة تعلم بعزم تركيا على دخول الحرب ضدها وقوى هذا الأمر أن ابن السعود كان قد أخبرهم بذلك بعد أن أنذره أنور باشا بلزوم الاستعداد لمهاجمة الإنكليز ، فقد سلم المقيم السياسى نسخاً من البرقيات المرسلة إليه ، ويضاف إلى ذلك ما وصل إليهم من البصرة من أن الضباط الألمان في طريقهم إلى البصرة . يمكن مراجعة جـ١ من كتاب A. T. Wilson بصدد احتلال البصرة .

(٢) R. Muir, Political Consequences of Great War, London, 1932. p. 139.

(٣) لما زحف الإنكليز داخل العراق ، أخذ العلماء يستنهضون الناس للجهاد ، ومضى بعضهم مع العشائر إلى القرنة فأرسل عبد المطلب الحلى برقية فيها بيتان للشاعر باقر حيدر هما :

نحن بنى العـــرب ليـوث الـوغى ... دين الهـدى فينـا قـــوى عزيز
لابد أن نزحف في جحفـــــل ... تترك نهباً — فيلق الإنكليـــز =

وأصبح الخوف من الاستعمار الغربي يروعهم ، ويدفعهم القتال أكثر من الفتاوى المحدودة الأثر بأبناء القرى والعشائر ، فوعى ابن المدينة ، والرغبة فى الحرية والاستقلال لم يتسرب بين العشائر ، فقد ظهر أثر هذا الوعى فى الشعر بارزاً واضحاً ؛ فقد نظم الزهاوى قصيدة طويلة هاجم فيها الإنكليز المعتدين مهاجمة عنيفة نشرها فى أعداد متسلسلة من جريدة (صدى الإسلام) خاطب فيها الجيش العثمانى الذى ذهب لقتال الإنكليز ، والقادم من قفقاسيا قائلاً* :

ألا أيها الجيش اللهام المعسكر تقدمَ ، فأنت المستطيع المظفر

ويحيي فيها القائد أنور باشا ، ويذكر بلاءه فى الحروب ، ثم يمتدح الجيش الذى يفدى نفسه فى سبيل الدين والوطن ، ثم يهاجم الإنكليز فيقول :

وما هذه فى الدهر أول مرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكروا

بغوا مرة ، من بعد أخرى ، فنالهم أذى البغى ، والتأريخ أمر مكرر

ويصف أعماله فى جبهات مختلفة ، ويمتدح الألمان وأعمالهم وانتصاراتهم بقوله :

بل الألمان اليوم من كل دولة أشد مراساً للحروب وأقدر

فكم غاص فى أرض الفرنسيس جيشهم كما غاص فى صدر طوى الحقد خنجر

وينظر إلى الشرق وما حاق به من تهديد الأجنبى ، فيثير العزائم بذكر أمجاد العرب ودفاعهم عن ديارهم وأوطانهم . وبعد أن يعدد أعمال الإنكليز يعرج على مهاجمتهم أرض العراق فيقول : إن مهاجمة العراق عار يصيب العرب أجمع ، فيجب أن يقاتلوا حتى يخرجوهم من أرض الوطن ، وإلا فسوف يتوارى قحطان خجلاً . وما يذهب الخجل عنه إلا القتال :

إذا داس رجل الإنكليز ربوعها فلا (خندف) ترضى ولا (الأوس) تعذر

ليخجل قحطاناً — وينكس رأسه — قعود بنيه عن عدو يسيطر

أعيدوا — بنى عمى — إلى العرب صيتهم ومجداً قديماً ذكره يتكرر

* لاحظ (المهرجان الخالد لذكرى آل حيدر) قامت بنشره لجنة الاحتفال طبع فى النجف ١٩٥٣ ، المقدمة .

وفى القصيدة تصميم على مهاجمة العدو والاستماتة فى الذود عن الوطن المستباح منها :

سأغسل عنى العار بالسيف ، إنه ليصدق عند الضرب ، أو يتكسر
فوالله لا أثنى جوادى عن العـــدى غداة غـــد ، حتى يولوا ويدبروا

ويرى أن الحرب لن تضع أوزارها إلا باعتراف الإنكليز بأخطائهم ، وأن السلم لن يظهر ما داموا مصممين على الحرب :

نحارب حتى نأمن الغدر ، إنهـــم متى يبصروا وهناً من الشعب يغدروا
إلى أن يقول الإنكليز بنفسهـــــم نعم ، نحن أخطأنا السياسة ، فاعذروا
هناك فأمل أن يزول دجى الوغى وينشق فجر الصلح ، والسلم ينشر (٤)

وللشبيبي قصيدة نظمها فى واقعة سلمان باك بعد أن فقد المحاربون كثيراً من القتلى ، قال فيها :

أيستبيح الحمى قوم أمامهمـــو ومن وراء الحمى غلب مساعير
يامن أحبوا على الدنيا شهادتهـــم تزينت لكم الولدان والحور (٥)

وله قصيدة أخرى نظمها بعد واقعة (الشعيبة) استنفر فيها العراقيين ، والشعيبة من المواقع المهمة الأولى فى حياة الحرب ؛ فقد جاء القائد سليمان العسكرى بك ، ومعه فريق من الجنود الأتراك ، متجهين نحو البصرة ، وهناك حدثت معركة كبيرة جرح فيها القائد التركى سليمان ، وعلى الرغم من أنه أعيد إلى بغداد وقضى شهرين فى المستشفى إلا أنه أبى إلا مواصلة القتال ، فقاد الجيش التركى بنفسه وما زالت الجراح لم تندمل فأعدت له محفة تحمله ، وهاجم الإنكليز هجوماً عنيفاً استمر يومين لم يصب فيه القائد أى نصر ، ثم انتصر الجيش الإنكليزى فى موقعه حاسمة ، واندحر الجيش التركى بين أسير وقتيل ، فما كان من القائد إلا الانتحار ألماً وحسرة

---

(٤) صدى الإسلام ، الأعداد ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، من سنة ١٣٣٢ وله قصيدة أخرى فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٤ ص ١١٤ .

(٥) ديوان الشبيبى ص ٣٢ .

بعد أن أبدى من الإخلاص والوفاء والإباء ما استحق به أن يخلد مع الأبطال ، وقد نظم محمد رضا الشبيبي فى هذه الموقعة ، وأتى على كثير من تفاصيلها ، ثم وصف القائد التركى بقوله :

وقائد حملوه فى محفتــــــه إلى (الشعيبة) من زوراء (بغداد)
أفاتك بالعـــدى جيش مدبـــره معطل الجسم ، ملقى فوق أعواد
جرى (سليمان) فى استعجال مصرعه مجرى كفاة بأمر الحرب قـــواد
قاد الألوف فأرداها وأتبعهـــا فى الحال نفس أبى غير منقـــاد
مخاطراً عاش أعماراً لأن لــــه فى إثر كل نجاة يوم ميـــلاد[6]

أما عبد الرحمن البناء ، فقد دعا الناس إلى القتال ، وترك الكسل والتخاذل ، لأن العدو قادم من مكان بعيد ، وأى ذل أكبر من هذا الذل . وأى جبن أحط من هذا الجبن وهذه معاول الشرك الإنكليزية تهدم صرح المجد الإسلامى فى الشرق فقال :

بنى العراقين لا تنحط همتــكم فرب بارقـــة تجلى بهـــا الظلم
بنى العراقين ! حل الخصم ساحتكم وفى حماكم له مرعى ومغتنم
قد جاءكم من وراء البحر معتزماً وذاك عار عليكم ليس ينحسم
أجدادكم تحت طى الترب تندبكم أين الجلالة أين البأس والهمم
فكيف يهنا لكم عيش بأرضــكم والإنكليز بهـــا يرسى لهم قدم
لمن تشاد مبانيكــم ومجــدكم بمعول البغى والإشـــراك منهدم
أنتم بنو الشرف الأعلى وعترتـــه تمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا[7]

وقد تهكم « البناء » من أبناء العراق الذين يتركون العدو المغرور يحتل بلادهم ، ويتحكم فى مصائرهم ، ومستقبلهم ، وحياتهم ، ولن يعيش الإنسان إلا مرة واحدة ، فيجب أن يعيش كريماً عزيزاً ، كما

---

(٦) الديوان ص ٤٩ للشبيبى غير هذه القصيدة فى الحرب العظمى قصائد فى ديوانه لاحظ ص ١٢ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٤٧ .

(٧) صدى الإسلام ، العدد ١١ سنة ١٣٣٣ .

عاش أسلافه العرب ، سادة الدنيا ، وإلا فالموت خير من حياة الذل والهوان . وللبناء قصيدتان أخريان ، الأولى عنوانها (العيد والحرب) وفيها رسم صورة النسوة وقد ارتدين الحداد ، ولكن فى أعيادهن السالفة يرفلن بملابس زاهية لطيفة ، رسم هذه الصورة ليثير نخوة المسلمين لمهاجمة الجيش الفاتح بلادهم ، ثم تصور فتاة حرة أبية ، وقد غدت سبية بيد العدو ، وقد استاقها العلج أمامه ، وهى تصرخ وتولول نادبة أهلها وحماتها ، وقد حملت ولدها الصغير . رسم هذه الصورة الحزينة ليستنفر هذه الهمم الميتة ، وليثير الشعب على المهاجمين ، ولنترك القارئ يتتبع هذه الصورة :

رب ، فى الروع ، حرة قد سباها ... علج كفر ، فلا يخاف الوعيدا
ساقها عنوة بسوط وجيع ... غل منها سواعداً وزنودا
وهى تبكى أهلاً ، وتندب بعلاً ... وتكنى آباءها والجدودا
وعلى صدرها هنالك طفل ... قلدته من الدموع عقودا
فاجأته رصاصة بحشاة ... فهوى صارخاً يكد الصعيدا

ولو عولجت هذه الصورة بشعر شاعر ذى أسلوب متين لخلد هذه الصورة ، ومع ذلك كانت الفكرة بحد ذاتها فكرة رائعة ، ويستمر البناء فى إتمام رسم هذه الصورة بإضافة صورة الأم التى قتل ولدها وهى تحمله والدماء تسيل على جسمها ، وقد ذهبت منه حرارة الحياة ، وبقيت برودة الموت ، وحيرة الأم بين ترك ولدها الذى كان حياً يملأ قلبها ، وبين تركه على الأرض بعد أن مات فيه رجاء الحياة ، وصف الأم الولهى الحيرى المستاقة عنوة بقوله :

تركته رغماً عليها وسيقت ... وهى تلوى إليه عيناً وجيدا
تتقى ستر وجهها ويداها ... فى قيود ، من ذا يفك القيودا

وبعد أن اطمأن إلى رسم هذه الصورة المثيرة المفزعة ، التى أثارت الغضب والألم والانتقام فى النفوس ، دعا إلى محاربة الأعداء وإجلائهم عن الديار والمواطن ليتم فخر المسلمين بإخراج الكافرين .

أيهـــا المسلمون ! لا فخر إلا   نجعل الخصم فى القفـــار طريدا

ثم يصرخ فى وجه المسلمين داعياً إلى الحرب مادام الموت نهاية كل إنسان فخير له أن يموت شهيداً :

فهلمـــوا إلى النفـــير سراعاً   لا تهــابوا مدافعاً وجنـــودا

كل نفس مصيرها الموت ، لكن   من يمت بالدفــاع مات شهيدا(٨)

وفى القصيدة الثانية ، ظهرت الروح الإسلامية جلية ؛ فقد صور احتلال الإنكليز للعراق الذى سيحول الجوامع إلى كنائس ، فيرسم الصليب على كل محراب ، وقد عد المسيحيين من أهل الكفر ، الذين تجب محاربتهم ، وهذا انعكاس لصدى أفكار العصر البعيدة عن روح الإسلام ، فقد كانوا يعتبرون غير المسلمين كفاراً مع أن الإسلام صريح فى عدهم من أهل الكتاب ، وأنهم أقرب مودة للمسلمين . غير أن الروح السياسية هى التى فرضت على الشاعر هذا الرأى ، ولعل مرد هذا الحروب الصليبية ، لأن العراقين لايسمون المسيحى بالكافر ، وأن العرب الأقدمين كانوا يسمونهم بأهل الذمة أو أهل الكتاب ، ولفظة كافر كانت تطلق على الأوربين بصورة عامة ، وقد يكون للحروب التى كانت تشنها الدولة أثر فى إطلاق لفظة كافر على أعدائها ، فقد وجدت هذا النعت يطلق على الأوربين فقال البناء :

جوامعكم غدت بيعاً ، وفيهـــا   سما فخراً ، على الحق الضلال

أيرسم فوق محـــــراب صليب   وفى أفق الهـــدى يزهو الهلال

ويؤكد ذلك قوله :

كأنى بالليوث الصيـــد صالــت   على الكفار فانفرج المجـــال (٩)

وقد قيل الكثير من الشعر فى هذه الفترة ، ويمكن مراجعة دواوين بعض الشعراء الذين أثبتوا هذا الشعر فى دواوينهم ، وفى جريدة (صدى الإسلام) كفاية للباحثين فمن ذلك قول رشيد الهاشمى :

---

(٨) صدى الإسلام ، العدد ٢٢ سنة ١٣٣٣ .

(٩) صدى الإسلام ، العدد ٤٨ سنة ١٣٣٣ .

إلى الوغى هبوا لحمل السـلاح ... واسترجعوا ما فات قبل الصباح
من نام عن أوطـانه غافـلاً ... يصبح فى عرض ومال مباح(١٠)

وقد كانت الحرب مستعرة الأتون لصالح الألمان أكثر من فائدتها للأتراك ؛ فقد أجبروا تركيا على خوضها (١١) ، وقد ظهر ذلك فى شعر بعض الشعراء واتجاهاتهم ، ولم تكن الفكرة صريحة ؛ فقد عرضت بتحفظ زائد فقد أبدى شكرى الفضلى رأيه فقال : إننا فى حربنا هذه ندافع عن الألمان ، وفاءاً منا للصداقة ، وحفظاً للوداد ، مع ما فى الحروب من أهوال :

لندفع عن خلين من آل جرمن ... على حين قد خان الخليـل خليل

وكان الرصافى وقت إعلان الحرب ودخول الإنكليز العراق فى الآستانة ، فدعا المسلمين إلى الجهاد والذود عن الوطن الإسلامى ، وقد اعتمد فى الدعوة إلى الحرب على الناحية الدينية ، ولم يكن مندفعاً متهوراً يرسل القول على عواهنه ؛ إنما نظم القصيدة بروح المتحمس العاقل الرزين ؛ فلم يقل : إن الإنكليز كفار ، يجب أن يحاربوا لكفرهم ، ولم يهاجم الصليب أو يتطرق إلى الهلال ومكانتهما ؛ فشأنه شأن المسلم المثقف ، الذى يعرف ما له وما عليه من أمور الدين ، هاجم الإنكليز لأنهم شعب يريد أن يستعمر أوطانه ، ويهدم الدولة العثمانية ، التى يدين لها بالولاء ، والأبى الكريم لا يرضيه إذلال بلاده وامتهان حرمتها ، فهو يحارب لأن العدو قد دخل بلاده ، وعليه أن يحفظ بلاده ويحمى شعبه ؛ فهو يستنفر المسلمين قاطبة ، ويدعو كل قادر على حمل السلاح أن يذود عن هذا الوطن ، لأن الواجب الوطنى والدينى يحتم عليه ذلك فقال :

يا قوم إن العدى قد هاجم الوطنا ... فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعـــدو الله كل فتى ... ممن نأى فى أقاصى أرضكم ودنا
واستنهضوا من بنى الإسلام قاطبة ... من يسكن البدو والأرياف والمدنا
واستقتلوا فى سبيل الذود عن وطن ... بـه تقيمون ديـن الله والسننا

(١٠) صدى الإسلام العدد ٤٧ .
(١١) على طريق الهند ص ٢٣٢ .

ولم يكتف الرصافى بمهاجمة الإنكليز ، وحدهم ؛ إنما تطرق إلى موضوع آخر ، هو مهاجمة الذين ساعدوا الإنكليز من العرب ، وشايعوهم فى الصداقة فأصلاهم حرباً شعواء من الهجاء ، لأنه يرى مساعدة الإنكليز الخيانة المتجسمة ، وسخر من الذين شايعوا الإنكليز سخرية لاذعة ؛ فهاجم حسين كامل خديوى مصر ، ووزيره حسين رشدى قائلاً :

قل للحسينين فى مصر رويدكمـــا	قد خنتما الله والإســـلام والوطنا
تالله ما كـــان هذا منكما حسنا	شايعتما الإنكليز اليوم عن ســـفه
قد بعتما الدين بالدنيـــا مجازفـــة	فكنتما فى البرايا شر من غُبنا

ويتطرق إلى مزايا الدين الإسلامى ، ويفخر بأنه لابد أن يسود وترتفع كلمة التوحيد ، ويحلق الرصافى فى مدح الدين الإسلامى ، ويذكر مافيه من شرف ومجد ، وأن الرصافى يفديه بالأرواح ، ومن ثم يتطرق إلى ماحدث لوطنه العراق من احتلال فيقول :

إن العـــــــراق لعمر الله مسبعة	تواثب الأسد فيه من هنا وهنـــا
دون الوصـــول إليه كل مشعلة	شـــعواء تترك وجه الشمس مكتمنا
فإن فيـــــه رجالاً من بنى مضر	إذا تحارب لا تستشفع الهـــدنا(١٢)

وله قصيدة أخرى نظمها عندما دخلت إيطاليا الحرب ، وفيها فكرة خيالية ؛ إذ رأى الطليان جماعة اقترفوا العار ، وزلوا زلة شنعاء ، فهاجمهم هجوماً أخرجه عن طوره الهادئ الوقور الرزين(١٣) ، وقد اشترك بعض الشعراء فى النضال والحرب ، كالشبيبى ، ومحمد سعيد الحبوبى ، وعبد المطلب الحلى ، فقد استنهض الحبوبى فيه القبائل للقتال والجهاد ، ويمتاز الحبوبى بالمكانة الدينية السامية المرموقة ، ومن المؤسف أننى لم أعثر له على قصيدة فى هذه المناسبة ، ولعله انشغل بكل جوارحه ، وبكل مايملك

---

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤٨١ ، المشعلة : غارة متفرقة تتأجج من كل جانب . مكتمن : مختف .

(١٣) الديوان ص ٤٨٩ .

من قوة فى أتون المعركة الفعلية عن نظم الشعر ، والجهاد بالنفس أغلى وأثمن من الجهاد بالشعر[١٤] .

وقد شارك علماء الدين بالفتاوى التى حثت المسلمين على الحرب[١٥] ، ووزعت بين القبائل لمؤازرة الدولة العثمانية التى تدافع عن الدين الإسلامى ، وقد لبى الكثير نداء الفتاوى على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم ، مفضلين أهون العدوين الذى تربطهم به الرابطة الإسلامية . ولم يكتف العلماء بالفتاوى ؛ وإنما شاركوا مشاركة فعالة فى الحرب ، فقد حارب قسم منهم مع العشائر ، كما ذهب صالح الحلى من النجف إلى بغداد لكى يحرض الناس على الجهاد بخطبه وبيانه ، وقد بقى الحلى فى بغداد حتى سقوطها بيد الإنكليز ، لا يكل ولا يهدأ[١٦] ، وقد كان عبد المطلب الحلى يزور[١٧] جهات القتال ، ويستنفر القبائل وزعماءها لمناصرة الأتراك ، يدفعه الشعور الدينى المخلص[١٨] ، ولم يكتف بالزيارة وتحريض القبائل ، إنما نظم قصيدة ، دعا فيها إخوانه العرب إلى مشاركة الأتراك فى القتال ، لا لأنهم يقاتلون عن بلادهم ، وإنما لأنهم إخوانهم ، ويجب حبهم ومودتهم ، وأخذ يبرر الأعمال التى اقترفها الأتراك فى العراق من قبل بقوله :

رفقـاً بإخوتكم يا عرب إنهم   لم يغصبوا قبلها حقاً لكم وجبا

ويؤنب العرب ، لأنهم لم يسارعوا فى ضرب الإنكليز ، ويدافعوا عن العراق عندما دخل الإنكليز البصرة ، وقد سره أن يستمر خيون العبيد فى حرب الإنكليز ، فقد أعطى مثلاً حياً للمواطنين ، ونموذجاً ناطقاً للبطولة والكرامة ، فقال :

بنى العرب العرباء من نومكم هبوا   ونهضاً إلى الجلى ، فقد عظم الخطب

---

(١٤) ترجمته فى الحقائق الناصعة بغداد ١٩٥٣ لاحظ جـ ١ ص ٣٦ .

(١٥) تراجع جريدة صدى بابل بصدد الفتاوى والتبرعات والاحتفالات بشأن مشاركة رجال الدين فى القتال .

(١٦) شعراء الحلة جـ ٣ ص ١٦٣ .

(١٧) للسيد عبد المطلب الحلى دعوة للجهاد نشرت فى العدد ١٣٩ . ١٤٠ من صدى الإسلام .

(١٨) شعراء الحلة جـ ٣ ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٤ .

نكصتم وحرب الإنكليز لحربكم ... تقدم لا يثنيــه طعن ولا ضربه
وأرسى على الثغر العــراقى بغتة ... بعادية ، أضحى يضيق بها الرحب
فما صمدت منكم لدى العز كرة ... تعود بجيش الكفر وهو لكم نهب
فمن مبلغ العرب الكرام رســالة ... وإن كان لاتجدى المراسيل والكتب
أبثهم من مؤلم العتب نفثــــــة ... بهاضاق رحب الصدر واعتاج الكرب
سأندبكم عرباً ، أقاموا بخطـــة ... من الضيم لايرضى بها الرجل الندب
يسومهم الغدار خطـــــة نازل ... على حكمه قسراً لها ذلت النجب

هذا عتاب مؤنب عميق أثره فى نفس الشاعر ، سجل فيه الشاعر انهزام القبائل ، وتفرق جموعهم بعد موقعة حربية ، غير أن خيون العبيد وقبائله ، أبدوا من ضروب البسالة والإقدام ، ما أثار فى قلب الشاعر المشاعر بالفخر والمباهاة فقال :

ولولا رجال قد نماهم إلى العـــلا ... نزارٌ ، لغنىّ فى هجائكم الركب
فوارسُ من عليا ربيعةَ أحرزوا ... حديث علا ، فى نشره ازدانت الكتب
جزى الله (عبدالقيس) أفضل ماجزى ... به عامــلاً عن فعله رضى الرب
لقد فعلوا فعلاً حوى المجد كله ... وفازوا بأجر ليس يحبطــه ذنب

وبعد ذلك يذكر المواقع الحربية التى انتصر فيها العرب على الجيش البريطانى فيقول :

همو منعوا يوم (السويج) حريمهم ... ببيض الظبا من أن يراع لهم سرب
وفى يوم (أم الملح) أبقوا مآثراً ... من المجد فيها لم تزل تفخر العرب
غداة البريطانى قد قاد جحفــلاً ... لهاماً ، به نار المـــدافع لا تخبو
فردوه للأعقاب خزيان ناكصــاً ... فولى وفيه القتل والأسر والسلب

ويبدو إعجابه الشديد بالشيخ خيون العبيد ، الذى حمى الإسلام من الأعداء ، وأعاد للعرب كرامتهم ، وعزتهم ، ويصف هجماته ، على العدو الزاحف دون أن تخيفه الأهوال ، أو ترعبه المعامع ، والمعارك ؛

لأنه كالسيف عزيمة ومضاء وقوة ، ويستثير همته بما فكر فيه العرب من ترك دينهم والدفاع عن وطنهم فقال :

أخيون إن العرب قد ألقت العصا ... وباتت على رأى هو السلم، لا الحرب
وهان عليها دينها وديارها ... وليس فتى إلاك تعلو به العرب
فشمر إلى الحرب العوان بهمة ... إذا صممت أمراً لها سهل الصعب(١٩)

وقد سارع محمد حبيب العبيدى ، فألف كتابين : الأول أسماه (حبل الاعتصام) (٢٠) والثانى (جنايات الانكليز)(٢١) وفى الكتابين يحرض الناس على حرب بريطانيا فقد قال : ما كان عرش بريطانيا لتكلله الحشمة ، وتظلله العظمة ، لولا أن دعائمه هم المسلمون ، فمن صالح بريطانيا ألا يكون على وجه البسيطة دولة إسلامية ، ذات حول وطول ، تستطيع أن تكون سنداً للذين يحملون عرشها ، ويتخبطون فى أغلال أسرها من أولئك البائسين . ولا ريب أن مناط تعزيز الدولة ، وكونها قوية الشكيمة ، ذات حول وطول ، إنما هو اتحاد الكلمة ، وجمع الشتات . والخلافة هى كعبة السياسة للمسلمين ، تتوجه شطرها وجوههم أينما كانوا ، وتهوى إليها أفئدتهم فى كل مكان . وهى الرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية ، والوسيلة العظمى للم الشعث ، وجمع الشمل ، فهى أجدر من أن تكون تلك الدولة التى لاتستطيع أن تكون سنداً للبؤساء الذين يئنون تحت أثقال الحكم البريطانى من إخواننا المسلمين .

ثم يصل إلى قوله :

« من أجل ذلك كان الإنكليز أكثر الأمم ضرراً للمسلمين ، وأشد الأقوام عداوة لهم ولخلافتهم المقدسة ، ولدينهم المبين ، ثم لهلالهم الممثل لعظمة هاتيك المقدسات (٢٢) . فالعبيدى يرى الإنكليز أشد الناس عداوة

(١٩) شعراء الحلة ج ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، راجع العدد ١٦٤ من جريدة صدى الإسلام السنة الأولى ، لاحظ قصيدة أخرى له .

(٢٠) حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام ، طبع فى بيروت سنة ١٩١٦ .

(٢١) جنايات الإنكليز عن البشر وعلى المسلمين خاصة طبع فى بيروت سنة ١٩٢٦

(٢٢) حبل الاعتصام ص ١٢٠ .

للإسلام ، وأكثرهم ضرراً ، وبذلك يحذر المسلمين من الاستسلام لهم .
أما الكتاب الثانى ، فقد رأى أن جنايات الإنكليز عمت البشر كلهم ، ثم يعدد مثالب الإنكليز الذين يريدون أن يصيبوا كبد الهلال العثمانى ، والقرآن المجيد ، وأن الإنكليز ليسوا أعـداء العثمانية ، لأنها السبب فى حياة المسلمين ، ومن ألقى نظرة على عناوين الكتاب يتضح له مقدار هذه الكراهية ، ومن هذه العناوين : عاصمة الإنكليز وهيكل الظلم المشئوم ص ١٢ ، كيف يسعد الإنكليز بشقاء من تحت يدهم من الأمم والشعوب ، ص ٣٤ ، إن الإنكليز أكبر الجناة على المسلمين ص ٦٠ ، الجنايات المتسلسلة والجرائم المركبة من الإنكليز إزاء المسلمين ص ١٠٨ ، ويضرب أمثلة على جور الإنكليز فى آسيا وإفريقيا ثم يلخص هدفه فى بيتين كتبهما على غلاف كتابه هما :

يا أسارى الهوان قوماً فقـــوماً	قد عرفتم جرائم الإنكليز
فمتى تحطمون للـــذل قيــــداً	مستعينين بالقـــوى العزيز

معركة الكوت :

والحادثة الثانية التى أثرت فى الشعر العراقى كانت معركة الكوت ؛ وهى المعركة التى حصل فيها الأتراك على نصر ساحق ، فبعد أن أخذ الجيش الإنكليزى فى احتلال أجزاء العراق الجنوبية سار بقيادة «تاونزند» لايقف أمامه شىء فى اتجاه بغداد . ولكن الجيش التركى صمد له قبل أن يصلها واضطره إلى الانسحاب ، وعقبه حتى وصل مدينة الكوت ، فتحصن فيها ، فأسرع الجيش التركى وحاصر المدينة . وقد طال أمد الحصار إلى خمسة أشهر حاول قائد الإنكليز — بكل مالديه من قوة — الخروج من هذا الحصار ولكنه لم يفلح ، كما حاولت السلطات البريطانية إمداد الجيش بالمؤن والذخائر لرفع معنوية هذا الجيش المحاصر . لكن المحاولات ذهبت أدراج الرياح ؛ فقد نفدت الميرة التى بين أيديهم حتى اضطر المحاصرون إلى أكل لحوم البغال والحمير والخيل ، وبدأت معنويات المحاصرين تنحط يوماً بعد يوم ، حتى اضطر القائد الإنكليزى إلى مفاوضة القائد التركى

خليل باشا ، ولما لم يقدر على النجاة بشيء حطم معداته الحربية ، ومدافعه واستسلم للجيش التركى (٢٣) .

كلف هذا الاستسلام الإنكليز حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل ما بين ضابط وجندى (٢٤) ، وقد جاء هذا الاستسلام عقب انكسارات متوالية منى بها الأتراك وقوات العشائر التى ساندتهم ، وبعد أن هدد الإنكليز بغداد نفسها ؛ لذلك كان أثر هذا الانتصار عميقاً أخرج النفوس عن طورها ؛ أخرجها من الفخر والمباهاة بالنصر ، والتغنى بالموقعة إلى الزهو والغرور ، وزاد معنويات الشعب والدولة العثمانية فسرت موجة الغبطة والسرور فى كل مكان :

إن دوى المدافع الذى كان يفزعهم ابتعد عن أسماعهم ؛ فبعد معركة سلمان باك أو المدائن (٢٥) التى دامت أربعة أيام بلياليها ، واستعمل فيها السلاح الأبيض تقهقر الإنكليز أمام ضغط القوات التركية الجديدة بقيادة خليل باشا ومحمد على بك .

وقد أجج هذا النصر فى قلوبهم الحماسة ، فسارعوا إلى تخليد هذا النصر الذى حازه المسلمون على المستعمرين فقال أبو المحاسن :

سرت نفحــــة الظفر العاطـــره بأرجاء أوطـــاننا الزاهـــــره

ثم ذكر معركة سلمان باك التى أقرت عيون المسلمين ، الذين أخذوا حقهم من الأعداء ، وأدركوا ثأرهم منهم فقال :

---

(٢٣) للتفصيل يراجع الفصل السابع ص ٩١ — ١٠٠ من كتاب ولسن ومذكرات تاوتزند
My Campaign in Mesopotamia, by : Ch V. F. Townshend.
كما كتبت مجلة (العالم الإسلامى) التى تصدر فى الآستانة مقالاً عن تاريخ حملة العراق بعنوان (النصر المبين فى العراق) فى عدد مايو ١٩١٦ .

(٢٤) يذكر ويلسن تفاصيل عن الجنود والضباط ص ٩٩ ويمكن ملاحظة الصفحات ١٥٧ — ١٨٣ ج ٢ من كتاب :
The Campaign in Mesopotamia 1914-1918, by : F. T. Moberly, London 1930.

(٢٥) كان قائد الجيش العثمانى فى واقعة سلمان باك أو « تل السور » نور الدين باشا ثم بقيادة خليل باشا ومحمد على بك .

فيايوم سلمـــان أنت الذى جعلت وجـوه الهدى ناضره
وقد أدركت ثارهـا المسلمو ن فيك من الفئـة الدائره

ويتحدث عن أعمال القائد التركى الذى نظم خطة الانسحاب من أمام الجيش الإنكليزى ليضربه ويفقده المبادأة التى اضطرتهم إلى الالتجاء إلى الكوت :

وخادعت إنكلترا فى القتا ل فانخدعت وهى الساحره

ويسائل الإنكليز علام جاءوا إلى العراق ؟ ألم يعرفوا المصير الذى ينتظرهم فيه !؟ وخاطب لندن قائلاً :

أتيت العـراق لنيـل المنى وعدت على خيبـة صاغره (٢٦)

وقد وصف محمد رضا الشبيبي المعركة فقال :

تجاه إيوان كسرى مأزق ضنـك أودى الرجال به والخيل والعـير
كادت تميز ذباً عن حقائقهـا فيه النفوس وتستقرى التصاوير
شأو تعاطت سباقاً دون غايتـه جرد البصائر والجرد المحاضـير
إن كان للخيل مضمار ومضطرب فكم خلت ثم للرأى المضامير
قتلى «بدجلة» منها «دجلة» امتلأت و «النهروانان» والأنقاض والدور

ثم يصف خاتمة هذا النصر الذى حققه الجيش بقوله :

يوم أغر مـن الأيام منبلـج وموقف فى سبيل الحق مأثور (٢٧)

كان سيد الموقف فى المعركة خليل باشا ؛ لذلك اتجه الشعراء إليه يزجون عبارات الحمد والثناء ، وكيف لايكون سيد الموقف وها هو قد أسر جيشاً بكامله ، ورفع معنويات الحكومة التركية بأسرها !! ومن

---

(٢٦) صدى الإسلام ، ١٣١ — ١٣٥ ، وفى العدد ١٣٢ مقال نور الدين باشا وبسالته وما أحرزه من انتصار فى واقعة سلمان باك .

(٢٧) الديوان ص ٣٠ ويلاحظ قصيدة حسن النقى الدورى فى جريدة صدى الإسلام العدد ١٤٦ يحيى فيها انتصار الجيش ، وقصيدة البعوبى فى العدد ١٧١ يتطرق إلى واقعة سلمان ، وقصيدة الزهاوى العدد ٢٦٢ صدى الإسلام والعدد ٢٦٣ يخاطب سلمان باك .

هؤلاء كاظم آل نوح ؛ فقد قال يحيي القائد خليل باشا الذى كان يحاصر الإنكليز الذين يلاقون ما لاقاه فى حرب الدردنيل ، ويدعو الله أن يتم النصر للجيش المسلم على الجيش الكافر المحاصر (٢٨) ، وفى قصيدة أخرى يحفز الجيش على الهجوم ، ويخوف الإنكليز من بلايا وقعاته ، ثم يخاطب القائد قائلاً :

يأيها القائد المحفوف فى أسد — تغدو لها الأسد إما تلقها بهما

لاتهدأ العين منا أو نراك بـه — قد رحت من جاحدى الإسلام منتقما

شدد عليهم ولا ترعى(٢٩) لهم ذمماً — فهم لنا لم يراعوا فى الوغى ذمما(٣٠)

ثم يدعو للمسلمين بالنصر ، وللخليل بالفوز ، وللخليفة بطول العمر . وفى قصيدة أخرى يرى العدو قد دنس أرض العراق ، فيجب أن تطهر منه بالجلاء العاجل ، ولا تطهر إلا بالدماء ؛ لأن الجيش التركى لابد أن يفوز فى الحرب ، وكيف لاينصر وهذا قائده خليل باشا الذى يسيطر على جيش الإنكليز ، وغدا تحت رحمته :

أسبيل إلى الفرار لمن — أمسى محاطاً بجحفل جرار

هو تحت الحصار مثل بغاث — ترمق الصقر وهى فى الأوكار

أفينجو من المنية من قد — بات تحت الأهوال والأخطار

إن نجا من جيوشنا كيف ينجو — من شبا عزم فحلها الهدار

صاحب الحزم والثبات « خليل » — يوم حرب والفارس المغوار

ومادام الجيش الإنكليزى فى الحصار لا يقدر على أن يفك نفسه برغم قوته وعديده ، وقد أسلم نفسه للحصار ، ولم يقاتل فى الصحراء ؛ فقد لطخ نفسه بالذل والعار ، لأن معارك الرجال تكون فى خارج المدن لا داخلها فقال :

---

(٢٨) جريدة صدى الإسلام العدد ١٥٧ .

(٢٩) كذا .. بالأصل .

(٣٠) صدى الإسلام ١٦٤ السنة الأولى .

ما بالجيش العدو فى الكوت أضحى فرقاً جاثساً خـــلال الديــار
إن يكن مصحراً فما من عـــــار إنما العار وهو تحت الحصار(٣١)

وأخيراً استسلم الجيش الإنكليزى بعد أن فقد أمله ، وبعد أن انتظر طويلاً مؤملاً النجاة ، وبعد الاستسلام أخذ الأسرى سيراً على الأقدام إلى الأناضول ، فمات فى الطريق من مات مرضاً أوجوعاً (٣٢) .

وعند ما استسلم الجيش الإنكليزى بعد حصاره الطويل ، أقيمت الاحتفالات فى كل مكان ؛ فى المدارس والسرايات والشوارع ، وكانت مجالاً لإلقاء القصائد والمقالات والخطب ، وقد سجلت بعضها جريدة (صدى الإسلام) ؛ ومن هذه القصائد قصيدة لعبد الرحمن البناء يقول فيها : إن استسلام الإنكليز هو غاية كل مسلم لأن الملك لا يكون إلا للمسلمين وللخليفة ، وقد رفع خليل باشا رأس أهل العراق بهذا النصر وخاطب القائد فقال عنه إنه (مقدس القدر) له (رأس كالبدر لايرقى إليه) وإن الإنكليز جاءوا لاستعمار العراق ، ولكنهم باءوا بالخيبة والخذلان ؛ فهذا قائدهم أصبح طائعاً ذليلاً صاغراً هصره الألم والهم ، وهاضت جناحه الذلة والمسكنة :

أطاعك جيش الإنكليز وهــذه هى الغاية العظمى إلى كل مسلم
أتى طائعاً بعد الحصـــار مسلمـــاً إليك بوجه حالك اللون مظلـــم
يقاسى الأسى بل كاد يخنقه الأسى ويغضى على أنف من الذل مرغم
لقد ظن أن الكوت يحمى جنـــوده وينجيه من بأس الخميس العرمرم(٣٣)

وظهرت فى شعر عطاء الله الخطيب بادرة جديدة ، يجدر بنا التنويه بها ، هى الاعتداد بالعرب وبالشعور القومى ؛ فرأى أن للعرب حقاً فى هذا النصر ، لأنهم شاركوا الأتراك فى هذا الحصار وكان لهم دور فعال ، ولم يخص العرب بمثل هذه الالتفاتة غيره ، فبعد أن افتخر بانتصار الهلال

(٣١) صدى الإسلام ١٧٣ السنة الأولى .
(٣٢) ولسن ص ١٠٠ .
(٣٣) صدى الإسلام العدد ٢٤١ السنة الأولى .

قال : إن حزب محمد هو الذى انتصر ، وأن الهلال كالخنجر الذى طعن الخصم ، ثم عير الإنكليز بخسران معركتهم فى الدردنيل والكوت فقال :

أسود من الأتراك والعرب مالهـــم سوى السيف من خل وفى مواصل
فكم طوقوا جيد الزمان بعـــزمهم وكم أطلقوا كفاً ببــذل ونائل
كماة إذا استافوا الطـــلا فشرابهم عصير نفوس الشوس لاخمر بابل

إن قوله « أسود من الأتراك والعرب » شىء جديد بالنسبة للشعراء الذين يذكرون أبناء عثمان وآل عثمان والدولة العثمانية والدين الإسلامى فى شعرهم وهذا دليل على تسرب بوادر الروح القومية فى النفوس ، وأن العرب بدءوا يفكرون تفكيراً خاصاً بهم ، ويوضح ذلك قوله :

أتونا وقد ظنوا العراق وأهلـــــه رقوداً كما الأموات رقدة غافل(٣٤)

ولم يكتف الشعراء بمهاجمة الجيش الإنكليزى الذى دخل العراق ؛ وإنما طرقوا شأن الشعر العربى عامة إلى مواضيع مختلفة ، منها مدح القادة الذين تولوا هذه الحروب ، وقد مدحوا السلطان رشاد بهذه المناسبة ؛ لأنه القائد الأعلى ، ولأنه حامى المسلمين ، متخذين من الروح الإسلامية سبيلاً لهذا المديح ، ولعل القائد خليل باشا الذى كان رجل الساعة قد ظفر أكثر من غيره بالثناء ، لأنه كان قرب سمعهم وبصرهم ؛ فمن هؤلاء الشعراء كاظم آل نوح ، فبعد أن هاجم الإنكليز الكافرين الذين جاءوا لمهاجمة المسلمين مدح السلطان الذى أرسل خليل إلى العراق قال :

دام سلطاننـــــا الذى فيـــه تحمى بيضة الدين صاحب الإكليـــــل
دام للمسلمين حصناً منيعـــــــاً إذ به أصبحوا بظل ظليـــــل(٣٥)

أما السيد عبدالمطلب الحلى فقد كان فى ساحة القتال ، فأخذ يستنفر شعور المجاهدين ضد الإنكليز الذين وطئوا أرض العراق ، وقد ظهرت آثار الفرحة واضحة على شعره ؛ فقد أرسل البشرى إلى جميع أبناء الشرق

(٣٤) صدى الإسلام العدد ٢٤٥ السنة الأولى .

(٣٥) صدى الإسلام ١٥٧ السنة الأولى .

دون تفريق، وثم هنأ خليل باشا بفتح الكوت ، وأخذ يذكر المجاهدين بالانتصارات التي حازها الجيش العثماني فقال :

بني الشرق طرا من سباتكمو هبوا   هفت لكم البشرى فقد فشل الغرب
بفتح به قرت من الدين عينه   وسرت به الأتراك والعجم والعرب

وامتدح خليل باشا قائلاً :

«خليل» العلا ترب الظبي أخو الحجى   وحلف الوغى إن أحجم البطل الندب
له راحة يوم الوغى تمطر الدما   ويوم لقاء الركب نائلها سكب
هو الأسد العادى إذا صرت الوغى   بأنيابها والضرب يتبعه الضرب

ثم تحدث عن القائد الإنكليزى الذى أجبره القائد التركى على الاستسلام جوعاً ، وإن حرب الجوع أقوى من حرب السيوف ، وعلى الرغم من أننى لا أتفق معه على هذه الفكرة فأنا لا أناقشها لأنها فكرة آنية اضطر إلى تبريرها الشاعر بقوله :

فحاربهم بالجوع حتى تساقطوا   ألا إن حرب الجوع حقاً هي الحرب(٣٦)

ومن رجال الدين الشعراء الذين هاجموا الجيش الإنكليزى محمد على اليعقوبى ؛ فقد كانت دولة إنكلترة دولة عظمى كبيرة العدد والعتاد ، والاستيلاء على جيشها وحصاره كان شيئاً كبيراً مهماً ، لذلك كان الانتصار عليها انتصاراً يتمشى مع هذه العظمة ، فلاعجب أن يخلد حصار الكوت فقال من موشح له :

لله جيش المسلمين المنعوت   كل حجى قد عاد منه مبهوت
صال على إنكلترا وهى الحوت   ولم يزل يطردها حتى الكوت

من بعد ما جاست خلال سلمان

ويسخر من بريطانيا التى رامت فتح العراق ، وكان الأولى بها حماية

(٣٦) شعراء الحلة جـ ٣ ص ٢٠٦ ، وله قصيدة أخرى فى العدد ١٨٠ وقصيدة أخرى لكاظم آل نوح يمتدح خليل باشا ، صدى الإسلام العدد ١٦٤ ، وله أيضاً فى العدد ١٧٥ مؤرخاً ، وله قصيدة يخاطب الجيش العدد ١٩٠ .

عاصمتها لندن التي هاجمها الألمان بالمنطاد زبلن وقذفها بالقنابل والنيران فأحرقها ! ولا أظن أن لهذا الخبر من صحة ، لأن المنطاد سريع العطب إذا ما أصيب بطلقة ، فكيف يقذف النيران والقنابل ، ولكن الشاعر أراد أن يأتي بكلمة زبلن لضرورة القافية وأراد الطيارة ، والمعنى يكاد يكون مبهماً في البيت الأول :

قد عز يا انكلترا ما تبغين ... وراءك اليوم عن المعصومين
ليس العراق مثلما تظنين ... فلندن حام عليها زبلين
يقذفها قنابلاً ونيران(٣٧)

وقد نظم علي البناء قصيدة يمتدح بها خليل باشا وفيها مدح السلطان رشاد ذاكراً أعمال خليل باشا في سلمان باك وفي الكوت ومن ثم يقدم التهاني للمسلمين جميعاً منها :

لتهنأ بهذا ملة الدين إنه ... سرور بني الإسلام في كل ذي قطر
وتكسى فخاراً آل عثمان سرمداً ... بما فيهم قد شد للدين من أزر
وسلطانها الغازي (رشاد) عمادها ... وفخر بني الإسلام لابل مفخر الفخر (٣٨)

وقد امتدح محمد مهدي البصير وزير الدفاع أنور باشا بقصيدة ـ بعد معركة الدردنيل ـ قال فيها : إنه صان تاج الخلافة ، وأمن الخائف من أبناء الأمة ، وبذل جهده في سبيل الإصلاح ، ورفع الظلم عن أبناء الشعب فقال :

عقد الإله لواك فهو مظفّر ... بالنّصر ما بين الممالك يُنشر
وأطال عنق الدين سيفك إذ غدا ... في حدّه باع العدو يقصر
يا صائناً تاج الخلافة والذي ... فيه أقيم سريرها والمنبر

---

(٣٧) صدى الإسلام ١٧١ السنة الأولى . لعله أراد من (وراءك) ارجعي عن المعصومين بعناية الله ، وللبناء قصيدة يهنيه برتبة اللواء العدد ٢١٥ وقصيدة لإسماعيل رئيس بلدية البغيلة العدد ٢٦٩ .

(٣٨) صدى الإسلام العدد ٢٦٦ السنة الأولى .

مثل الخليفة من يكون محكّماً بين العباد ومثلك المستوزر

مهّدت هذا الشعب ملتمساً له إصلاحه فيما تسر وتجهر

أمّنت خائفة ورعت مخيفه تنهى به عما تشاء وتأمر

كم من يد أسديتها لك أوجبت شكر الأنام ونعمة لا تكفر

كم ظلمة للظلم أنت جلوتها وبنور عدلك أشرقت يا (أنور)

كم وقفة لك دون ملة أحمد فيها برأيك بل بسيفك تنصر

وتطرق إلى سهره على راحة الشعب وأمنه فقال :

كم ليلة ليلاء أنت سهرتها لتنام حولك أعين لا تسهر (٣٩)

ولما وصل أنور باشا بغداد ، وامتدحه ذاكراً نصر المسلمين ، ومعتبراً زيارته جهاداً فى سبيل الله والمسلمين ، وأشرق بقدومه النصر الذى يرافقه أين ارتحل فأصاب الإنكليز الخزى ، وأضر بهم الحصار والأسر ، وغدت وجوه المسلمين مشرقة المحيا ناضرة غبطة وسروراً فقال :

أنار حمى بغداد مذ جاء (أنور) بوجه عن الأقمار أبهى وأنور

أتى وهلال النصر وسط لوائه يهلل بالبشرى له ويكبر

ووصف حال الإنكليز وحال المسلمين بقوله :

أتيت وعيش الإنكليز مكدّر وعيش بنى الإسلام ريان أخضر

ثم قال له : إنك جئت إلى بغداد لكى تروع الإنكليز والروس ، ولكن الجيش الإنكليزى جاءك أسيراً ذليلاً طائعاً :

أتيت لردع الإنكليز وروسها فوافاك جند الإنكليزىّ يؤسر (٤٠)

أما جميل صدقى الزهاوى فقد نظم قصيدة طويلة لم تتمكن الجريدة من نشرها إلا فى أعداد متتالية (٤١) خاطب بها الجيش العثمانى ، ثم قال : إن أنور

(٣٩) صدى الإسلام العدد ١٨٣ وذكرت صدى الإسلام فى عددها ٢٢١ السنة الأولى أن العرب فى أمريكا اكتتبوا بمبلغ كبير لشراء سيف ثمين يقدم هدية لأنور باشا .

(٤٠) صدى الإسلام ، العدد ٢٥٥ ، السنة الأولى .

(٤١) صدى الإسلام ، الأعداد ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وقد سبق الإشارة إلى هذه القصيدة فى معركة الدردنيل .

باشا ما اختار خليل باشا إلا بعد أن عجم عيدان قواده فوجده أشدهم وقوة ومراساً ، ثم خاطب أنور باشا قائلاً :

أأنـــور أنت اليوم درع لأمـــة يحاربهـــا ثلثـا الأنام وأكثر
وإنك سيف الله يمحو به العدى ويخذلهم حتى يمـــوت التجبر
قدمت على رحب لبغداد إنهـــا لفضلك فى هـــذى الزيارة تشكر
ليهنك أن الفوز فى الكوت شامل وأن فريق البغى أصبح يؤسر

ويقدم التهانى للجيش الذى ضحى بنفسه فى سبيل الوطن ، ثم يهجو الإنكليز بقوله :

وما هذه فى الدهـــر أول مرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكروا
بغوا مرة من بعد أخرى فنالهم أذى البغى والتاريخ أمر مكرر

ويعدد أعمال الإنكليز فى كل مكان ، ويمتدح الجيش الألمانى ، ويحيى الموتى من المسلمين ، ويتطرق إلى واقعة سلمان باك ، وكيف تم النصر للمسلمين بعد معركة حامية ، والطريف منها وصفه للطائرة فى قوله :

وقالوا : بدت طيـــارة ستصبهـــا قذائف من صهـــواتها تتفجر
أقلب طرفى فى السماء فلا أرى سوى نقطة سوداء تخفى وتظهر
دنت فإذاها كالعقاب تقلهـــــا محركة بالنـــار تغلى وتزفـــر
فصبنا إليها مدفعـــاً فأصابهـــــا وخرت على آلاتها تتكسر (٤٢)

ومن الطريف أن نختم هذا الفصل بقصيدة نظمت على لسان أنور باشا بعد أن خسرت الدولة العثمانية الحرب ، واحتل الإنكليز العراق ، يتهكم الشاعر ويسخر بها من أنور باشا ، والقصيدة صورت نفس أنور بأسلوب لطيف ؛ صورت جشعه ، ورغبته فى جمع المال على حساب الأمة التركية ليرضى قيصر ألمانيا دون الاهتمام بجوع الأمة وأوجاعها ، ويزيد الموضوع طرافة أن ناظمها هو محمد مهدى البصير الذى مدح أنور باشا إبان الحكم التركى قال فيها :

(٤٢) صدى الإسلام عدد ٢٦٢ .

رجوت بموقفي فوزاً مبينـــــا   فسقت لك العـــذاب به مهينا
ربحت بك المواهب والعطايـــا   فبتّ مع الشعوب الأخسرينـــا
إذا الدينار أسمعني رنينـــــاً   فديت لصوته منك الأنينـــا
أصبت رضاء قيصريَّ المفـــدى   فأهونْ بالرجال الساخطينا (٤٣)

ويصف ما أصاب غليوم من الرعب غداة الانكسار ، فقال إن تركيا قد بيعت للألمان ولكن بأرخص الأثمان ، وإن الخطة التي اتبعها كانت خطة خاسرة كاسدة (٤٤) .

والويل للمغلوب ، إذ تنقلب جميع أعماله إلى سيئات ، ولا تظهر حسناته التي أبرزها الشعراء أنفسهم في حياته ، وقد تكررت ظاهرة مدح البارزين وهجائهم في الشعر العراقي الحديث ، ولا لوم على الشعراء في ذلك ؛ فهذه طبيعة الشاعر التي تهزه الأحداث فيندفع معها خاصة إذا كان الحديث يمس مصالحه الفردية ؛ كالخوف من أذى السلطان أو الرغبة في الجاه والمال ، ويظهر إبداع الشاعر متى اتصلت القضايا العامة بمصلحته الشخصية ، ويشجع الشعراء على التغلب التخلخل العام في المثل الأخلاقية ، ومتى جاءت رغبة الشاعر متسقة مع رغبات الجمهور معبرة عن أكثرية ساحقة اشتهر الشاعر وارتفع صيته .

فتح بغداد :

بعد أن حاصر الأتراك الإنكليز في الكوت ، وبعد استسلام القوات الإنكليزية للجيش العثماني تبدلت معنويات الجيش العثماني ، وارتفعت ارتفاعاً خرج عن حده ، وخاصة القائد التركي (خليل باشا) ، فعلى الرغم من

---

(٤٣) دار السلام العدد (١٨) السنة الأولى ١٩٢٨ وقد قالت المجلة في عددها العاشر المجلد الرابع سنة ١٩٢١ إن أنور باشا كان راكباً طيارة تشق به عباب الفضاء في ديار رومية فسقطت به الطيارة فمات . ولاحظ العدد الرابع من المجلد الثالث سنة ١٩٢٠ بأن طلعت وجمال ذهبا راكبين بطيارة إثر أنور فسقطت بهما الطيارة وأسرا في بولونيا .

(٤٤) البصير قصيدة عن حياة غليوم في العدد الخامس المجلد الثالث من دار السلام سنة ١٩٢٠ تطرق فيها إلى أعمال غليوم واحتلاله للدول المختلفة .

وجوده فى ساحة القتال ، وكانت قوات العدو تحتل جزءاً من العراق لم يتابع القتال لإخراجهم نهائياً منه ؛ وإنما ملأت الغبطة أعطافه وأخرجته إلى الغرور ، فرفض كل المساعدات التى كانت تريد أن تقدمها له الجهات العليا فى الآستانة معتقداً أنه سوف يدحر كل القوات الإنكليزية الجديدة التى تحاول التقدم إلى داخل العراق ، ولم يكن أنور باشا (القائد الأعلى) يطمئن إلى هذا القرار ، لذلك أكد له وجوب المساعدة إلا أنه سخر من الإنكليز واستخف بهم ، وترك الأمور تجرى دون استعداد ، أما الجيش الإنكليزى فكان يعزز قواته خلال ثلاثة أشهر بالمدد والذخيرة مستفيداً من الأغلاط التى ارتكبها فى حصار الكوت حاسباً حساباً دقيقاً لكل المفاجئات ، وعندما استكملت القوات الإنكليزية عدتها بدأت بالزحف فاندحرت القوات التركية أمامها متكبدة الخسائر الفادحة حتى اضطر خليل باشا إلى ترك بغداد ، لأنه لم يستطع الدفاع عنها فدخلها (مود) دون مقاومة فى ١١ مارت سنة ١٩١١ . ثم أخذت القوات الإنكليزية تتبع فلول الجيش التركى لإتمام احتلال العراق كله ، ولم تجد المحاولات التى بذلها خليل باشا لإيقاف الجيش الإنكليزى ، كما أن القوات التركية لم تتمكن من الوصول (٤٥) إلى العراق لإنجاده (٤٦) وبعد احتلال بغداد توفى الجنرال مود (٤٧) فأخذ القيادة القائد مارشال ، وأخذ يتقدم حتى أعلنت الهدنة ، وكانت الموصل تحت سيطرة الجيش التركى .

هذا موجز سريع لحركات الجيش الإنكليزى فى العراق ، وسنرى أثرها واضحاً فى الشعر العراقى الحديث ؛ فمن أهم آثارها بعد حصار الكوت ،

---

(٤٥) ألف الأتراك جيشاً أسموه جيش الصاعقة لاسترجاع بغداد . وكان يؤمل أن يكون أحد قواده مصطفى كمال باشا وأن تكون القيادة لجنرال ألمانى أعطيت له رتبة (مشير) . مذكرات العسكرى ص ١٦٨ كما يلاحظ ١٥٤ — ١٥٧ ولاحظ بهذا الشأن الفصل ٣٧ مجلد ٤ ص ٩ من

The Campaign in Mesopotamia 1914-1918.

(٤٦)

Loyalties Mesopotamia p. 228 Vol .1.

ويلاحظ الجزء ١٥ من المعلمة البريطانية ص (١٠١) ولعله خير مرجع للحرب فى العراق .

Mesopotamia Campaign 1914-1918 p. p. 212-250 Vol. 3.

(٤٧) يلاحظ ويلسون ص ٢٦٠ — ٢٦٤ ويلاحظ ٢٧٥ ما أشار إليه المؤلف .

كان فتح بغداد ، فقد وقف الشعراء من احتلال بغداد مواقف مختلفة ، فمنهم من ندب الأتراك ، وبكى أمامهم ، وآلمه فراقهم ، مدفوعين بدافع الدين والوفاء العربي الإسلامي ، وقسم آخر من الشعراء أذهله هذا الفتح فحار في أمره ، فلم ينظم شيئاً من الشعر ، أي أنه وقف موقف المحايد ، ولعله خشي عودة الأتراك ، أو أن الاحتلال الإنكليزي لم يكن مرغوباً فيه لأنه احتلال أجنبي ، ولأنه مستعمر لا تربطه أية رابطة بالعراقيين ، دخل البلاد بالحديد والنار والدم ، وقلب الحياة العامة رأساً على عقب ، وقد وصف بعض هؤلاء الشعراء العراق وما حاق به ، وبغداد وسقوطها بصورة خاصة ، ومنهم من هاجم الأتراك مهاجمة عنيفة ، وسخر من قواتهم ، ومن هزيمتهم من بغداد وتبعثر جيوشهم .

ومما يؤسف له أن كثيراً من شعر هذه الفترة قد ضاع أو أتلف عمداً ، ولكن الأثر الباقي يعطينا صورة واضحة عن حالة الاضطراب والحيرة والقلق النفسي لشعراء هذه الفترة كما عكست لنا النفسية البشرية ، في وفائها وتملقها ونفاقها وخضوعها للقوة ومداهنتها للمستعمر البغيض ، متناسية كيف كانت بالأمس تسبح بحمد الأتراك ، وتلعن الإنكليز على محاولتهم احتلال العراق .

وقد مثل الرصافي الوفاء الإسلامي نحو إخوانه العثمانيين المسلمين ، ولم يتلف قصيدته أو يحذفها من الديوان مع أنه لم يسمح بنشر قصائد له في الديوان سبق أن نشرت أو نظمت في مناسبات مختلفة ، ورجا الأستاذ مصطفى على أن يدونها في الديوان الذي طبع في بيروت ، فأعطانا الرصافي مثلاً في الوفاء والشجاعة ، فلم يجبن عن نشر قصيدته في ديوانه خشية أن يعاقب من الحاكمين ، أو أنه كان يطمع في عمل يتزلف به لهم .

وقصيدة الرصافي ، نظمها يرد بها على سليمان نظيف الذي كان والياً في العراق وقد أحبه العراق لأنه قضى جزءاً من حياته فيه ، وقد لام العراقيين لأنهم لم يساعدوا الجيش العثماني في الدفاع عن العراق ، فأجابه الرصافي على لسان دجلة قائلاً :

هي عيني ودمعها نضاح كل حزن لمائها يمتاح
كيف لا أذرف الدموع وعزى بيد الذل هالك ممتاح

وقد ألقى تبعة ترك بغداد على الأتراك الذين تركوها بيد العدو ، وخرجوا بسرعة ، وفي هذا إشارة لطيفة مؤدبة من الشاعر الرصافي على عدم استبسال الأتراك في الدفاع عن العراق فقال :

أين أهل الحفاظ هل تركوني نهبة ، في يد العدو وراحوا
برحوا وادى السلام عجالاً أفجد براحهم أو مزاح
مالهم يبعدون عني انتزاحاً وعزيز منهم على انتزاح

ثم يصور الرصافي ألم دجلة لفراق الدولة العثمانية ، وكيف يتنهد هذا النهر ألماً وحسرة لهذا الفراق ، وكيف تنساب دموعه غزاراً فقال :

فمياهي هي انسكاب دموعي وخريري هو البكا والنواح
أو ما تبصر اضطرابي إذا ما خفقت في جوانبي الأرواح
ليس ذا الموج فيّ موجاً ولكن هو مني تنهد وصياح

ويختم قصيدته ببيتين جميلين فيهما النجوى والحنين إلى الأتراك بقوله :

أنا باق على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو بلغيهم شكايتي يا رياح (٤٨)

أما الموالون للسلطات المحتلة ، فلم يكن ليجرؤ أحدهم على نشر اسمه الصريح في الجريدة التي أنشئت في بغداد لنشر الدعوة لهم والتغني بأمجادهم ، ففي عددها الأول زعمت أن إنكلترا محررة العرب (٤٩) بل كانوا ينشرون قصائدهم بتواقيع مستعارة ليتستروا على السر في ركب الاستعمار الجديد خوفاً من القول بأنهم موالون للمستعمرين ، وأنهم خونة يمجدون الاستعمار والاحتلال الأجنبي ، وقد تجرأ الزهاوي وحده على نشر اسمه صريحاً ، إذ أراد أن يرد الأمن لقلبه ، والطمأنينة إلى روحه ، بعد أن هجاهم بقصيدة

(٤٨) الديوان ص ٤١٠ .
(٤٩) عددها الأول الصادر في ٤ تموز ١٩١٧ .

زمن العثمانيين ، فأراد أن يكفر عن سيئته لكنه أمعن فى إذلال نفسه فى امتداحهم والتقرب إليهم .

وقد نشرت قصيدة بتوقيع « ابن ماء السماء » نظمت إثر سقوط بغداد بيد الإنكليز ، حاول الشاعر أن يكون مؤرخاً ومصوراً ؛ فقد وصف ساعات الاضطراب والفوضى التى حلت ببغداد بعد انسحاب الأتراك ناعياً عليهم أيام حكمهم فقال :

ما بال بغداد قد ضاقت بها الحالُ ... وخف بالأهل منها اليوم ترحـال
بالأمس كانت بقايا الجند رابضـة ... فيها وللناس أشغال وأعمـال
وكان للترك فوضى من تجبرهـم ... واليوم للترك لا قيل ولا قـال
كانت بها غرفات الظلم شامخـة ... ما أصبح الصبح إلا وهى أطلال

وقد وصف الشاعر ليلة سقوط بغداد وما اعترى الناس من خوف وهلع ومشاركة الطبيعة فى زيادة هذا الخوف بهبوب عاصفة ترابية ، ووصف اللصوص وهم ينهبون ويسلبون ، وقد تفردت القصيدة بناحية طريفة هى تصويرها النفسى لمشاعر الناس الخائفين واضطرابهم ، بعد أن فقد الأمن والنظام فى البلدة ، ورسم الحيرة التى كانت تعلو وجوه الناس فى هذه الليلة ؛ فهم لايعرفون أين يذهبون وأين سيكون الملجأ ، بعد أن خرج الأتراك من بغداد ، واعتزم الإنكليز دخولها ، وهم كافرون مستعمرون ، أسيأمنون على أرواحهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم !؟ . هل سيفتك بهم هذا الجيش الداخل بلدهم ؟. فالهروب من الموت والخوف على الأطفال والجزع من الفضيحة ، كلها أمور أخذت تنتاب هذا الشعب الذى ابتلى بالاستعمار . وساعد على هذا الهلع جماعة من أبنائه الذين اغتنموا هذه الفرص لإشباع رغباتهم فى السلب والنهب فقال :

ليل السقوط بدا بالنحس طالعـه ... تصادمت فيه بالأهـوال أهـوال
ريحٌ ورعد وبرق واصطدام وغى ... كأنما ازدحمت فى الأفق آجال
للسلب والنهب بين الناس معترك ... لكن قتلاهمُ فى السوق أمـوال

من فوقهم صاعقات الحرب نازلــة   وهــد بنيانهم من تحت زلزال
وللمدافع رعد فى سمائهــــــــمُ   تكاد منــه عقــود النجم تنثال
وللرصاص صفــير فى مسامعهم   وللخيالات فى الأفكار أشغــال
وللرجال من الإرهاب زمجـــرة   وللنساء ابتهــالات وإعـــوال

وقد ظهرت الصور الإنسانية والعواطف المضطربة ، فى وصف الشاعر لسيدة تقود طفلها وهى تركض فى الشوارع حيرى ، تبحث عن ملجأ تقر فيه ، وتسكن إليه ، وهى وحيدة ليس لها من تلوذ به ، فأخذ يواسيها فى محنتها وبلواها لأن الجميع مشغولون بأنفسهم يريدون الفرار بأنفسهم وبأرواحهم راكضين ذاهلين بلا وعى ولا شعور ولا إرادة ، لأن نيران الحرائق التى تلتهم الأبنية والبيوت تزيد فى الهلع والخوف فقال :

لاحت لى امرأة فى السوق ماشيــة   ودمعها فوق صحن الخد هطال
تقود طفلاً صغيراً وهى صارخة   رحماك رباه قد ضاقت بى الحال
وقد غدوت عن الدنيـــا مجـــردة   لا والد لى ولا عم ولا خـــــال
ولا شقيق ولا زوج ولا صلــــة   ترجى ولا لى بهـــا دار ولا مال

ثم يحدثها الشاعر ويسليها ويعزيها ويبشرها بتحرر العرب من الأسر التركى ونيلهم مطالبهم ، لأن الإنكليز يعرفون للعرب حقوقهم ، لأنهم يحترمون أصدقاءهم ، ويبدو أثر الافتعال على القصيدة والتظاهر بالقوة والرجولة ، فبعد أن وصف البناء ليلة سقوط بغداد ، وشغل الناس بأنفسهم ، أراد إثارة العاطفة الإنسانية فى النفوس ، فوفق إلى هذا لكنه هبط هبوطاً واضحاً عندما أدعى أنه وقف وأخذ يحادثها ويبعث الثقة فى نفسها ، ولو قال إنه أخذ يركض معها لينقذها من النيران ومن القنابل ومن أرجل الهاربين لكان فى ذلك بعض الصدق وكان تمثيلاً للواقع إذ أن موقف الرعب الذى وصفه فى مطلع قصيدته لايتفق وهذا المشهد لأن الإنسان عند اندلاع النيران ومهاجمة الموت لا يقف ويتحدث ، وإنما يتبع عقله اللاواعى فيركض لينجو بنفسه من الموت ، بيد أن البناء جانبه الواقع ولم يقدر

آن يلائم بين أجزاء القصيدة وقد جره إلى ذلك رغبته في التخلص إلى مدح الإنكليز حينما سارع إلى التزلف إليهم وإسباغ الثناء عليهم قبل أن يثق بهم ويجربهم . فقد نشر قصيدته في جريدتهم بتوقيع مستعار ، وأراد أن يمتدح العرب فأساء إليهم لأنه قال : إن إسارهم فك ببعد الأتراك عن العراق ، وأن العرب قد حصلوا على مطالبهم بفضل الإنكليز ، ومساعدتهم للعرب ، كما شوه الصورة الإنسانية التي رسمها للسيدة ولطفلها لأنه حشر مدح الإنكليز حشراً فقال :

ألست من أمة العرب الألى نجحوا وفك عنهم ببعد الترك أغلال

فأبشرى أنهم نالـــوا مطالبهم بفضل قوم لهم فضل وأفضال

الإنكليز همُ ما خاب صاحبهـــم ولا هم بحقوق العـــرب جهال

ثم يصف الشاعر هزيمة الأتراك إلى جبل حمرين ، وفضل هذا الجبل عليهم إذ لولاه لأفنى الإنكليز جمعهم وأبادوهم ، ثم يهاجم الأتراك الذين جحدوا النعمة وابتعدوا عن الهدى راكنين إلى الظلام مبتعدين عن الحق فقال :

الترك قد تركوا بغداد وانهزمـــوا من بعد حرب لها قد شيب أطفال

ثم يقول :

لولا الموانع من « حمرين » تمنعهم لم يبق منهم بهذا القطـــر خيّال

أهالهم موقف ضاق الزمان بـــه ذرعاً وليس له في الدهر أمثال

لأنهم جحدوا النعمى وما شكـــروا وعن طريق الهدى في غيهم مالوا

عالوا على العرب في تبعيدهم فغدوا كأنهم فوق رعن الطود أوعال

أسلوب الشاعر ليس من الأساليب العالية ولا شعره من المتانة ما يصل به إلى الشعر المقبول ؛ وإنما نستشهد به لأنه سجل لنا هذه الفترة تسجيلاً واضحاً (٥٠) وقد تطرق في القصيدة إلى حوادث معينة مثل نسف باب

---

(٥٠) جريدة العرب الأعداد ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، من شهر أيلول ١٩١٧ م وقد نشرتها الجريدة في الصفحات الأولى وأعيد نشرها مع بعض التغيير في (ذكرى استقلال العراق) ص ٦٣ – ص ٦٨ المطبوع في بغداد ١٩٢٧ م .

الطلسم — أحد أبواب بغداد القديمة — إذ اتخذ مخزناً للبارود فلما أراد الإنكليز دخول بغداد نسفه الأتراك قبل الانسحاب منها ، وتحدث عن تاريخ بناء الباب الذى كان جزءاً من سور بغداد ، فهاجم الأتراك الذين نسفوا هذا البناء التاريخى .

ومن القصائد التى نشرت فى جريدة العرب قصيدة ابن الفراتين التى وصف فيها رحى المعركة التى دارت بين الأتراك والإنكليز ، والتى أدت إلى استعمال السلاح الأبيض ، والقصيدة بعيدة عن روح الحقيقة ولم تدر مثل هذه المعركة بين الإنكليز والأتراك؛ إنما أخلاها الأتراك دون مقاومة(٥١) ولكنه شاء أن يحلق بخياله الشعرى فاختلق هذه المعركة ، وتصح القصيدة أن تكون لمعركة من معارك الحرب العظمى ؛ فقد حدثت مثل هذه الالتحامات بين الجيوش ، ولعله أراد رسم صورة لإحدى هذه المعارك ، أو أنه وصف معركة رآها بنفسه ، وبقى أثرها فى اللاشعور ، وظهرت بهذه المناسبة مع إضافة شيء يناسب الحادثة التى حدثت فى بغداد ، أو أنه نظم القصيدة قبل سقوط بغداد فليس فى القصيدة من حادث معين يشير إلى سقوط بغداد سوى العنوان وهى تصلح أن تكون لأى معركة قال :

تقلصت شوكة الأتراك فى أفق ... دامى الذبول صريع الرجم ملتهب
تضمه الزعزع النكباء مشفقة ... تكاد تخطفه من موقف العطب
وعندما اتصل الجيشان والتحما ... بكل أشعث خواض الوغى دربه

ثم وصف المعركة المستعرة بقوله :

وأوغل الطعن فى جذر النفوس وقد ... تسعرت ناره فى النبع والغرب
واصفر ثم أكف البهم صائلة ... واحمرحدالسلاح الأبيض الذرب(٥٢)

ويتحدث عن انسحاب الأتراك بعد أن حامت الطيارات فوق جيوشهم مضطرين متقهقرين ، ثم يدخل الموضوع بعد جولة طويلة ويصف نسف بابه

(٥١) العسكرى فى مذكراته ص ١٥٠ — ١٥١ .
(٥٢) جريدة العرب العدد ١١ ، وفى العدد ١٠ ما يؤيد بأن القصيدة نظمت لغير هذه المناسبة وقد تحدث فيها عن مشانق الشام ومن شنق من أحرار العرب .

بغداد ، وأثر النسف فى الناس ، وما حاق بهم ووصف اللصوص وهم يسرقون وينهبون ويهرولون نحو السوق يحدوهم الجشع والطمع والشراهة فقال :

فأضرموا النار فى بغداد من حنـق ... كأن بغداد ردتهم على العقـب
وفرقوا مؤناً للحرب فانفجـرت ... تواصل النسف فى الأبراج والقبب
فهزت الأرض زلزالاً صواعقها ... كأنما الأرض مهد الخطب والغضب
فالناس أمسوا سكارى حيث ليس لهم ... إلا الجنون وليس العقل من زقب
خارت قوى الحس فيهم حيث لم يجدوا ... لا للحياة ولا للموت من سرب (٥٣)

ولم يكتف الشاعر بمهاجمة الأتراك وتعنيفهم ، بل أخذ يتهمهم بالكفر والشرك ويعيرهم بأجدادهم الذين يعبدون الثور ، ويذكر ما صنعه المغول وجنكيز خان من الفضائح مذكراً الأتراك بدعوتهم الطورانية التى مزقت المسلمين شر ممزق ففقدوا عطف الأمم الإسلامية والعربية معاً ، وقال متهكماً :

رب المغول هو الثور الذى انتظمت ... جماجم الصيد قهـراً منه باللبب
أيديه تربو على العشرين حاملـة ... أعضـاء إنسان أو آلات محترب
هو الذى أرشد الأتراك منظره الـ ... قاسى الأليم إلى التدمير والحرب
أحرقتم الحرث والنسل ابتغاء هوى ... ورحمة منه فوزوا اليوم بالأرب (٥٤)

قد يقف الباحث فى حيرة من حالة الشعراء ، ويتساءل متعجباً عن سبب هذا التقلب من مدح الأتراك إلى هجائهم . فلو أخذنا « صدى الإسلام » وجريدة « العرب » لوجدنا شيئين متناقضين ؛ فقد مجد الشعراء رجال الدولة العثمانية وأعمالها فى العراق ونظروا إليهم نظرة الأخ لأخيه ، ثم انقلب هؤلاء الشعراء إلى هجوهم وحربهم ولصق كل تهمة بهم وكل بلية جاءت

---

(٥٣) جريدة العرب العدد ١٥ السنة الأولى ، والعدد ٢٠ سنة ١٩١٧ م ذكر لهروبهم إلى سامراء .

(٥٤) جريدة العرب العدد ٢٠ السنة الأولى ١٩١٧ والقصيدة تقليد فاشل لقصيدة أبى تمام المشهورة :

السيف أصدق أنبـاء من الكتـب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

العراق ؛ فاتهموا بالهزيمة طوراً وبالكفر والشرك مرة وتنصلوا عن أخطائهم وصلاتهم بهم آونة أخرى . وليس هناك أى تناقض فى الأمر ، إنما هى حقيقة النفس الإنسانية فى أجلى صورها ؛ فقد كان العصر عصر اضطراب وبلبلة فكرية وقلق نفسى من جراء الحرب أعقبها انتصار جيش على جيش وهزيمته .

والمنتصر الذى يريد أن يطمس ما للناس من فضائل وميزات ، ويريد أن يكون هو وحده صاحب كل فضيلة أو رأس كل خير ، وأن عهده هو عهد الرخاء وعهد الأمن ، وعهد الهناء والعيش الرغيد ، ويصم العهد السابق بأنه عهد الجوع والاستبداد والظلم والطغيان لكى يثبت أركان ملكه وحكمه ، والحقيقة أن ليس هناك من فرق من حيث الاستعمار فهو احتلال فى جميع صوره .

إن كثيراً من الذين مدحوا الأتراك ، وساروا معهم شوطاً بعيداً ، كانت تدفعهم الحمية الإسلامية والحمية العربية ، دفاعاً عن أوطانهم ضد الاستعمار الإنكليزى الجديد ، ومنهم جماعة كانت مخلصة كل الإخلاص لدينها وعقيدتها ، فقد اشتركوا بأنفسهم فى حرب الإنكليز ومات الحبوبى كمداً لما خسرت الجيوش التركية الحرب ، واحتل الإنكليز جزءاً من العراق(٥٥) .

وقد ثبت منهم فى عقيدتهم فى تفضيل الحاكم المسلم على غيره ، إذا كان هناك تفضيل بين احتلالين ، وقد نشروا قصائدهم بتوقيعات صريحة ، فما يجد الباحث قصيدة نشرت إلا باسم صاحبها لأن العمل فى سبيل نصرة دينه جهاد ؛ أما الذين مدحوا الإنكليز فقد كانوا خائفين وجلين مضطربين ، صوروا الحالة النفسية المضطربة التى تعقب الحروب ورسموا لنا المثل العليا والأهداف الاجتماعية السامية التى تختلف باختلاف الحاكم . واضطراب هذه المثل شىء حتمى فى مثل هذه الظروف والتقاليد ، والمثل صورة صادقة لكل مجتمع . تعكس التيارات الفكرية والنفسية فهو الذى يصنعها وهو الذى يفرضها ويحميها ، ومن المثل العليا التى سادت هذا العصر

(٥٥) ديوان الشبيبى ص ١٨٥ .

الامتناع عن الاتصال بالإنكليز ، واعتبار كل مادح لهم من المشركين والكافرين لذلك اختفى المادحون وراء أسماء مستعارة تخلصاً مما يصبه عليهم المجتمع من نقمة ، والسبب واضح لأن الإنكليز يختلفون عن العراقيين فى الدين والتاريخ والدم والعادات ، وليست هناك أية رابطة تربطهم معاً سوى الاستعمار والقوة والحديد . وهناك سبب آخر منع العراقيين من مدح الإنكليز هو الخوف من عودة الأتراك والتنكيل بهم كما صنعوا بعد حصار الكوت ، فقد نكلوا بالذين تعاونوا مع الجيش البريطانى .

وملاحظة جديرة بالاهتمام أن شعر الذين مدحوا الإنكليز لا يرقى إلى مستوى الطبقة الأولى من الشعر العراقى ؛ فقد كان مبعث النظم الخوف من المستعمر أو الرغبة فى الأموال السخية التى كان يصرفها لكتاب جريدته .

والانتهازيون فى كل عصر وفى كل زمان يحتفلون بالقادم الجديد ويمجدونه حباً فى مناصبه وماله ، ولا يهمهم غير أنفسهم وجيوبهم .

— ٣ —

الاحتلال البريطاني

بعد أن أعلنت الهدنة ، وبدأ الاستعمار الغربي يقسم البلاد العربية ، شعر العراقيون بثقل وطأة الاحتلال الإنكليزي ، وبدأت الدعاية في تمجيد الحاكم الإنكليزي في العراق ، وذم العهد التركي . واتهمت جريدة العرب التي كان يصدرها الاحتلال ، ويشرف عليها الأب أنستاس الكرملي ، إسهاماً فعالاً في هذا الميدان ، ففي عددها الأول نجد الدعاية الواضحة في كل ما نشرت ؛ فقد نشرت نداء الجنرال « مود » الذي يقول فيه : « إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء ؛ بل بمنزلة محررين ؛ فقد خضع مواطنوكم — منذ أيام هولاكو — لمظالم الغرباء فتخربت قصوركم ، وتجردت حدائقكم ، وأنت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق . لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم تنشدوها ، وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شاسعة (١) » ومنّى العرب بالحرية والاستقلال ، بعد أن آذاهم « الظلمة الغرباء » . وتحدثت الجريدة في أعداد أخرى عن فظائع الأتراك الاتحاديين في بلاد العرب مثل « انحطاط الأمة العربية في عهدهم » و« ما قاساه العرب من الترك في بغداد » وغير ذلك مما تطفح به صفحات هذه الجريدة .

وقد تمكن المحتلون من إغراء جماعة من الشعراء بالسير معهم ، وبذلك انقسم الشعراء إلى قسمين متضادين : القسم الأول : الذي لا يرى فرقاً بين محتل ومحتل آخر ؛ فالاستعمار هو الاستعمار ، سواء أكان تركياً أو إنكليزياً ، جاء لامتصاص ثروات البلاد واستغلالها ، وهم مستعمرون يجب

(١) نشر النص الإنكليزي في ص ٢٣٧ وبعدها من كتاب ولسن ج ١ .

أن يحاربوا دون هوادة ، ولم تكن البلاد قادرة فى هذا الظرف ، فيجب مقاطعة المحتلين ، وعدم الاتصال بهم ، وهذا القسم هو الذى أوقد نار الحرب على الاستعمار البريطانى ، وزودها بالوقود لحرقه ، وسنرى ذلك فى فصل الثورة العراقية .

أما القسم الثانى ؛ فقد رأى الإنكليز خيراً من الأتراك ، لأن شعراءه انتفعوا بهذا الاحتلال ، وحصلوا على مكاسب لم يحصلوا عليها فى العهد التركى ، أو أنهم طمعوا فيما بذل الإنكليز من الأموال ، فأرادوا أن يتقربوا إليهم زلفى ، وهم شأن الشعراء الذين هاجموا العهد التركى بأن نشروا قصائدهم بأسماء مستعارة ، خوفاً من الرأى العام ، وهم مع ذلك نفر محدود العدد . لكن الزهاوى كان أجرأ الشعراء فى تحدى الشعور العام ؛ فقد استمات فى الدفاع عنهم وعن أعمالهم ، فأحبوه وقربوه حتى إن « مس بل » كانت تسميه « شاعرنا » عندما تريد أن تذكر اسمه . ومن قصائده التى نشرتها جريدة العرب قوله :

وجدت الإنكليز أولى احتشام ... أباة الضيم حفاظ الذمام
فصادقهم تجد أخلاق صدق ... لهم والصدق من شيم الكرام
إذا بهم احتمى المذعور يوماً ... رأى منهم له أقوى محام
وبات على فراش الأمس خلواً ... ونامت عينه أهنا منام

ويبرر سبب حبه للإنكليز بعدلهم ودكهم صروح الظلم ، وسياستهم الحكيمة التى تذلل كل الصعوبات ، فيقول :

أحب الإنكليز وأصطفيهم ... لمرضىّ الإخاء من الأنام
جلوا فى الملك ظلمة كل ظلم ... بعدل ضاء كالبدر التمام
ودكوا بالسياسة كل صعب ... وخاضوا بحره والبحر طامى

ثم يصف الأسطول الإنكليزى وقوته فى البحار ، وتحطيمه أساطيل الأعداء ، وأن جيشهم قاهر منتصر لا يمكن لجيوش العالم أن تغلبه ؛ لأنه جيش لا يكترث بالموت ، وتساوت لديه الحياة والموت ، ثم يهاجم

الأتراك ، ويصفهم باللؤم والغدر ، وأنهم أذاقوا العرب الذل والهوان ، بقوله :

وأنت تسومك الأتراك خسفاً وتسلب من حقوقك باهتضام
ووال الإنكليز رجال عدل وصدق فى الفعال وفى الكلام (٢)

ولم تكن هذه المرة الأولى والأخيرة التى مدح الزهاوى فيها الإنكليز ؛ فقد مدحهم بعد ذلك وهجا العراقيين فى الثورة العراقية ، وسخر منهم سخرية لاذعة ، وخطب محرضاً « برسى كوكس » على إعادة الأمن إلى نصابه ، وطلب الدواء للعراق المريض ، والقصيدة كان قد نشرها قبل دخول الإنكليز العراق فى ديوانه « الكلم المنظوم » ولم يكن عليه ضير لو تركها أو أعادها مرة أخرى دون تحريف ، ولكنه حرف بعض أبياتها وذكر الأتراك فيها صراحة ، ونشرها فى جريدة العرب ، جريدة الاحتلال الإنكليزى ، فأثبت شدة تملقه للإنكليز ، ولم يكتف بهذه القصيدة ؛ وإنما كان يظهر تعلقه بهم ، وصداقته لهم فى كل مناسبة ممكنة ، فانضم إلى حزب النقيب « الحزب الحر » الذى يؤيد سياستهم فى الاحتلال ، الحزب الذى وقف الرصافى منه موقفاً حازماً وهجاه بأقذع وأمر هجاء .

إن نفسية الزهاوى القلقة الخائفة هى التى ألجأته إلى التمرغ على أعتاب المحتلين بعد أن كان عزيزاً محترماً نال أرفع المناصب فى العهد التركى (٣) ، وكان من الوفاء أن يسكت ، أو يمدح الإنكليز ، دون أن يسب أو يتعرض للمناوئين وذلك أضعف الإيمان ، والمؤمل أن يكون شاعراً ثائراً على هذا الاحتلال الذى أهان بلده ووطنه أسوة بزملائه الشعراء الذين ناضلوا ، وبقى منهم من يناضل حتى النفس الأخير ، صابراً على الأذى فى سبيل حرية شعبه وكرامته .

وللزهاوى قصيدة أخرى يصف فيها حسنات الإنكليز ، يدعو فيها صراحة إلى الاستعمار البريطانى وتأييده ، قال فيها :

---

(٢) جريدة العرب العدد ١٥-٢-١٩١٨ ولاحظ الكلم المنظوم ص ١٤ .

(٣) بعد أن فشل الزهاوى فى الحصول على ما يريد ، ندب العهد التركى بقوله :

أين عزى فى دولة الأتراك أنا باك مما به أنا باكى

علينا بفضل الله ظلّ حكومـــة   أتت بهدى فى العلم أبيض ناصع
لقد حررتنا من مظالم جمـــة   بحد المواضى المرهفات القواطع (٤)

وأطرف قصيدة هى قصيدة « ابن السليقة » فقد مدح فيها ملك الإنكليز ، الملك الذى انتصر فى الحرب ، وتبدو طرافتها فى الروح البدوية والعقلية الساذجة التى يمدح بها الملك جورج ، فقد تصور الملك جورج ملكاً يبعث اسمه الرهبة فى القلوب ، وتود عيون الملوك أن تكتحل بتراب أقدامه ، ويتصور الشاعر نفسه راكباً ناقة ذاهباً بها إلى لندن ، لينزل برحلة بباب الملك ، فقال :

دعائى وحمدى ومدحى اتصـــل   لسلطاننا وعميـــد الـــدول
هو الملك المرتقى فى عـــلاه   مراقىَ ينحط عنهـــا زحـــل

وقال :

وإن السلاطين دانـــوا لـــه   وباتوا به يضربـــون المثـــل
وإن ذكروا اسمه بينهـــــم   لهيبته يعتريهـــا الوجـــل

ومنها :

فيا راكباً ظهـــر مـــرقالـــة   يجـــوب الحزون بهـــا والسهل
ينـــادم نجم السما فى ســـراه   ويهوى بواد ويعلو جبـــل
أنخها « بلندن » عنـــد المليك   وقبل الأعتـــاب ذاك المحـــل

« كذا » .

وقد نشرت جريدة دار السلام قصيدة لا تختلف عن غيرها من شعر هذه الفترة إلا بالتكلف المرذول الذى تكلفه (المعلم داود صليوا) فى مدح الجيش الإنكليزى بجعل كلمة « الخال » قافية لجميع القصيدة ، ولم تخف المجلة هذا الشعور فقالت « أدرجنا هذه القصيدة على علاتها مراعاة لصاحبها » ، وفيها مدح لإنكلترا التى أذلت الرءوس ودان لها السلاطين . وفى القصيدة

(٤) جريدة العرب ١٧١-٣-١٩١٨ .

ذكر لحضارتها وسياستها للرعية التى محت الظلم والاستبداد وحررت العرب ، وكستهم المجد ، إلى آخر ذلك ومطلعها :

بخال فتاة الخال اشغفنى الخـــال فلا ثم عم يا أميمة أو خال (٥)

وقد مدح الشيخ عبد الحسين الحويزى (٦) الإنكليز ، والطريف أنه احتفظ بهذه القصيدة بعد مرور وقت طويل ، فقد كتبت إليه أن يرسل إلى بشىء من شعره السياسى فكانت هذه القصيدة ضمن ما أرسل به إلى ، والقصيدة طويلة اتخذ فيها موت الملكة فكتوريا واسطة لمدح الدولة الإنكليزية، فرأى فيها كل المحاسن والمكارم السامية عدلاً ورحمة وفخراً لخصها بقوله :

وحويت فى الدنيا مكارم جمـــة طلعت بدوراً تزدهى وشموساً

ثم يسهب فى وصف هذه المكارم من قوة ورهبة وسطوة وعدل ساد الرعية ، وأفرط إفراطاً ممجوجاً فى المبالغة ، فهو لا يختلف بأى حال من الأحوال عن شعراء القرن التاسع عشر ؛ فقد جعل الشمس حاجباً لها ، والقمر جليساً لها ، ثم امتدح ولدها الذى خلفها بقوله :

للدولة العليـــاء شبلاً أعقبـــــت حفظت قريحة فكره القاموسا
ملك رعيته إذا ذكروا اسمـــــه ضربت لمثل جلاله الناقوسا (٧)

وقد انصب بعض المديح على الجنرال ستانلى مود (٨) الذى منى العراقيين فى منشوره بالحرية والاستقلال ، وتحريرهم من الاستعمار بإقامة حكم وطنى فى البلاد ، وقد أصيب القائد الإنكليزى بالهيضة فمات ودفن فى بغداد (٩) ، وقد أسف على موته ، وظن بعضهم إنما قتل لأنه وعد العراقيين وعوداً خلابة ، لذلك تسابق نفر من الشعراء إلى مدحه ، وظفر بما لم يظفر به إنكليزى من عطف القوم ورثائهم ؛ فمن الذين رثوه شاعر سمى نفسه « ابن الرثاء » :

---

(٥) دار السلام العدد ٣-٢-١٩١٩ .

(٦) يبلغ من العمر الثامنة والثمانين « سنة ١٩٥٤ » وشعره لايسمو إلى مرتبة القريض .

(٧) القصيدة بخط يده ، وعليها آثار رعشة العمر ، فى مكتبتى الخاصة .

(٨) حاول الوطنيون عدة مرات اقتلاع تمثاله المقام أمام السفارة البريطانية فى الكرخ .

(٩) لاحظ جريدة العرب العدد ٩٦-١-١٩١٧ ترجمة حياته ودفنه .

لله أيّ مصـــاب فادح عظمـا | أورى بقلب المعالى زنده ضرما
خطب ألمّ فأشجى المكرمات وقد | فاضت لفجعته عين الفخار دما
أودى الحمام بمود باســل فغــدا | شمل العلا بدداً إذ كان منتظمـا
قد مات بحر الندى والمكرمات وكم | قد فاض زاخره بالجود ملتطما(١٠)

وقد عنيت الجريدة بقصائد الرثاء التى نظمها الشعراء فى « مود » ، ونشرت بعضها فى افتتاحية لجريدة العرب ؛ فقد رثاه ابن العراقين ، وابن السيارة ، وابن قفطان (١١) ، وغيرهم . . ويقتضى الاستطراد أن أقول : إن إقامة تمثال « مود » آلم الوطنيين أشد ألم لأنه تمثال يمثل العبودية ، وقد سخر الشيخ على الشرقى قائلاً :

كل رجــال لعبت دورهـــا | وما وجدنا فى السويدا رجال
قد خذلت بغداد منصـــورها | وأنهضوا فيها « لمود مثال »
فى كل يوم بهرجت دورهـــا | لأمــة من أمم الاحتــــلال
بالله يا من سبروا غـــــورها | ماذا وجدتم أمة أم خيال (١٢)

---

(١٠) العرب : العدد ١١١–١–١٩١٧ .

(١١) العرب : الأعداد ١٠٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

(١٢) ديوان على الشرقى ص ٩٤ ، بقى التمثال شامخاً فى جانب الكرخ يمثل الاستعمار الجاثم على صدر العراق ، وقد جرت محاولات لقلعه ولم تنجح هذه المحاولة إلا فى الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ وقد أشارت الكاتبة الإنكليزية « دورين وارنر » إلى رموز الإقطاع والاستعمار والملكية فى كتابها المطبوع فى لندن سنة ١٩٥٧ :

Land Reform and Development in the Middle East.

— ٤ —

الحرب والسلم

تردد ذكر السلام والحرب كثيراً فى الشعر العربى ، ولعل زهير بن أبى سلمى أول من نظم فى استهجان الحروب وذمها ، فقد وقف موقفاً كريماً سجل فيه مشاعر الإنسانية وبغضها للحروب ، وما تجره من ويلات ومصائب ، فى قصيدة طويلة منها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم   وما هو عنها بالحديث المرجّم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة   وتضر إذا ضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحا بثفالها   وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم (١)

ولا يكاد يخلو أدب أمة من وصف للحروب وويلاتها ، ونجد فى كل عصر من العصور من يذم الحروب ويمجد السلام ؛ لأن الإنتاج المبدع المنظم لا يكون فى ظل الحروب .

وتصاحب الدعوة إلى الحرب دعوة إلى السلام لأن الإنسان تهزه مصائب الحروب ، وتوجعه ويلات البشر ، التى توقف الحياة عن عملية الإنتاج وتجر إلى الحرمان والتقشف والجوع وفتك الأمراض ، وتشريد الأطفال والنساء ، وازدياد المآسى والأحزان .

لذلك فالشعر خلال الحرب تسوده روح التشاؤم ، ويطفح بالحزن والألم الشديد ، مهما كانت دوافع الحروب ، ومهما يسبغ عليها مثيروها من نعوت وألقاب ، فالهنداوى يعرف أن الحرب أثيرت ضد العدو الذى جاء

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى — لثعلب — ص ١٨ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ .

يستعمر بلده ، واضطر للحرب والقتال ليدافع عن وطنه ويثأر لكرامته وعزته ، ولكنه رآها ضرورة بغيضة ، فهو يدعو إلى الحروب مضطراً لأنها جهاد فيقول :

وإذا لم يكن من الحرب بـــد ... فلنثرها حرباً تشيب الوليدا
ولنمت فى الدفاع عن حرم الحـ ... ـق فقد بات وهو يشكو الجمودا
أين قومى وهل ترى غير قـومى ... أمة تصدع الصفـا والحديدا
إن قومى أبنـاء قحطان حازوا ... طارف المجد والعـلاء التليدا
شهد السيف أنهم أمـة الحـر ... ب إذا هزت الكماة البنودا
وكفى بالحسـام وهـو أخو صد ... ق على البأس للرجال شهيدا

ولكنه يضطر إلى إثارة الحروب التى كانت شراً لابد من دخولها ، فيصف مساوبها التى حاقت بالبشر فقال :

شرر طبـق البحـار هبوطاً ... واعتلى قارب الوهاد صعـودا
أحـرق المـال والنفوس وأبقى ... لا نباتاً يبقى ولا جلمـودا
عم وجـه الصعيد قطراً فأمسى ... كل شىء على الصعيد وقودا

وصور مبلغ ألم الشاعر من الحروب ، وحملته العنيفة على العلوم التى خلقت هذه الآلات التى تفتك بالبشر فتكاً ذريعاً ، بينما خلقت العلوم لإسعاد البشرية لا استغلالها فى الشر والفتك بأخيه الإنسان ، ولما رأى الشاعر مقدار ضراوة الحرب فضل حياة القرون الوسطى وعصور التأخر ، لإنقاذ البشرية من الدمار الكلى الذى أحدثه عصر النور ، وكتب صفحات تأريخه بدماء الأبرياء فأحال صحائفه البيض المشرقة سوداً تسيل دماً ودماراً ، فقال :

يا زمان النـور الذى قد ألا ... ن العلم فيه الصفا والحديدا
لُح كئيباً فقـد أعاد بنو الـ ... يوم منك الصحائف البيض سودا
لطخوا بالدماء وردة خـديـ ... ـك عقـوقاً فشوهوا التوريدا
وبكف العلـوم جروا لنا الويلا ... ت واستفرغـوا لها المجهودا

ليت لا كانت العلوم ولا كانوا وليت الذكيّ يفدى البليدا
حبذا لو بقى الجمود وتعساً لقوم لا يشكرون الجمودا
إن عصر الجمود عصر شريف عاش فيه الإنسان عيشاً رغيدا

وقد ظهرت فى هذه القصيدة ظاهرة جديرة بالإشارة إليها ، هى أن الشاعر سخط على الملوك الذين يرسلون بالشعوب إلى الحروب رغبة منهم فى السيطرة ، وشهوة للحكم ، وإطفاء لشهوة الأحقاد والضغائن التى بينهم ، غير عابئين بما يحيق بالشعوب من ويلات ، وقد جزع الشاعر من هذه الحروب التى كان الملوك سبباً مباشراً فى إثارتها ، فأخذ يستدر رحمة الملوك ، ويثير فيهم المشاعر الإنسانية ليكفوا عن هذا القتال ، وضجر الشاعر وجزعه من الحروب رد فعل لما حل ببلاده وبالبشرية من خراب ودمار ، فقال بصراحة :

رحمة أيها الملوك بأهل الأرض وكفوا جيوشكم والجنودا
ضاقت الأرض بالذى حلّ ذرعاً فاكفهرّت وأوشكت أن تميدا
جردوها عواطفاً وشعوراً وادفنوها ضغائناً وحقوداً
وتلافوا بقية السيف منكم فهى بالسيف أوشكت أن تبيدا

وذكرهم بأن البشر سواء فى العواطف والمشاعر ، وأن ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان آخر ، فهم سواسية فى العذاب والآلام والمشاعر حباً وبغضاً :

فارحموهم فهم وأنتم سواءٌ قد تماثلتم أباً وجدودا
لو رجعتم إلى الحجى لرأيتم سيد القوم لا يطول المسودا
إنما الجهل أوجد الفرق فى النا س فكانوا مواليـاً وعبيدا

وقد عبر الشاعر عن رأيه فى الحروب أصدق تعبير ، وعزاها إلى المتنفعين بها وهم الملوك ، وعلى الرغم من أنه ختم قصيدته بالدعوة إلى الحرب لم نجد الشاعر يندفع اندفاعاً دينياً فى الدعوة إلى الحرب ؛ فلم يقل إن الكفار قد وطئوا أرضكم ، لأنه يرى الإنسانية تستباح ويفتك بها لأنه بعيد النظر ،

واسع الأفق ، رأى أموراً لم يرها غيره من الشعراء . رأى الإنسانية تتقرب من الملوك ، ورأى الملوك والرعية يتساوون فى الفتك والموت ، غير أن الظروف هى التى خلقت هذا ملكاً وهذا من أبناء الشعب . وعندما أراد أن يثير الحرب أثارها باسم قومه العرب ، الأمة التى تصدع الحديد ، والتى سجلت فخرها ومجدها فى صفحات التأريخ ؛ لأن رغبة الشاعر لم تكن عميقة فى الذود عن الأتراك ، فلم يحث صراحة على الحروب ، ولم يحرضهم ، ولم يطالبهم بصراحة ؛ إنما أوجب الحرب لأن العدو دخل حدود وطنه ، ويجب أن يحارب ليطرده من هذا الوطن :

إن ظنى وأكثر الظن حــــق ... إن قومى لا يرتضون القعودا
سيخطون بالقواضب حـــــداً ... للعدو الذى تخطى الحدودا (٢)

أما « ابن البراع » فقد شاهد الحرب فى الأرض والبحر والسماء ، ولم تنج بقعة من ويلاتها ، فصرخ من أعماق قلبه مطالباً بالسلام ، صرخ بالدول لترفق بالإنسانية ، وتخفف من مصائبها فقال :

دول الأرض أين أين الســــلام ... فعلى الرفق والحنــــان السلام
خففوا الويل عن بنى الإنســـان ... إنما الويــل فى الشرائع ذام
قد قست منكم القلــوب وأنتم ... بشر مثلهم دم وعظـــــام
ارحموهم فهم وأنتم ســـواء ... كلكم أنتجتكم الأرحــــام

وتساءل « ابن البراع » عن السلام ، ومتى تضع الحروب أوزارها ، وتستقر الأمور ، وتهدأ النفوس الضالة الحيرى ، ولكن استدرك فوجد أن موقدى نيران الحروب هم تجار الحروب وهم الحاكمون ؛ لذلك وجه تقريعه ولومه على من أجج هذه الحروب التى زادت نسبة اليتامى ، وفجعت الناس بالأعزاء من البنين ، ثم وقف صراحة وخص الملوك بهذا التقريع فهم الذين يعاملون أبناء الشعب معاملة الراعى القاسى للأغنام الضعاف ، وإلا فما فائدة الشعوب فى هذه الحروب التى تشن لنزوات الملوك ، ومنافعهم الشخصية ،

---

(٢) صدى الإسلام العدد ٧٩–١–١٣٣١ وقد ثبتها فى ديوانه المخطوط ، وعندى نسخة منه .

وشهواتهم ، وفى إثارتها الدماء والدموع والفناء والجوع والمصائب ، فقال يخاطب الملوك :

إن لومى على الذى أجج الحـــر ب حيث فى الحرب تكثر الأيتام
ولو أن الحروب فيها حيـــــاة لشعوب من دأبهـــا لا تضـــام
يا سماء أمطرى على الأرض دومـــاً غضباً فيه تهلك الظـــــلاّم
يا ملوك الأرض أشفقوا بالرعايـــا سئمت من رعاتهـــا الأغــــنام
فلحفظ الأنـــام تستعمرون الأر ض أم للأطماع تفنى الأنـــام
إن يكن حربكم لنيل انتقـــام ففنـــاء العباد ليس انتقـــام
حيث أهلكتم بها الحرث والنســـل لم يرعكم شيخ قضى وغلام (٣)

وكان كل الشعراء على اختلاف بيئاتهم يكرهون الحروب لأنها وسيلة لتهديم دعائم السلام ، وتقويض دعائم الطمأنينة والأمان فى النفوس ، وطريقة لبث الرعب والفزع فى قلوب الضعاف من النساء والأطفال ؛ فقد نظم « الرصافى » قصيدة « من ويلات الحروب » مصوراً فقيرة أضناها الفقر من أثر الحرب فخارت قواها ، فأخذ الشاعر يخفف من وقع الألم ، وكان ألمها شديداً حتى إنه أبكاه وأوجعه . ثم هاجم الغرب مشعل الفتن والحروب ، وذكر ما تصنعه الحروب من تبدلات فى حياة البشر عامة فقال :

قامت قيامة أهل الغرب فانبعثت هزاهز بينهم عمت بنى نوح (٤)
واستفحلت فتنة عمياء جائحـــة تمخضت من دم فى الأرض مسفوح
وقامت الحرب باللأواء شاملـــة كل البسيطة حتى الأبحر الفيح (٥)
والأرض قد أصبحت من مكر ساكنها محمرّة اللوح أو مغبرّة السوح (٦)

---

(٣) جريدة العرب : العددان ٨١ ، ٨٢–١–١٩١٧ وتراجع قصيدة ابن اليراع التى يصف فيها إحدى المعارك .

(٤) الهزاهز : الاضطرابات التى تهز الشعب . القصيدة فى الديوان ص ٢١١ .

(٥) اللأواء : المجاعة ، وكل مصيبة شديدة .

(٦) اللوح : بضم اللام الهواء . يكنى فى البيت عما حل فى البلاد خلال الحرب العظمى من المجاعة والمصائب العامة .

ضاقت على الناس وانسدت مسالكها فعاد كل طريق غير مفتوح
والحرب أغنت أناساً غنية عجباً وآخرين رمتهم بالمجاليح (٧)
ومعشراً أسكنتهم فى الذرا غرفاً ومعشراً بطن ملحود ومضروح (٨)

وللرصافى عدة قصائد فى ويلات الحرب ومصائبها ؛ فنى قصيدته « أبو دلامة والمستقبل » حرب شعواء على الحروب التى تشنها المطامع ، فتسفك دماء الأبرياء ، وتيتم الأطفال ، وتفنى الجيوش لجشع فئة محدودة ، أظهر كرهه للحروب التى تفتك بحريات الشعب ونفوسه ، فقال فيها :

أمن السياسة أن يقتّل بعضنا بعضاً ليدرك غيرنا الآمالا
لا درّ درّ أولى السياسة إنهم قتلوا الرجال ويتموا الأطفالا
غرسوا المطامع واغتدوا يسقونها بدم هُريق على الثرى سيالا
نثروا الدماء على البطاح شقائقاً وتوهموها الروضة المحلالا (٩)
تفنى الجيوش ولا ضغائن بينها سبقت ولا ترة ولا أذحالا
قالوا كرهت الحرب قلت لأنها دارت لتغتصب الحقوق الآلا (١٠)
وأجلت فكرى فى الحروب فلم أجد أبداً لهن سوى الخمور مثالا
طاشت منافعها الصغار عن الورى ورست مآثمها الكبار جبالا
ما أجشع الحرب الضروس فإنها تحسو النفوس وتأكل الأموالا (١١)

وفى قصيدة أخرى يصف إحدى الوقائع التى حصلت بين روسيا واليابان ، وما جرّت هذه الحروب على الإنسانية من ويلات ، لم يستهجن شاعرنا الحرب لأن ويلاتها نكبت أبناء وطنه فقط ؛ وإنما وقف موقفاً إنسانياً كريماً فحاربها . لأنها تفتك بالإنسانية وتبيد البشر أجمع ، وقد بدت هذه الروح الإنسانية فى قصيدته التى مطلعها :

---

(٧) المجاليح : السنون الشديدة ذات القحط والجدب .
(٨) مضروح : أصبح له ضريح ، أى ميت .
(٩) المحلال : كثيرة حلول الناس إليها ودخولها .
(١٠) الآل : الأصحاب ، أى أن الحروب تسلب الحقوق أصحابها .
(١١) الديوان ص ٣٦٨ .

سعّروها فى البحر حرباً ضروسا تأكل المال نارها والنفوسا(١٢)

وقد كان لإعلان الهدنة رنة فرح وسرور فى جميع العالم ؛ إذ وقف سيف المصائب عن حصاده ، وطاحونة الآلام عن دورانها ، وبدأ الأمل الحلو يداعب الناس بحلول الاطمئنان والهدوء ، وبدأ السلام يرف بأجنحته على الشعوب فى هذه المعمورة التى أنهكت قواها الحروب ، وأقيمت الأفراح فى كل مكان — ولا سيما فى دنيا المنتصرين — وعبر « الزهاوى » عن فرحه هذا بقصيدة رأى فى الهدنة طريقاً لتحرير الأمم من رق العبودية ، وأن الإنكليز سوف يأخذون بيد العراق نحو التقدم والرقى ، لأنهم أنقذوه من الأتراك ، وقد جافى الزهاوى الحق كله ، وأراد أن يتقرب إلى الإنكليز بقصيدته ؛ إذ اعتبر الهدنة سبيلاً لتحرير بلاده التى أصبحت قطعة مستعمرة للتاج البريطانى ، وغدت البلاد العربية بل أكثر الشرق تحت السيطرة الأجنبية . كيف رضى أن يغالط نفسه ، ويدعى أن الهدنة طريق لتحرير الشعوب من العبودية والاستعمار ، وقد أكد هذا المعنى فى المقطوعات السبع التى نشرها فى هذا المعنى ، فقال :

أتى الله حزب الحق نصراً فحرروا وراء انتصار فى الحروب شعوبا

وأعطوا من العدل العراق نصيبه يسرون من أهل العراق قلوبا

وفى بيتين آخرين قوله :

قد انتهت المهالك والحروب وفى العقبى تحررت الشعوب

هنيئاً للعراق فسوف يلقى بذلك ما تطيب له القلوب (١٣)

واعتبر الزهاوى الإنكليز حزب الحق الذى خلق ليحرر الشعوب من الاستعباد ، وقد أوغل فى الدعاية للإنكليز وحسن الظن بهم ، وظن بأن الشعوب كلها سوف تنال حريتها واستقلالها ، وأنها ستفوز بالخير العميم ،

---

(١٢) الديوان ص ٣٥٩ .

(١٣) تراجع جريدة العرب العدد ١٣٩ المجلد الثالث ١٩١٤ . والزهاوى باب فى ديوان الزهاوى من ص ١٠٧ — ١١٧ المطبوع فى مصر سنة ١٩٢٤ . ويراجع اللباب ص ٤٨ والعرب ١٧١ .

وسيحف الرفاء بالعراق من كل جانب . فتعم الفرحة قلوبهم والعدل ديارهم .

وقد شارك « محمد مهدى البصير » (١٤) الزهاوى فى هذه البشرى ؛ بشرى الهدنة ، وتصور وجود السلام مدعاة مجد العرب وتحريرهم من الذل والعبودية ، وتخيل أن هناك حفلة ستقام ابتهاجاً بهذا اليوم السعيد ، وصفها بقوله :

أعاد لنـــا السلم مجد العـــرب	فحيا الإلـه وأحيـــا حلب
على أسس الصلح قامت لهـــم	عـــروش دعائمهن الطلـــب
ستبنى غداً بيـــد المالـــكين	ولم تبنها اليوم هــــذى الخطب
أثارهم ساســـة الاضطهـــاد	فذاقوا الحيـــاة بكاس العطب
ويوم على ذكــــر تحـــريرنا	أقمنـــا بها حفـــلات الطرب(١٥)

ويتصور البصير أن الحرية التى حجبتها المطامع وراء دخان المدافع جاءت بعد الهدنة تحيي العرب وحلت فى ديارهم ؛ لأن الحلفاء قرروا تحرير الشعوب العربية .

وللبصير قصيدة أخرى يتحدث فيها عن السلام ، نشرها بتوقيع مستعار(١٦) ، حشر فيها نظرية التنازع على البقاء ، ونظرية البقاء للأصلح حشراً ، فقال :

---

(١٤) سألت الدكتور البصير عن هذه الحفلة فأخبرنى متفضلاً أنها خيالية ولا صحة لما ورد فيها .

(١٥) مجلة دار السلام العدد ٤ — المجلد الثانى — ١٩١٩ .

احتفلت سلطات الاحتلال احتفالاً رسمياً ، وأنيرت أنوار الكهرباء ، وأرسلت السهام النارية فى الفضاء ، ووصف هذه الحفلة إبراهيم منيب الباجة جى بقصيدة فى العدد ١٥ من المجلد الثانى من دار السلام ١٩١٩ .

(١٦) قالت مجلة دار السلام : كل ما نشر فى هذه الوضعية وفى جريدة العرب مذيلاً باسم « ابن بابل » فهو للشيخ محمد مهدى البصير شاعر الحلة الشهير . العدد ٢١ المجلد الأول .

قلت السلام على السلام فقد أبى حتى الجماد مع الحياة سلاما
إلا إذا انقرض التنازع فى البقا فالسلم ينشر فى الورى أعلاما
والناس لو يتناصفون تصافيا لم يَسق قوماً آخرون حماما

وليست الحروب كما ظنها الشاعر حرب تنازع على البقاء ؛ وإنما هى حرب استعمارية ؛ فالمستعمر يريد أن يوسع رقعة أرضه جشعاً ، وقد التفت البصير نفسه إلى هذا الأمر بعد ذلك ، واتخذ « غليوم » إمبراطور ألمانيا مثلاً ، فوصف الحاكمين الذين يستعبدون الشعوب ويذلون الرقاب ، وتطرق إلى أعمالهم التى أدت بالشعوب إلى الذل والهوان فقال يصف المستعمرين بقوله :

وقضى لهم غليوم فى غلوائه ألاّ يعيشوا وادعين كراما
لا درّ درُّ الحاكمين بأمة ولوا عليها الصارم الصمصاما
الطامعين بكل ما تحت السما وعساهمُ لا يبلغون مراما

ويبرز أعمالهم البشعة وقسوتهم التى سخرت بحق الشعوب دون أن يسمعوا نوح الثكالى ، وصراخ الأيامى ، فقال :

وإذا المدافع أسمعت أصواتها مثلوا قعوداً حولهن قياما
شغلت مسامعهم فليس يهزها يوماً أنين أرامل ويتامى (١٧)

وللبصير قصيدة أخرى نشرت عام ١٩٢٠ وصف فيها الحرب وأعمال إمبراطور ألمانيا فى باريس ورومانيا وبلجيكا والصرب ، وكيف دخل روما ، ثم وقوف « فوش » و « ولسن » بوجهه ، فحطما آماله ، وأجبراه على التنازل عن العرش ، فقال :

ولو لم ينازعه السياسة ولسنٌ لما خسر المجد الذى هو طالبه (١٨)

وله قصيدة يرسم لنا فيها صورة رائعة لجريح فى بلد متأخر فى جميع إمكانياته ، ولا سيما الصحية منها ، وما يعانيه هذا الجريح من آلام الجراح حتى يتمنى الموت من هول هذا الألم فقال :

---

(١٧) دار السلام العدد الرابع — السنة الأولى ١٩١٨ .

(١٨) دار السلام ٥-٣-١٩٢٠ .

وثاكلةٍ يئن لهـــا جريح طريح لا يعلّل بالـــدواء
تمكنت القذائف منـــه مرمىً فآيست الأســاة من الشفاء
يئن إذا أضر الجرح فيـــه فيشجيها فتجهش بالبكـــاء (١٩)

كانت آثار الحرب شديدة فى الشرق ، وفى العراق خاصة ، فقد فتكت المجاعة بالشعوب الضعيفة التى لم تدرك حكوماتها مغبة الأمور ، بعد أن توقفت المصانع عن الإنتاج ؛ فلم يتمكن الزارع من مواصلة الزراعة لأنه يحارب فى المعركة ، وأما زرعه لم يكف حتى للقوت الضرورى لحياته ، وانشغال الدول بالحروب وقف حائلاً أمام التجارة فتدنت الحياة الاقتصادية ، وفتك الجوع بالناس ، وبددت الثروات وتقوض العمران ، وتوقفت عجلة المدنية عن السير ، وتأخر ركب الحضارة .

ومع كل هذه المصائب التى حاقت بالإنسانية نرى المستعمرين يدعون إلى السلام ، ولكن على حساب اقتسام الشعوب الضعيفة ، واستغلال ثرواتها ، وامتصاص مواردها ، فيختصمون ، فيسخر الشاعر من هؤلاء بقوله :

يا دعاة السلم فى قصر السـلام أين مسعاكم إلى تأييـــده
أنتجت أتعابكم هـــذا الخصام أفلا نقوى على تبـــديده
فهلموا اسعوا إلى رد النظـــام واعملوا حقا على توطيـده
وأذيعوه لـدى أشيـــاعه كم له بين الورى من شيـــع
وإذا فتشت عن أتبـــاعه لم تجد أنت ســـوى متبع (٢٠)

قد أضنت الحرب كاظم الدجيلي وآلمته فتساءل : متى يعم السلام الشعوب فتطمئن بعد هلعها ، والقلوب بعد خوفها !! وعزا الحروب إلى القادة الطامعين بأوسمة براقة ، وبمجد زائل ، دون أن يرحموا جموع

(١٩) دار السلام ١-٣-١٩٢٠ .

(٢٠) نشرت القصيدة بتوقيع « شاعر متألم » فى دار السلام العدد ١٧ من السنة الأولى ١٩١٨ وهى لباقر الشبيبى . راجع الأدب العصرى ص ١٢٤ وترجمته فى شعراء الغرى .

الشعب وأطفاله وشيوخه ، ويبصرهم بالطريق السوى للشجاعة والإصلاح فيقول :

ليس من أزهق النفوس شجاعاً ليس من جد فاتكاً بمجيد

إنما أشجع البرية طراً مصلح قام بين أهل الجمود

وتمنى أن يعم السلام ليعود الهناء على الشعوب ويقضى على تجار الحروب بقوله :

فمتى يا ترى يموت غواة جندوه لقائد ومقود

فيعم السلام فى الناس طراً ويعود الهناء للمستعيد (٢١)

هذه هى الحروب بشرورها ، وآلامها ، ومصائبها ، وموقف الشعر منها ، وفيها صورة لما حاق بالعراق من أحزان وآلام وفاقة وجدب وجوع وأمراض ، والتى انتهت باستعباد العراق من الإنكليز ؛ فقد ظهرت المعاهدات السرية التى قسمت الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ ، ولم يبق بعدها للخلافة العثمانية نفوذ ؛ فقد احتل الحلفاء البلاد وهيمنوا على مقدراتها ، وهرب رجال الاتحاد والترقى (٢٢) الذين دفعوا الدولة إلى الحرب دفعاً ، فذاق الأتراك مرارة الاحتلال والحكم الأجنبى .

وبذهاب الخلافة العثمانية بدأت الفكرة القومية تتسرب إلى الأقطار العثمانية ، وأخذت تدعو إلى تشكيل دولة مستقلة(٢٣) .

---

(٢١) دار السلام العدد ٦ السنة الثانية ١٩١٩ وقد وقعت بتوقيع ك . د . وقد وجدت على نسخة مكتبة الآثار اسم الشاعر بخطه .

(٢٢) قتل أنور باشا فى تركستان فى ساحة القتال والتجأ طلعت باشا إلى برلين فقتله أحد الأرمن ومات جمال باشا فى تفليس ، فقد كان يقصد الأفغان لأنه كان يمنى نفسه بتأسيس دولة حديثة (على طريق الهند ص ٢٣٨) ويلاحظ ص ١٠٤ من هذا الكتاب وهناك تفصيل عن جمال باشا فى جريدة العراق العدد ٣٤٤٩ –١٢–١٩٣١ .

(٢٣) على طريق الهند ص ٢٣٢–٢٤٤ بشأن التفصيل والمصادر .

الفصل الثالث

الثورة العراقية

١ – ممهدات الثورة

٢ – التحريض على الثورة

٣ – المقاومة العلنية

٤ – أثر الثورة

٥ – عرش العراق

— ١ —

ممهدات الثورة

الثورة السياسية تأتى نتيجة أى ضغط على حريات الشعب ، فتهدد كيانه وشخصيته ومقوماته فيفقد جزءاً مهماً من حياته فيثور ليتخلص من هذا الكابوس الذى حال دون حريته ، ولينطلق إلى عالم رحب من السيادة والاستقلال ومتى ما أحكمت الثورات ، ووضعت المخططات الدقيقة للاحتمالات التى قد تصادفها فإنها تؤدى إلى ما أراده الثائرون ، وقد لاتنجح هذه الثورات لأسباب كثيرة .

ولا تكون الثورات فى بلد ، وليدة ساعة أو يوم محدد ؛ وإنما تحدث نتيجة لعوامل متعددة توصلها إلى ساعة الانفجار ، ولعل أهم عامل فى إنجاح الثورة هو تكوين الرأى العام الموحد الذى يتجه إلى الثورة والاستعداد لهـا .

ولا تختلف الثورة العراقية عن غيرها من الثورات ، فقد سبقتها عوامل كثيرة متنوعة يرجع بعضها إلى العهد العثمانى ، وبعضها جاء نتيجة للحرب العالمية الأولى ؛

فقد بدأت بوادر الشعور القومى فى أوربا ، وأخذت تتسرب إلى جميع الشرق فتأثر بها المثقفون العرب(١) بطبيعتهم الثقافية ، وظهرت هذه النقطة بالحملات التى راح يشنها الأحرار العرب الذين رأوا الفساد وقد استشرى فى البلاد العربية ، فأخذوا يطالبون بالإصلاح ، وقد كان منهم الجرىء المغامر الذى لم يخش صولة الدولة العثمانية حتى ليخيل لجرأته

(١) النتائج السياسية للحرب العظمى Ramsy Muir — p. 140—151 .

أنه غير موجود ، وأن اسمه مجرد توقيع مستعار ، لما امتازت به قصائده من جرأة غريبة وتحد سافر للدولة العثمانية(٢) ، ومن مطالبة عنيفة صريحة فى الإصلاح فقد قال الرصافى :

كيف القرار على أمور حكومة حادت بهن عن الطريق الأمثل
فى الملك تفعل من فظائع جورها ما لم تقل ، وتقول مالم تفعل
ملأت قراطيس الزمان كتابة للعدل وهى بحكمها لم تعدل

وتبلغ به الجرأة النادرة أن يدعو إلى حكم جمهورى لإصلاح الأحوال المتردية فى البلاد كى يرتفع الشعب من حضيض التأخر إلى أوج الرقى فقال :

إن الحكومة وهى جمهورية كشفت عماية قلب كل مضلل
سارت إلى نجح العباد بسيرة أبدت لهم حمق الزمان الأول
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لم نبرح نسوج إلى الحضيض الأسفل(٣)

وقد كانت الجرائد العربية فى مصر هى الميدان الذى ينشر فيه الشعراء شعرهم كالمؤيد والمقطم والمقتبس(٤) ، وقد نشر جميل صدقى الزهاوى فى المقتطف قصيدة منها :

ألا رعى الله أوطاناً لنا انتهكت محبوبة السهل والوديان والكثب
قد أضرم الجورُ ناراً فى جوانبها وأهلها بين نفاخ ومحتطب(٥)

---

(٢) حدثنى الأستاذ الشاعر الكبير بشارة الخورى أنه لم يكن يصدق بأن معروف الرصافى إنسان يعيش ؛ وإنما هو توقيع مستعار يتخذه أحد الأحرار ليهاجم الظلم والجور .

(٣) ديوان الرصافى ص ١٦٢ وص ١٦٣ ويراجع (إيقاظ الرقود) ص ١١٦ و (تنبيه النيام) ص ١٠٣ .

(٤) الأدب العصرى ج ١ ص ٩ و ص ٧٠ ويلاحظ مذكرات معروف الرصافى التى أملاها على الأستاذ كامل الجادرجى الموجودة فى المجمع العلمى وقد نشرتها مجلة الثقافة الجديدة فى العراق .

(٥) ديوان الزهاوى (مصر ١٩٢٤) ص ١٩٦ وص ٢٨٠ — واللباب (بغداد ١٩٢٨) ص ١٢٠ وص ١٤ .

ويصرخ الزهاوى يحذر القوم مما يحيق بهم وما سيصل إليه مستقبلهم قائلاً :

أيها القوم أيها القوم أنتم	أمة ساقطون فى مهواة
أيها الظلم هل زمانك ماض	أيها العدل هل زمانك آت
وسأبكى قومى وأبكى بلادى	وقبور الآباء والأمهات(٦)

وعندما بدأ الوعى القومى يتسرب بين طبقات المثقفين فى الآستانة وغيرها من البلاد العربية ، بدءوا بعقد المؤتمرات السياسية لمعالجة حالة العرب ، والمطالبة بمساواتهم مع الأتراك ، وجعل اللغة العربية لغة المدارس ، وأن يخدم الجنود العرب فى البلاد القريبة ، وأن يكون بعض العرب فى الوزارة وفى مجلس شورى الدولة ، ومحكمة التميز ، وأن تكون نسبة الأعيان من العرب اثنين لكل ولاية ، وتجرى المعاملات الرسمية فى البلاد العربية باللغة العربية(٧) .

وقد أفسح الدستور العثمانى للحركة القومية مجالاً واسعاً ؛ فقد أصبح بمقدور الشباب العربى التكتل رسمياً ، وإنشاء الأحزاب التى أخذت تنادى بالفكرة القومية ؛ فقد أسس العرب عشر جمعيات ؛ أربع منها(٨) فى

---

(٦) اللباب – ص ١٥ .

(٧) للتفصيل يراجع فى غمرة النضال ص ١٢٨ وما بعدها وجريدة صدى بابل العدد ١٨٤–٤–١٩١٣ .

(٨) جمعية الإخاء العربى شكلها شفيق المؤيد وزملاؤه ، والمنتدى الأدبى أسسه عبد الكريم الزهراوى ، وعبد الكريم الخليل ، والجمعية القحطانية شكلها خليل حمادة باشا وعبد الحميد الزهراوى وسليم النجار وزملاؤهم . وشكلت اثنتان فى مصر واثنتان فى سوريا ، أما فى العراق فقد أسس السيد طالب النقيب جمعية البصرة الإصلاحية ، وأصبح لها فرع فى الموصل باسم جمعية العلم وكانت خاصة بالضباط . وقد أنشأ عزيز باشا المصرى جمعية العهد السرية ، وغايتها استقلال البلاد العربية استقلالاً داخلياً متحدة مع الدولة العثمانية ، وانتمى إليها كثيرون من ضباط العرب وهى شعبة من الجمعية القحطانية .

راجع بشأن الجمعيات العربية فى غمرة النضال ص ٨٥ وص ٨٦ وجريدة النهضة العراقية العدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٣ ومابعده مقال قيم للشيخ على الشرقى ، ونهضة العرب لجورج أنطونيس– الفصلين الخامس والسادس وثورة العرب–مقدماتها ، أسبابها ، نتائجها–بقلم أحد أعضاء الجمعيات =

الآستانة ، وكان لهذه الجمعيات أثر فعال في تنبيه الرأى العام العربى ، فقد أخذت الجرائد تنشر المطاليب وتعلق عليها وتطالب بتطبيقها . خاصة بعد ظهور العنصرية التركية والتمهيد لتتريك العرب صراحة(٩) ، ولكن الأتراك الذين ادعوا أنهم منحوا الدستور لجميع شعوب الإمبراطورية العثمانية ، عادوا يسلبون ما منحه الدستور بعد أن تكاثرت الصحف العربية ؛ فقد بلغت (١٢) جريدة فى بغداد وحدها ، وارتفع العدد إلى (٩٦) جريدة و(١٤) مجلة ، وبلغ فى البصرة (١١) جريدة ، وفى الموصل جريدتان(١٠) . وقد زاد من أهمية هذه الجرائد أنها ميدان للمندفعين المتحمسين للدستور ؛ كالرصافى وفهمى المدرس والزهاوى ، وقد كانت على رأس هذه الجرائد جريدة (بغداد) التى كان رئيس تحريرها معروف الرصافى ؛ هذه الجرائد أخذت ترسل بأضواء جديدة ساطعة تكشف حال العرب ، وتدعو إلى المساواة والحرية التى نادى بها الدستور ، ومع أن بيع الجرائد كان محدوداً إلا أن أثرها كان كبيراً ؛ فقد كانت الآراء والأخبار تتناقل بين أبناء الشعب لأن الخبر الذى يقرأ تتناقله ألسنة الشعب فى الدواوين والمقاهى وكل خبر جديد ، أوحدث طارئ لابد أن يستأثر بالإعجاب أوالاستهجان ، وفى الحالتين يكون مجالاً للرد والنقد والنقاش ، وانتشرت كلمات جديدة ؛ كالدستور والحرية والمساواة والعدالة والظلم والاستبداد والطغيان ، وكلمات أخرى لم يكن الشعب بقادر على ذكرها رددتها هذه الجرائد ، يضاف إلى ذلك أن الولاة والموظفين استهدفوا لحملة من الجرائد بالمطالبة بالإصلاحات التى حتمها الدستور حتى نشرت جريدة الرياض قصيدة

= العربية – مطبعة المقطم مصر – ١٩١٦ ص ٥٦ – ١١٥ ، والثورة العربية الكبرى – لأمين سعيد جـ ١ ص ٥٠ – ٥١ .

(٩) فى غمرة النضال ص ٨٤ أخذ بعض ما نشر فى جريدة « إقدام التركيه » .

(١٠) جريدة البلاد العدد ٤٧٢ شباط ١٩٣٥ . مقال مفصل لإبراهيم حلمى العمر ويراجع فى غمرة النضال ص ٨٠ و ٨١ .

هاجمت فيها والى بغداد ناظم باشا(١١) ، الشخصية التى لم يكن يجرؤ إنسان على ذكرها إلا بالاحترام والتبجيل .

ولعل أهم ظاهرة تستلفت النظر أن أكثرية الجرائد كانت جرائد معارضة تندد بسياسة الحكومة التركية ، وتهاجم الاتحاديين الذين تنكروا للمبادئ التى أعلنوها ، وكانت هذه الجرائد عنيفة فى مهاجمة حكومة الآستانة الاستبدادية ، وتدافع عن كيان الوطن العربى الكبير دفاعاً عنيفاً بعد أن شعرت بما بيت لها الاتحاديون ، ولم يكن للاتحاديين سوى جريدة أو جريدتين تؤيد سياستهم ، وتصد الحملات القلمية ، غير أن هذه الحرية الواسعة أخذت تضيق يوماً بعد يوم وعدلت بعض القوانين وأخذت الصحافة تعانى أعباء ثقيلة حتى أقيمت (٤٨) دعوى على الصحف الوطنية وحكم على بعضهم بأحكام متفاوتة كالنفى والتعطيل ، ففر بعضهم خوف البطش والسجن(١٢) .

وقد تكون الحكومات قادرة على كم الأفواه ، ومنع الحريات العامة ، ولكنها لن تقدر على تبديل الاتجاه الفكرى للشعوب الواعية ، فقد أخذت الثقافة العامة فى الانتشار بين الناس وتفتحت روح النقد والمقارنة ، وأخذ العرب يشعرون بما يضمره الاتحاديون ، وقد هاجمت جريدة (إقدام) العرب صراحة فثاروا وتظاهروا(١٣) .

وقد نبه الوعى السياسى فى العراقيين تأسيس دولة فى الحجاز ، وأخرى فى سوريا بطابع عربى مستقل يحكمها العرب(١٤) شارك فيها جماعة من

---

(١١) جريدة البلاد العددان ٤٧٢ و ٤٧٣ وعن جريدة الرياض لسليمان الدخيل النجدى ، وهاجم الزهاوى ناظم باشا ومما قاله : إنه وسع الطرق وضيق الأفكار .

(١٢) جريدة البلاد ٤٧٣-٦-١٩٣٥ ويلاحظ فى غمرة النضال ص ٨٠ – ٨٣ و٧١ –٧٤ .

(١٣) فى غمرة النضال ٨٣ و ٨٤ لاحظ رسالة السيد طالب النقيب الذى يقول فيها (صاوحى أعداء لغتنا وأمتنا ، ولاسيما خليل بك رئيس مجلس النواب بما فى نفوسهم ، وهو أنهم سوف يقتادوننا إلى المشانق كما تساق الأغنام إلى المسالخ إذا كنا نحن العرب لانوافقهم على آرائهم ونسير بأوامرهم) . فى غمرة النضال ٨٧ .

(١٤) The Insurrection in Mesopotamia P. 26.

العراقيين ، وكانوا سبباً من الأسباب فى محاربة المستعمر راغبين فى المساواة بالدولة الحجازية والدولة السورية .

وقد غذى روح النقمة والألم فى النفوس سوء إدارة المحتلين وامتهان كرامة الشعب وحكمه حكماً دكتاتورياً عسكرياً أنهك الشعور الوطنى ، وللقضاء على الحركات التحررية والآراء القومية كان المستعمر يريد أن يجعل من العراق تابعاً للهند ، وقد عومل الشعب معاملة سيئة ولم يكن المستعمر يفهم روحية هذا الشعب للمستعمر ، وظنه سيرضخ بسهولة له بالغرامات التى يفرضها والسجون التى يحكم بها والاعتقالات والمنافى التى يصدرها على أبناء الشعب الأحرار ، ونسى أن هذه الأعمال الاستفزازية أثارت فى نفوس الشعب الحقد والكراهية للاستعمار الإنكليزى ، خاصة ، وقد ظلم المستعمر الطبقة المثقفة الواعية وقادة الرأى فيه(١٥) . وقد بدا ذلك واضحاً بالتصلب الذى أبداه الشعب والتمسك بمطالبهم بالاستقلال دون خوف من التضحيات والآلام التى كان يصبها عليهم المستعمرون . وقد عكس هذا الرأى محمد رضا الصافى فى شعره الذى نظمه فى السجن ، وقد كان قد عرض على المشنقة ثم عفى عنه قال :

إن من رام مثلما قد طلبنـــــا	لايبـــالى إن سيـــق للموت سوقا
رخصت عنـــدنا النفـــوس فثرنا	نطلب العز والعـــــلا لا لنبقى
ولقد سامنا العـــدو احتقـــاراً	فرآنا نستسبق المـــوت سبقـــا
أنا من أسرة كــــــرام أبـــــاة	لا يرون الحيـــــاة فى الذل أبقى
شرع أن يكون مـــــــوتى حتفاً	أو أرانى يكون موتى شنقـــــاً(١٦)

وظهرت روح النقمة والثورة ، على الاستعمار الإنكليزى واضحة فى

(١٥) كان الحاكم السياسى فى النجف إذا أراد التجول فى الطرق يرسل لفيفاً من الشرطة وبيدهم السياط يجبرون الناس على الوقوف احتراماً للقادم وبعبارات شائنة (العراق فى دورى الاحتلال والانتداب – ص ٣٦–١ وص ٦٥) . ويلاحظ (الحقائق الناصعة) ص ٢٥٢ ففيه مثل آخر .

(١٦) الأمواج للصافى النجفى ص ١١٩ ضمن التخميس . ومن المفيد مراجعة قصيدة محمد جواد الجزائرى ص ٤٠ جـ ١ فى (العراق فى دورى الاحتلال والانتداب) .

الشعر العراقى ، تطالب بالكرامة واحترام العراقيين الذين لايقلون عن المستعمرين فى المزايا . أليسوا بشراً لهم عواطفهم وأحاسيسهم !؟ فلماذا يمعن الإنكليز فى إذلالهم !؟ . إن الشعب العراقى شعب يعتز كثيراً بفرديته وإنسانيته ، وقلما انصاع إلى حاكم أو سلطان يريد أن يحتقره ويفرض عليه رأيه ، شعب يحب الحرية الفردية ويتعشقها ، بيد أن الحكام الإنكليز أساءوا إليه ، وأساءوا إلى حكوماتهم زاعمين أن الشعب فى العراق يريد أن يبقى الاستعمار الإنكليزى ، وأن استمرار حكم الاستعمار سوف يوطد النظام كما صنع (ولسن) فى الاستفتاء الذى أجراه(١٧) ؛ فقد بعث إلى الحكام السياسيين فى الألوية والأقضية ، يطلب منهم أخذ رأى الشعب لتقرير مصير العراق ، ومعه تعليمات خاصة توجههم بها إلى وجهة نظره فى الاستمرار فى الحكم البريطانى ، غير أن الاستفتاء قوبل بالمقاومة الشديدة ، وبتوقيع عرائض تطالب بإقامة حكومة عربية إسلامية ، ملكها عربى مسلم مقيد بمجلس تشريعى وطنى(١٨) .

كانت هذه الأمور تجرى أمام سمع الشعب وبصره ، ولكنه لم يكن بقادر على أن يصنع شيئاً ؛ فقد كانت قوات الاحتلال تفوقهم عدة وعدداً ، لذلك كانت شكاواهم مؤلمة دفينة كقول محمد الباقر الحلى :

شكوت إليك لا جزعاً ولكن	لتعلم كيف قد حكموا فجاروا
أبقى ما حييت أبا (على)	ولى يوم مع الخلفاء ثار
أبا الأشبال عفواً سوف أبقى	أجاهد كى يتم لنا انتصار
سئمت المكث فى كنف الأعادى	فهل لى فى جواركم قرار

وروح النقمة كانت روحاً ثائرة تريد الانتقام من الخصم العنيد الذى أذلها فى كل مكان عاشت فيه . فى الشارع وفى البيت وفى السجن ، فقد

---

(١٧) لاحظ بشأن الاستفتاء (الحقائق الناصعة) ص ٦٩ .

(١٨) المصدر السابق ص ٦٩ والصفحات التى تليها. ولاحظ ص ٨١ فتوى محمد تقى الشيرازى التى قطعت لسان كل خطيب فقد قال : ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب أو يختار غير المسلم للإمارة أو السلطة على المسلمين .

كان المسجون يقابل بأسوأ ما تقابل به الحيوانات من جوع وعرى ، يفترش الأرض ويلتحف السماء فقد قال محمد الباقر يصف حالة السجين :

نقضى يومنـــا جوعاً ونمسى ... وليلتنا يماثلهـــا النهـــار
نبيت بلا فـــراش أو وســاد ... لكـــل ثـــلاثة منـــا إزار
لرب السجن نبسط كــل حين ... أكفـــاً خط فيهن الصغـــار(١٩)

ولم تكن هذه الحال محتملة ، حتى من أولئك الذين كانوا يسيرون فى ركب الإنكليز ، ويوالونهم فلم يصطبر الزهاوى على حالة العراق العامة ، إذ بلغ الظلم أقصاه ، وأسبغت على المحاسيب النعم والأموال ، فكانت قلوبهم تغلى من الغيظ والنقمة والألم ، وليس غير الاستقلال من دواء شاف لهم فقال :

يا أيـــدى الظالم شــــلى ... ويا بـــلاد اســـتقلى
ويا رجـــاء تعـــزز ... ويا مصـــاعب ذلـــى

حتى يقول من القصيدة :

ليس الحيـــاة بعـــز ... مثـــل الحيـــاة بذل
قـــد جـــاء يوم بأيـــدى ... فيــــه أكسر غلى
إن القلـــوب من الغيـــ ... ـظ كالمراجـــل تغـــلى(٢٠)

ولم تكن قلوب طبقة من طبقات الشعب العراقى راضية على الاستعمار الإنكليزى لما جاءت به من حكم عسكرى يسوق الناس على الظن ، ويتهم المثقفين وغير المثقفين بدون حساب وبدون محاكمة لذلك كانت نفوس أبناء الشعب تضطرم وتضطرب وكان من جرائها ثورة الشعراء العارمة لمصاولة المستعمر لربح الحرية والاستقلال وقد بذل الوطنيون جهوداً فى سبيل إعداد

---

(١٩) مخطوطة فى مكتبتى الخاصة تفضل بها على الشاعر وهى بخط السيد حسن عزام .
(٢٠) اللباب ص ٩٤ وديوان الزهاوى ص ٢٩٥ .

الرأى العام وتوجيهه بما نشروه من مقالات وما كانوا يخطبون به فى المساجد ، أيام الجمع ، وأيام ميلاد الرسول ، وغير ذلك من المناسبات ، وما كانوا يتحدثون به فى مجالسهم ودواوينهم ، وما كانوا ينشرون فى مدارسهم .
كانت ثورة عصفت بالظلم وامتهان قيمة الشعب كبدت الظالمين ومن يسير فى ركابهم الغالى .

— ٢ —

التحريض على الثورة

كانت مطاليب العراقيين بادئ ذى بدء همسات ، ورسائل يكتبها بعضهم إلى بعض لإظهار الامتعاض والنقمة والألم ، مما وصلت إليه الحالة العامة للبلاد من السيطرة المباشرة على جميع مقدرات البلاد من قبل جيش الاحتلال ، ومن تلك الرسائل رسالة بعث بها سعد صالح سنة ١٩١٩ إلى صديقه الشاعر أحمد الصافى يدعوه فيها إلى بث روح المقاومة ضد قوات الاحتلال ، ويدعوه صراحة فيها إلى ثورة مسلحة لتخليص البلاد من الاحتلال لأن الاحتلال عار لا يرضاه العراق ولن يغسل هذا العار إلا سيل الدماء وتطهير الأرض الكريمة من سيطرتهم . كتب يقول :

عزيز على الحـــر تلك البلادْ   يراهـــا رهينـــة قهارهـــا
أأحمد قف بضواحى العـــراقْ   وناد بواســـل أحـــرارها
إلى كم نكابـــد مـــرّ الهوانْ   وتشقى البـــلاد بأغيـــارها
أما آن أن تنتضى بيضهـــــا   وترمى الغـــداة بشـــوارها
لعـــل الدماء إذا ما جـــرت   على الأرض تغسل من عارها(١)

ومن ثم أخذت هذه الهمسات وهذه الشكاوى تصدر من هذا الطور إلى الخطب فى المساجد ، وفى المناسبات الدينية لأن الاحتلال الإنكليزى العسكرى أخذ يشعل روح الثورة فى النفوس ، ودون خوف من السطوة والقوة(٢)

(١) سعد صالح ص ١٤٧ .

(٢) لاحظ ملحق رقم ٤ ص ٣٢٥ من كتاب **Sir A. L. Haldane** تجد إحصائية مفصلة عنها .

إذ صمم العراقيون على عمل شيء يستعيدون به كرامتهم المهدرة ؛ فبدأت حركة التحرر تخرج من طور الفكرة إلى حيز العمل . وقد كان يغذى هذه الروح الرأى العام العالمى ، والجمعيات السرية التى كانت تعقد اجتماعات لتنظيم السياسة التى تسير عليها ، ومن ثم توسعت هذه الجمعيات وأنشأت لها فروعاً فى كثير من أنحاء العراق ، وقد كان محور الحركة بغداد التى اتصلت بالنجف ، وتعرف القائمون بالحركة على استعداد الوطنيين جميعاً لمؤازرة حركة الاستقلال التى تديرها جمعية حرس الاستقلال ، ومما زاد فى قوة الحركة الوطنية انضمام أعلام رجال الدين ومؤازرتهم لها ، ونشر بلاغ من الحكومة الإنكليزية ، تعلن الانتداب على العراق(٣) .

اجتمع الوطنيون وقرروا القيام بمظاهرات سلمية تحت الستار الدينى واغتنام شهر رمضان(٤) ، وإقامة سلسلة حفلات لاستثارة روح الشعب . وقد كان الإقبال يزداد يوماً بعد يوم ، وأخذ الوطنيون يحتالون فى عقد هذه الاجتماعات ، تارة بإقامة حفلات للمولد النبوى ، وأخرى بتغيير مواعيد هذه الاحتفالات ، ومرة بنقلها من محلة إلى محلة أخرى . وقد كانت هذه الاحتفالات الدينية تتطور إلى تجمهر الشعب وخروجه ساخطاً على الإدارة المحتلة . وأشهر المساجد التى اشتهرت فى هذه الاحتفالات كان جامع الحيدرخانة ؛ فقد كان الخطباء يتولون مهمة حث الشعب على الثورة بعد الصلاة أو بعد قراءة المولد النبوى(٥) متخذين من جهود الرسول (ص) وصبره على مبادئه وتفانيه فى سبيل الإسلام رمزاً ، ومن استشهاد الحسين وإبائه وتضحيته نبراساً يدفعون بها الشعب نحو الثورة .

فلما رأت سلطات الاحتلال خطر هذه الاجتماعات منعتها ، وأخذت ترهب الناس بالرشاشات(٦) ، ومن هذه الاحتفالات احتفال أقيم فى

---

(٣) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب جـ ١ ص ٨٠ .

(٤) يلاحظ منشور القائد العام فى تاريخ القضية العراقية ص ١٥٨
The Insurrection in Mesopotamia P. 36.

(٥) ويلاحظ تاريخ القضية العراقية ص ١٤٦ وما بعدها .

(٦) فى غمرة النضال ص ٢٤٥ .

الحيدرخانة وأنشد السيد عيسى عبد القادر قصيدة دعا فيها صراحة إلى الثورة شارحاً ماحل بالبلاد من جور واستبداد منها :

بنى النهرين نسـل الطيبينا   أفيقوا واسمعوا الحق اليقينا
تفرقنـا طوائف واختلفنـا   فأصبحنا جميعـاً صاغرينـا
وأسلمنـا بأجمعنـا لقـوم   بغـاة من طغـاة جائرينا
فجاروا واستبدوا ما استطاعـوا   وذا شأن البغـاة الظالمينـا (٧)

وليست هذه القصيدة من عيون الشعر العربى ، وليست من خيرمانظم فى هذه الفترة ، ولكن جو الاحتفال وطبيعة الفرد فى الجموع المتحمسة واتقاد الروح الوطنية فى هذه الفترة أظهرللقصيدة أثراً كبيراً ، ولم تكن هذه القصيدة الوحيدة التى ألقيت ؛ فقدكان من خطباء هذا الاجتماع عبد الرحمن البناء ، وطالب مشتاق ، والشيخ مهدى البصير ، وعبد الرزاق الهاشمى ، ولكن كان أثرها أكبر من أثر غيرها من القصائد ممااضطر السلطات العسكرية إلى اعتقال الشاعر وإرساله إلى البصرة .

فما كان من الوطنيين إلا اغتنام هذه الفرصة فاحتجوا احتجاجاً شديداً وأغلقت المخازن ، ووقفت الأعمال وأقيمت مظاهرة كبيرة احتجاجاً على هذا الاعتقال(٨) جرت إلى قتل أخرس دهس بسيارة فاحتفل به احتفالاً رائعاً وسماه الناس (شهيد الوطن) لإثارة الوعى القومى فى النفوس(٩) .

---

(٧) مخطوطة فى مكتبتى بخط الشاعر .

(٨) اجتمع المتظاهرون فى جامع الحيدرخانة وانتخبوا من يمثلهم لمفاوضة سلطات الاحتلال فى إلغاء الحكم العسكرى وتأسيس دولة عربية . لاحظ أسماء المندوبين فى (فى غمرة النضال)ص٤٧ .

(٩) يقول الأستاذ البصير فى ١٥٠ من تاريخ القضية العراقية : إنه قتل بطلقة وكان من نتيجة ذلك أن أرسل حاكم بغداد العسكرى والسياسى فى طلب السيد أبو القاسم ، والشيخ أحمد الشيخ داود والشيخ أحمد الظاهر ، وجعفر أبو التمن ورفعة الجادرجى والشيخ سعيد النقشبندى وعبد الرحمن الحيدرى وعبد الوهاب النائب وعلى الباز ركان والسيد عبد الكريم حيدر وفؤاد الدفترى والسيد محمد الصدر ويوسف السويدى وياسين الخضيرى ومحمد مهدى البصير .

راجع تاريخ القضية العراقية بشأن ترجمة كل واحد منهم ص ١٥٠ وما بعدها .

وقد كان خطباء الثورة وشعراؤها يبذلون جهدهم فى تحريض الناس بإخلاص ووضوح ، محددين هدفهم وغايتهم التى كانت محاربة المستعمر وطرده من بلادهم ، وقد ظهرت هذه الرغبة فى محاولتهم إقناع الشعب للسير متضامناً معهم ، لأن إقناع الشعب فى أمر من الأمور ، والإيحاء إليه سيدفعه بعنف وبإخلاص وبلا شعور ، لذلك كان الشعر يطفح بالوضوح وكلمات الحماسة ، حتى يفهم الشعب سريعاً وبيسر وسهولة . فابتعد عن التقليد والتقيد وجانب الصناعة اللفظية وانتقاءالعبارات ، وركز على الكلمات المثيرة المهيجة التى تمس الشعب الحساس ، وقدظهرت روح العراق الحزينة فى شعره جلية فقد كانت الهموم تطفح من ثنايا شعره فقد قال عبد الرزاق الهاشمى :

وطنى العـــزيز إلى متى　　متكبـد كـل اضطهـاد
يأيهـا الشعب الـــذى　　اضطهدوك كم لك من أيادى
رتعـــوا بنعمتــك التى　　درت على حسب المـــراد(١٠)

وقد كانت الخطب والقصائد مسابقة وطنية سمت فى روحها ومشاعرها وطفحت بنغمات وجدانية عاطفية عميقة لأن الشاعر كان يحس بأنه يكافح عن حقوق بلاده ، ويريد أن يهز جماهير السامعين وينقل إليهم مشاعره . وكان الشاعر المجلى هو من يسيطر عليهم ، وإلقاء هذه القصائد تكسب الشاعر فخراً وعزاً لسببين : الأول المناسبة الوطنية ، والثانى ما تضفيه الجماهير على الشاعر من احترام يملأ النفس غبطة وسروراً ؛ أما من الناحية الفنية فإن هذا الشعر لن يكون خالداً لما يذهب بذهاب المناسبة التى قيلت فيه ، بيد أنه يقوم بواجبه خير قيام فيغذى الثورة ويدفعها . ومع ذلك فإن هناك بعض الطفحات الفنية يتلمسها الباحث بين خضم الشعر الهادر . وليس شعر الثورة فى العراق وحده اختص بهذه الميزة ؛ فكل شعر أمة فى مثل هذه المناسبة يكون من نصيبه مثل شعر هذه الفترة ؛ لأن الثورة اندفاع وحماس وعاطفة متأججة ، ولامجال للروية وإعمال الفكر وتنميق الأساليب ، و لا يكون شعر

---

(١٠) الأخبار فى سير الرجال : خالص حمادى ص ٧٠ .

الروية إلا فى أيام هدوء الأمة وصفوها واستقرارها ؛ لأن الفن وليد الاستقرار والهدوء والطمأنينة . أما شعر الثورة فهو الوقود لإذكاء الشعور بالألفاظ والموسيقى .

وقد كان يغذى هذا الشعر شعور عميق كامن فى حنايا الصدور ، هو الشعور الدينى يخطى طوراً بالوطنية ، وآونة بالقومية ، ومرة يبرز مع بغض المستعمر ؛ لأن الشعور الدينى الذى تربى عليه هؤلاء الشعراء كان يجرى فى أحاسيسهم وقلوبهم ، فجرى مع التيار القومى الجديد . ثم إن الدين الإسلامى كان الرابطة التى تربط العرب بالعثمانيين الأتراك ، وليس من السهولة أن يتخلص المرء من عقيدته أو دينه ، وتثور فى نفسه بين آونة وأخرى ثورة على ماصنعه ، إذ كيف يهاجم إخوانه المسلمين . هو بحاجة إلى إقناع نفسه وتبرير عمله هذا :

وقد كان من هؤلاء الشعراء المخلص المؤمن بعقيدته ، يحارب من يحاربه المسلمين ، ولكنه حارب الدولة العثمانية فى سبيل استقلاله وفى سبيل حريته وفى سبيل عروبته ، فجاء الإنكليز وسيطروا على العراق ، وهم بعيدون عن الشعب بكل شىء . فكيف يرضى الذل تحت سيطرة الحكم الإنكليزى الذى يسومه سوء الهوان !! لذلك اتخذ الشاعر العربى المسلم الدين وسيلة ليرضى ضميره وقلبه ، والفكرة الدينية التى ركن إليها الشاعر تمنع حكم غير العربى المسلم الهاشمى ، وحكم الإنكليز مخالف للمنطق الإسلامى والحق ، فقال محمد حبيب العبيدى :

ما تركنا إخواننا الأتراكا فخذلناهم ووازرناكا
شغفنا يا ابن لندن بهواكا بل لنيل استقلالنا بولاكا
فلماذا تكون فينا وصيا

ويدلى بالحجة والأسباب التى تمنع الإنكليز من أن يكونوا أوصياء على الشعب فقال :

لم تكن يا ابن لندن علويا هاشمياً لا ولم تكن قرشيا
لا ولا مسلماً ولا عربيا من بنى قومنا ولا شرقيا
فلماذا تكون فينا وصيا

لذلك فالاستعمار الإنكليزى استعمار جائر ، استعمار يجب أن يحارب ، لا تقره أصول البشرية ، ولا القواعد الإسلامية ، وبقاء الإنكليز سيستمر إلا إذا شن العرب الغارة ، وطردوا المستعمر بالقوة ، وليست قواهم بتاركة هذه البلاد إلا بالمبادرة إلى العمل : لأن سكوتنا سيخيب الآمال :

إنما نحن فى الحروب رجـــال   وكماة يـوم الـوغى أبطـال
يا لقومى فلتنتج الأعمــــال   يا بنى العرب خابت الآمال(١١)
إن رضـــينا بالأجنبى وصـــيا

وقد نظم خلال الثورة شعراء آخرون(١٢) وقد كانوا جميعاً متفقين فى هدف هو المطالبة بإنهاء الحكم الأجنبى فى العراق ، وإنشاء حكم وطنى أساسه الاستقلال والحرية. فمن هذه القصائد التى ألقيت فى جامع الحيدرخانة قصيدة عبد الكريم العلاف (١٣) منها :

ألا خبروا عنـا العـداة بأننـا   أناس على ذل الوصاية لا نـرضى
وقولوا لهم وفوّا العهود فخلفكـم   أسود عرين رابضـون لكم ربضا
فنحن عرفناكم بكل سياســـة   وإن كان بعض منكم يجهل البعضا(١٤)

وأشهر شعراء الثورة العراقية هو محمد مهدى البصير ؛ فقد جاء من الحلة إلى بغداد لإنشاء الشعر ، وإهاجة الناس وتحريضهم ، وبث روح الحماسة فى نفوسهم ، وقد كان البصير قوياً عنيفاً متحمساً مكثراً ، فكان ذلك مدعاة نفيه إلى (هنجام) بعد أن سجن فى العراق . ويمتاز شعر البصير بأسلوب جزل ، ومتانة فى التعبير ورصانة فى الألفاظ ، وتبدو المسحة العباسية

---

(١١) الأخبار فى سير الرجال ص ١٣٤ .

(١٢) إن استقصاء أسماء الشعراء لايمكن حصره من هؤلاء الشعراء الذين عثرنا لهم على نتاج محمد مهدى البصير ، ومحمد حبيب العبيدى وعبد الرزاق الهاشمى وعيسى عبد القادر ومحمد الباقر الحلى وملا عثمان الموصلى ومحمد حسن الحداد الكاظمى ومحمد عبد الحسين سركشك وناجى القشطينى وعبد الرحمن البناء وحسن الجواهرى ومحمد مهدى الجواهرى ومصطفى جواد وعبد الكريم العلاف .

(١٣) أخبرنى الأستاذ العلاف بأنه ألقى ثلاث قصائد فى مناسبة الثورة

(١٤) مخطوطة فى مكتبتى نقلتها من ديوان الشاعر .

واضحة على شعره ، ومن قصائده قصيدة طويلة يخاطب بها الوطن ، ويحرض أبناءه على الثورة ، ويقدم نفسه فداء له . ويتمنى هذا الفداء والموت فى سبيله ، وإلا فلا حق له فى أن يدفن فى ثراه الطاهر الزكى ، وثم يفضح نوايا الاستعمار والساسة الذين موهوا عليه ، فقال من قصيدة ألقاها فى جامع الأحمدية :

كذبتك أقطاب السياسة عهدها فلتضمنن لك الحياة ضباكا
أفيطلبون لك الرعاية ضلة ما كان أقصرهم وما أحجاكا
ويؤملون لك المعونة باللها ما كان أفقرهم وما أغناكا
لو أنصفوك لحرروك لأنهم ربحوا قضيتهم بظل لواكا

ومنها :

ما أولع الأحرار منك بتربة يفدون منها بالرقاب رباكا (١٥)
يصبو قتيلهم بكل صفيحة أخذته حتى صار من قتلاكا (١٦)

وله قصيدة تتجلى فيها الروح الأبية التى كانت تسيطر على روح الشعب المتوثب ، فقد أراد هذا الشعب أن يتحرر بقوته وأن يأخذ حريته أخذ القادر العزيز ، ولا يريدها منحة يعطيها له المستعمر فيكون المتفضل ، قال البصير :

ليحطم المستعمرون قيودهم فالجو أيسهم من الأعناق
وأشق من أسرى على بأن أرى يد آسرى يوماً تحل وثاقى (١٧)

وقد فاضت القصائد التى نظمت فى هذه الفترة بالحث على الثورة ، وبالتغنى بالأمجاد العربية ، فقد أراد الشعراء أن يبعثوا فى الشعب ثقته بنفسه وبكرامته ، فيرى نفسه نظيراً لهؤلاء المستعمرين قوة ومقدرة ؛ لذلك اتخذوا التأريخ الإسلامى معواناً لهم فى دفع الجماهير نحو الثورة ، وطفحت القصائد

---

(١٥) لم يمكننى الدكتور البصير من ديوانه لذلك اعتمدت على المنشور من شعره ، ولعل الظروف التى كانت قائمة عندما كتبت هذا الكتاب ومنعت الاستفادة من ديوان الشاعر قد زالت.

(١٦) الأدب العصرى ج ٢ ص ٩٧ وله قصيدة نشرت فى جريدة العراق العدد ٥٨١١-٢١ فى ١٨حزيران ١٩٤١ وقد ألقيت الكافية فى جامع الأحمدية. راجع الوقائع الحقيقية ص٩٦ و٩٧.

(١٧) الوقائع الحقيقية ص ٩٦ وله بعض قصائد ذكرها المؤلف .

بالحث على كره الأجنبي ، وكان هذا الكره نتيجة حتمية ، وصدى لواقع العراق الذى سامه الاستعمار الهوان ، وأذاق أبناءه الذل . إن كره الإنكليز أدى إلى كره كل أجنبي ، ومقت كل غريب عن الشعب خوفاً وحذراً ، مما يجره عليهم هذا الأجنبي الغريب ، ما جره الإنكليز وحلفاء الإنكليز عليهم ؛ فهذا القشطيني (١٨) يسخر بحرارة من وعودهم التي حنثوا بها فيقول :

قد غرك البرق اللموع فبات صدرك منشرح
وفرحت من كل الوعود وخاب من فيها فرح
أين الحليف وأين من يصغى إليك فتقترح
قد خان عهدك هازئاً لما بتجْرته ربح

ثم ظهرت الدعوة الصريحة لأخذ الحق بالقوة ، فقد فشلت الطرق السلمية في أخذ الحق من يد الظالم ، ومتى سلم الظالمون بالحقوق بسهولة ؟ وقد كان بالأمس حليفاً حارب معه العرب ، وتحملوا من أجله الموت فانقلب سيداً شرساً ظالماً . فهناك مبررات كثيرة دفعت العربي إلى حرب الحليف الذى لم يرع الذمام ، وهل هناك شرف وفخر يزاحم شرف الموت في سبيل الأوطان وفي سبيل الحياة الكريمة ؟

يأيها العربي قم واقدح زنادك ينقدحْ
وافتح طريقك بالظبي فبغيرها لا ينصلح
وخذ الحقوق جميعها أو مُت عزيزاً واسترح (١٩)

وقد قال البناء : إن إنكلترا تدفعنا للحرب دفعاً ، ولكن متى ما حاربناها فستكون الحرب سعيراً تتلظى تحرقهم ، وسنحاربها لأن الحرب خير طريق للحرية برغم ما في الحروب من مآسٍ وبلايا قال :

وإن ألجأتنا للحروب فإننا نحاربها حرباً تضيق خناقها
نحاربها والحرب خير محرِّر وإن كره الأغرار مرّ مذاقها (٢٠)

---

(١٨) ألقى القصيدة الأستاذ توفيق المختار في جامع الشيخ صندل في الكرخ .
(١٩) مخطوطة بخط الشاعر في مكتبتي وقد نشرت في مجلة الأخلاق العدد ٦ السنة الأولى ١٩٢٨ .
(٢٠) مجلة الأخلاق العدد ١٦ السنة الأولى ٨ مايس ١٩٢٨ .

— ٣ —

المقاومة العلنية

ما كان العراقيون مستعدين للثورة؛ فلم تكن الآراء قد تبلورت واستعدت لها من قبل وإنما دفع العراق لها دفعاً ؛ فقد كانت آراء القادة والزعماء غير مستقرة ، فكان منهم الخائف الضعيف ، ومنهم المتروى المتزن الذى يخشى على العراق نتائج (فشل الثورة) ، ولم تكن للثورة خطة واضحة للسير فى هداها ، ولم يكن هناك رأى عام موحد لنظام الحكم الذى يريدونه ، إنما كانت آراء مضطربة واتجاهات ليست مدروسة ؛ فهذا يريد العراق تحت حماية بريطانيا (١) ، وذلك يريدها حكومة ملكها برسى كوكس (٢) ، وجماعة يريدونها ملكية وآخرون يفضلونها جمهورية ، ويثار الاختلاف فمن يكون الملك ، ومن يكون رئيساً للجمهورية ، ولا يصلون إلى نتيجة يتفقون عليها .

ولكنهم كانوا متفقين على شىء واحد هو الحصول على الاستقلال وحكم العراق من قبل أبنائه . أما موقف سلطات الاحتلال فقد كان المماطلة المستمرة دون النظر إلى التصريحات التى كانت تنشر عن حق تقرير المصير (٣) ، وكانت تعامل العراقيين معاملة سيئة وتهين الشعب وتستفزه ؛ فقد التجأ (ولسن) إلى العنف ، وأخذ يمنع الحفلات التى تقام فى المساجد ، ولما اجتمع

---

(١) الوقائع الحقيقية ص ٦٤ و ٦٨ .

(٢) الوقائع الحقيقية ص ٦٩ .

(٣) تاريخ القضية العراقية ص ٧٨ والعراق من الاحتلال إلى الاستقلال ص ٢٦ والحقائق الناصعة والطريف أن يتلى تصريح بريطانيا وفرنسا فى أحد اجتماع العراقيين بالحاكم العسكرى . راجع ص ١٦٢ وما بعدها من تاريخ القضية العراقية .

الشعب فى الحيدرخانة ، شتت المجتمعين بالقوة (٤) فقتل شخص ، ثم لاحق زعماء الحركة لإلقاء القبض عليهم ، كما أنه أعدم بعض الذين قاموا للحيلولة دون الوصول إلى دار يوسف السويدى والقاء القبض عليه ، وألقى القبض على آخرين (٥) من بغداد وبعض أنحاء العراق ؛ فولّد جواً رهيباً كان له رد فعل عنيف فى النفوس ، فتهيأت النفوس واستعدت لإشعال نار الثورة ، وفكرت فى مقاومة المستعمر مقاومة علنية . ولم تكن مدن العراق الأخرى بمنجاة من سياسة العنف ، فقد حدث فى النجف وكربلاء والحلة والديوانية ما زاد إضرام القلوب حقداً ورغبة فى الثورة (٦) . ولم تجد المراسلات التى جرت بين زعماء الدين والبريطانيين فى تخفيف سياسة العنف (٧) ، وجاءت فتوى الشيخ الشيرازى محققة لأمانى البلاد ؛ إذ أفتى بأن (مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ، ويجب عليهم من ضمن متطلباتهم رعاية السلم والأمن ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطاليبهم(٨) .

لم يكن مركز الثورة بغداد وإنما كانت هناك عدة مراكز فى أنحاء العراق . وكان من جراء مطاردة المستعمر للأحرار أن انتشروا فى العراق ، وكانوا الواسطة لتأليب الشعب على الثورة . وكانت حالة البلاد العامة مدعاة إلى اجتماع الزعماء للتفكير فى أنجع الطرق للتخلص من الحالة المؤلمة ، والمصير الذى آلت إليه البلاد ؛ فاجتمعوا فى دار أحد الزعماء ، وانبرى السيد محمد الباقر الحلى (٩) وخطب فيهم خطبة ثم قصيدة حذرهم من الإنكليز والركون

---

(٤) تاريخ القضية العراقية ص ١٤٦ .

(٥) تاريخ القضية العراقية ص ١٨٥ وما بعدها وقد ذكرها البصير ترجمة لحياة الشهيد عبد المجيد كنه ص ١٨٧ .

(٦) وقد شنق الإنكليز أحد عشر شخصاً فى النجف ونفوا جماعة كبيرة من أحرار النجف وحكم على آخرين بالسجن (العراق فى دورى الاحتلال والانتداب) ٢٦-٣٨ ج ١ . توجد تفاصيل عن الحادث والأسماء بالتفصيل ولاحظ ص ١٠٢ .

(٧) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٧٥ و ٧٦ .

(٨) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ١٠٤ .

(٩) الحقائق الناصعة ص ١٧٤ و ١٧٥ وتاريخ القضية العراقية ص ٩ وبشأن الاجتماع الذى عقد بدار الإمام الشيرازى ص ١٤٢ وبشأن الاجتماع الذى عقد فى دار حمدى بابان والاجتماع الذى =

إلى وعودهم وضرب لهم أمثلة من أعمالهم التى قاموا بها فى مصر والهند منها :

بنى العرب لا تأمنوا للعدى مكــراً ... خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون منكم بالوعود مكيـــدة ... ويبغون إن حانت لكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكـــروا ... أضاليلهم فى الهند والكذب فى مصرا

وحذرهم من وعود الإنكليز المعسولة التى سرعان ما ينقضونها فقال :

ولا تقبلــوا منهم بقــول مموّه ... فما عاقل يرجى بأعدائه خيرا

وحثهم على الثورة لأنها الحق الواضح الصريح فإذا لم ينتصروا فيها ، فسوف يتوجون بالفخر والعز ولن يلومهم لائم أو يتهمهم متهم بأنهم تقاعسوا وذلوا فقال :

ومن مات دون الحق والحق واضح ... إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا (١٠)

وما أن أتم الخطيب خطابه وشعره حتى قام الشيخ محمد العبطان وسلّ سيفه وقال : «إننا قطعنا على أنفسنا عهداً إما الموت أو الاستقلال التام (١١) ». كان هذا الاجتماع وغيره نتيجة محتومة لعدم تقبل سلطات الاستعمار الحلول السلمية ، وإنما أرادت إظهار سطوتها معتقدة أنها قادرة على القضاء على كل حركة يقوم بها العراق فى سبيل استقلاله ، وقد فات القائمين أن حرية الشعوب لن يقوى على مقاومتها حائل ، وإلا لاتعظ العراقيون بقوة الإنكليز ، وارتدوا خوفاً مما صنعوه فى النجف (١٢) أو بغداد ، ولخاف العراقيون من بطشهم وجبروتهم . إن الحرية والاستقلال لن يقف أمامهما الموت ؛ فهما أقوى من الموت ، ولئن تأخر الشعب فقد كانت قلوبهم تغلى كالمراجل حقداً ، وغدت كل ثورة ضد الإنكليز جهاداً ومن العار على العربى أن يقعد .

= عقد فى دار رفعة الجادرجى ص ١٦٠ والاجتماع الذى عقد فى بيت السيد يوسف السويدى ص ١٧٧ .

(١٠) مخطوطة فى مكتبتى الخاصة .

(١١) الحقائق الناصعة ص ١٧٥ .

(١٢) حوصرت النجف أربعين يوماً بعد قتل حاكمها ولما فك الحصار شنق المستعمرون أحد عشر رجلا ونفى مئة وسبعة رجال .

ومن القصائد التى ألقيت فى التحريض على الثورة قصيدة حسن الجواهرى وفيها يقول :

من العار أن تبقى على الضيم مقعداً	فلا العيش إلا أن تكون ممجدا
مواطنك الغر التى بك شيدت	تناجيك فاسعفها خلاصاً من العدى
أراقت دماً من نفوس بريئة	لتبنى طريقاً للحياة ممهداً (١٣)

ومع كل هذه المقدمات لم تكن تخرج الفكرة إلى حيز العمل ؛ فما فكر العراقيون فى ثورة مسلحة إجماعية ضد الحكم البريطانى ، لأنهم كانوا يأملون بعض الإصلاح ، ودليلنا تلك المفاوضات السلمية التى دارت بين العراقين والسلطات العسكرية التى أظهر فيها العراقيون من طيبة القلب وحب السلم والمحافظة على النظام ما يدين المستعمرين بأنهم البادئون بالعدوان ؛ فقد وصموا الأحرار بأنهم مفسدون ، والأبرياء بأنهم مجرمون (١٤) ، ولا أدل على حب الشعب للسلام والرفق من أبيات الشعر العامى التى منها :

(ردنه الرفك وياه ماصح بيدنه) (١٥)

أما السبب المباشر للثورة العراقية ، فهو سجن الشيخ شعلان أبو الجون شيخ عشاير الظوالم ، وتعنيف الحاكم السياسى له وتوبيخه ، فجاءت جماعة من عشيرته وأخرجته عنوة من السجن ، وبعد ذلك حاصرت العشيرة الحامية البريطانية وقطعت طريق القطار (١٦) وأخذت الثورة تنتشر بين القبائل . وقد ساهم بعض الضباط العراقين فى الثورة . وحدثت عدة معارك أشهرها معركة (الرارنجية) ، وانتصر العراقيون على الجيش المحتل ، فهز هذا الانتصار العواطف ، وحسب الثائرون أنهم قادرون على اكتساح المستعمر من

---

(١٣) رسالة مخطوطة من قبل الشاعر .

(١٤) يلاحظ كتاب شيخ الشريعة الأصفهانى فى (الحقائق الناصعة) ص١٥٧ ومابعدها وفى تاريخ القضية العراقية ص ١٩٦ .

(١٥) أى أردنا منه الرفق ولكن لم نتمكن من الفوز به (العراق فى دورى الاحتلال والانتداب) ص ٥٣ الحاشية . لاحظ فى الوقائع الحقيقية ص ١٣٩ . رأى الأستاذ البازركان وص ٦٩ وفى تاريخ القضية العراقية رأى السيد محمد صدر الدين .

(١٦) تاريخ القضية العراقية ص ٢٠٠ وما بعدها .

البلاد ، فقد نظّموا أنفسهم تنظيماً حديثاً ،وألفوا المجالس الإدارية لتسير أمور البلاد ، ووزعوا حكاماً على بعض المناطق ، وقاموا بأمور أخرى دلت على نضج قادة الثورة . وأهم ميادين الثورة كانت منطقة الفرات ؛ فعندما أخرج الشيخ شعلان انتشرت الثورة فى الجنوب ، كما انتشرت الدعوة إلى الجهاد التى أذاعها رجال الدين(١٧) ، وقد سجل محمد مهدى الجواهرى أعمال الثورة فى الفرات بقوله :

وللفرات نهضة مشهودة لا تجحد
هاجوا بها لا لعب فيما أتوا ولا ددُ
غطارف من الظبا صرح لهم ممرد
وفتية على المنى أو المنايا احتشدوا

ويتطرق إلى واقعة الرميثة (العوجة) ، التى تركت الثناء المخلد فى صفحة التاريخ ، وقد ذكر الجواهرى خسارة الإنكليز ومنها خسارة قطارين مسلحين أرسلا للقضاء على الثورة فقال :

وللقطار وقعة منها تفر الكبد
ما تركوا حتى الحديد سلسلوا وقيدوا (١٨)

وقد خسر البريطانيون بارجة كانت قادمة لمحاصرة الكوفة ، وبعد أن ألحقت أضراراً بالغة بالثوار وبالأهلين ،ضربها الثوار بمدفع غنموه من القوات الإنكليزية فى معركة الرارنجية ؛ فقال الجواهرى يسجل هذا الحادث (١٩) :

وإن أنس لا أنس الفرات وموقفاً به مثّلت ظلم النفوس الفظائع
غداة تجلى الموت فى غير زيّه وليس كراء فى التهيب سامع
بباخرة فيها الحديد معاقل تقيها وأشباح المنايا دوارع
تشير وألحاظ البروق شواخص إليها وأمواج البحار توابع

(١٧) الحقائق الناصعة ص ١٩٢ وما بعدها .
(١٨) ديوان الجواهرى طبعة ١٩٢٨ ص ٩٧ .
(١٩) الوقائع الحقيقية ص ١٥١ والحقائق الناصعة ص ٢٣٨ .

ويصف جنوحها بعد أن ضربها الثائرون بقوله :

هنالك لو شاهدتها حين نكّست كما خر يهوى للعبادة راكع
هوت فهوى حس وظلم تمازجا بها وانطوى مرأى مروع ورائع (٢٠)

والملاحظ أن مدينة بغداد كانت قد تزعمت حركة الثورة باديء الأمر ، وقادت الشعب نحوها ، وقد أرسلوا ضباطاً لتدريب الأفراد ، وحاولوا مساعدتها مالياً (٢١) لكنها لم تشهر السلاح أو تقم بعمل حربي ؛ لأنها كانت تحت السيطرة البريطانية المباشرة وقد قضت السلطات على كل من اشتغل في الثورة ، فقد نفت بعضهم وأعدمت آخرين (٢٢) وقد انتشرت الثورة في بعض مناطق أخرى من العراق كالدليم وديالى . وعلى الرغم من أن هناك بعض معارك حربية جرت في غير الرميثة ، إلا أن الحظ لم يساعدني في العثور على شعر غير قصيدة مصطفى جواد ، ويصف فيها جانباً من ثورة الخالص في لواء ديالى يقول فيها :

ثبتنا في مواقف محرجات ولاقينا مدافع وانفجارا
وذدنا عن حمى وطن مباح ورمنا في معاركنا انتصارا

وفي القصيدة يصف الأعمال التي قامت بها سلطات الاحتلال ؛ فبعد أن استولت على الخالص أسروا جميع القادرين على حمل السلاح ، وكتفوهم وقتلوهم سراً ؛ أربعة أربعة ، ثم ألقوا بهم في الطرق والمخارج والمداخل ، ثم أنتنت جثثهم وليس لهم من يدفنها ، حتى تراجع الهاربون بعد العفو العام فدفنوهم ، فقال :

شباب أعرسوا بالموت مُرْداً وكان رصاص قاتلهم نثارا
وتابعهم كهول القوم زفاً فوا حزناً لمن تركوا الديارا (٢٣)

---

(٢٠) الديوان ص ٥٤ .

(٢١) الوقائع الحقيقية ص ٢١٨ والحقائق الناصعة الصفحات ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٥٨٧ .

(٢٢) الحقائق الناصعة ص ١٣٦ – ١٣٧ وفي غمرة النضال ص ٢٥٩ وص ٢٦٠ والعراق في دوري الاحتلال والانتداب ص ٩٤ و ٩٥ ج ١ .

(٢٣) الشعور المنسجم ديوان الأستاذ مصطفى جواد المخطوط ، ويلاحظ بشأن الثورة في ديالى ، تاريخ القضية العراقية ص ٢٣٤ .

والأستاذ مصطفى جواد كان شاهد عيان لهذه الحادثة ، ولم يقتل لأنه كان صغيراً . وقد حدثني المرحوم والدى الكثير عن الضحايا فى المعارك الإرهابية التى اقترفها الاستعمار . وقد كانت لوعة النساء والرجال مستعرة لسنين طويلة لم يقم بعدها للخالص قائمة ؛ فما ثارت وما انتفضت بعدها .

وعلى هذه الفواجع يقف شاعر عراقى ساخراً منها ومن الثائرين ، فيقول شامتاً :

لقد تشتت عن خوف ومن نـــدم	جيش حوالى ديالى كان محتشدا
ماكنت أرجو على علمى بنزعتهـــا	أن يبدو الشر من أبنائها فبدا
أحزمْ بناس رأوا فى أرضهم فتنـــاً	فلم يكونوا لمن قاموا به عضدا (٢٤)

(٢٤) ديوان الزهاوى ص ١١٠ .

— ٤ —

أثر الثورة

فشلت الثورة ، فلم يقدر العراقيون على مقاومة قوى الاستعمار الفتاكة ، وقد كان رد الفعل عنيفاً فى نفوس الذين تفاءلوا كثيراً ، وأثارت نتائج الثورة الألم والحسرة فى القلوب . فقد ضُربت بعض المدن والقرى بالطائرات ، وهاجر بعضهم ومعهم المواشى والأطفال فراراً من قصف المدفعية الثقيلة ، وخوفاً من سطوّة المستعمرين ، والتجأ بعضهم إلى الكويت ، ناجين من الإيذاء ، وقد تركت الهجرة بعض البقاع مهجورة قفراً ، فقال سعد صالح يصف هذه البقاع ولماذا تركها أصحابها :

سئمت العيش فى وطـــن   يضام يــذل يضطهـــد
محتــه يد القضاء فــرا   ح لا روح ولا جســد
عفت تلك الربــوع فــلا   قديمــات ولا جــدد
رياض صــوّحت ومهــا   ذعــرْنٍ ومجمعٌ بدد (١)

وقد وقف محمد مهدى الجواهرى متعجباً من إيذاء الإنكليز للشعب ، وهم مسيحيون ، والدين المسيحى دين يأمر بالمحبة والسلام ، وهؤلاء المسيحيون يسفكون الدماء البريئة ، ويخالفون أوامر دينهم :

على أى عذر تحملون وقد نهت   قوانينكم عن فعلكم والشرائع
على رغم روح الطهر عيسى أسلتم   براء دماء هوّنتها الفظائــع

وقد وصف الجواهرى الديار الخالية التى تركها أهلها فراراً فقال :

---

(١) سعد صالح ص ١٣٦ بغداد ١٩٤٩ .

وقد راعني حول الفرات منــازلٌ تخلّين عن ألآفهــــا ومرابع
دوائـــر من بعد الأنيس توحشت وكل مقـــام بعد أهليه ضائـــع

وقد كان الجواهرى يطفح بالأمل والبشر والإيمان على الرغم من فشل الثورة فى أهدافها ؛ لأنها برهنت للعالم على أن العربى الذى فى قلبه هذا العزم والثبات فى سبيل حريته لن يموت ، ولن يقدر عليه أجنبى ، أو يكبح أمنيته فى سبيل عروبته فقال :

فإن ذهبت طى الرياح جهودنا فعرضك يا أبناء يعرب ناصع
ثبتّ وحسب المرء فخراً ثباتُه (كما ثبتت فى الراحتين الأصابع) (٢)

وعلى عكس الجواهرى كان سعد صالح قد آلمه خسارة الثورة ، وكان رد الفعل عنيفاً على نفسه ؛ فسيطرت على روحه ظلال التشاؤم والألم ، فقد كان يأمل الفوز والنصر . ولم يتأخر الزهاوى عن رثاء القتلى ، ووصف ماحاق بالبيوت من الألم ، وبأسر القتلى من أحزان بدماء الشباب التى أراقها المستعمر الغريب ، فقال :

ماذا بضاحيـــــة الرميـ ـثة من غطارفــة جحاجح
ولمن أقيمت فى البيـــو ت على كرامتهـــا المناوح
ولأية ندبت من الليــــ ـــل الحمـــامات الصوادح

ووصف ماحاق بالقوم فى أثر شهداء الثورة الأبرار ، فقال :

ولقد أصــــاب القـــوم ما أبكى العيون من الفـــوادح
إذ هاجمـــوا يوم الـــوغى غلب المـــدافع بالصـــفائح

ورثا الشباب الحر بقوله :

لهفى على الغـــــر الشبـــا ب مجنـــدلين على الصحاصح
ولقـــد تغـــوّر جرحـــهم بين الترائب والجـــوانح (٣)

---

(٢) ديوان الجواهرى ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) ديوان الزهاوى ص ١٧٦ ونشرت فى الأدب الجديد لمحمد جمال الهاشمى .

إن فشل الثورة ليس معناه موت أمة ؛ وإنما هو عود إلى الكفاح وإلى النضال حتى تتحقق مطاليبها ؛ لذلك فالشعراء أخذوا يضمدون جروح الألم ويملئون المستقبل بالابتسامة والأمل . ومادامت الأمة تبسم للرجاء ، وتنظر إلى المستقبل نظرة التفاؤل والنصر ؛ فسوف يكون لها ماتريد ، ولن يقف أمامها مستعمر ، أو يحول دون وعيها وإدراكها وقوتها حائل ؛ فقد يتمكن المستعمر أن يؤخر عليها آمالها ، ولكن هيهات له أن يحرمها منه ، فقد قال الجواهرى :

صبراً وما طاب لكم ... مـرعـاكمُ والمورد
صـبراً وما عُوِّدتمو ... من قبل أن تُضطهدوا
إن رفعت رواقهـا الـ ... حرب فأنتم عُمـد
وأنتم إذا الوغـى ... أعـوزها من يوقد
نيران حرب يصطلى ... الأدنى بها والأبعد(٤)

أما أولئك الذين أخذوا يلومون القائمين بالثورة ؛ لأنهم لم يكسبوا عاجلاً أو أنهم خسروا آجلاً ، فهم أناس قصيرو النظر ؛ لأن الثورة سوف تبقى مؤججة فى النفوس، وسوف يحمد للقائمين بها أعمالهم ، ولن يبخل التاريخ بتسجيل ماقدموه للشعب من تضحيات ؛ فقد قال أبو المحاسن فى سجنه بعد الثورة :

إن يـذم اليوم قوم غرسنا ... فلنا من بعدُ حمد المجتنى (٥)

ولم يقر المواطنون بالهزيمة المادية التى لحقتهم فى المعركة ، وواصلوا العمل من أجل الثورة ومكافحة القوات المحتلة ، فقال خيرى الهنداوى :

ويك لا أرتضى الحياة بذل ... قم فمزق إهابها تمزيقـا
وأدر لى فى الرافدين محيا الـ ... حرب وكسِّر الإبريقا (٦)

---

(٤) الديوان ص ١٠١ .
(٥) الأدب العصرى ج ٢ ص ١٣٧ .
(٦) الأدب العصرى ج ١ ص ١٦٨ . وديوانه المخطوط عندى نسخة منه .

إن موتاً فى ســـاحة العـز لموتٌ أجدرْ به أن يروقا

يا لقومى لقد دهتها الدواهى وهى تأبى من نومها أن تفيقا

وقد واصل خيرى الهنداوى الدعوة للثورة بعد عودته من منفاه فى هنجام ؛ لأنه لم يؤمن بفشل الثورة ، فقال :

لست من هاشم إذا لم أقــدها شزباً توقد الوغى إيقادا

ومنها يقول :

قم فجند من عزمك الأجنادا واركب العزم واقتعده جوادا (٧)

أما الذين لم يكونوا راغبين فى الثورة ، فلم أجد غير شاعرين ؛ هما على الشرقى ، وجميل صدقى الزهاوى ، وقد كتبت للشيخ الشرقى رسالة أسأله فيها لِمَ لم يكن من الداعين إلى الثورة العراقية ، وهى ثورة ضد المستعمر فأجاب (إن الثورة مقدسة وأهدافها سامية ، وأنا من خدامها والعاملين لها من يومى حتى الساعة (٨) ، وإن الشعب العربى كان ولايزال فى أشد الحاجة لها . وإنى والصفوة من أصحابى كنا نريدها ثورة قومية شاملة ولا نريدها إقليمية ؛ إذ فى الإقليمية مضيعة للهدف وانتثار للقلادة ..) وبذلك يتكشف لى رأى جديد من وجود جماعة أرادت للثورة العراقية أن تتأنى ، حتى يقيم العرب ثورة عامة ينضمون إليها جميعاً ، ولعلهم نصحوا القائمين بالثورة بالتروى وعدم الإسراع ، ولما فشلت الثورة ورأى الشرقى الخسارة التى لحقتهم قال :

يا ثــورة أعقبتهـــا ندامـــة الثـــوار

كم فى سرارى عتبٌ لو تســمعون سرارى

هذا اختيارى ولــكن بالجبر أصل اختيارى

تدارك الله شــعباً بهم بالانتحـــار (٩)

ولم يكن الشاعر قد حدد رأيه عندما نشر هذه الأبيات ، ولكنه عاد

---

(٧) ديوانه المخطوط .

(٨) كانت الرسالة سنة ١٩٥٧ .

(٩) جريدة العراق العدد ١٨٥٣–٧– الثالث من حزيران سنة ١٩٢٦ .

فحدده عندما نشر ديوانه ، فكانت قصيدة عامرة قال فيها .

كنا نحاول أمـــراً   يفـــوق كل اعتبـــار
أهـــدافه   تتغنى   بوحـــدة الأقطـار
نريد تشييد صـــرح   من فوق تلك السوار(١٠)

أما السيف الحاد الذي كان مصلتاً على الثورة فقد كان الزهاوى ، فقد رأيناه يمتدح الثوار ، ويرثى الشهداء ويرفعهم عالياً فى شعره ، ولكن ماأن تطأ رجل « برسى كوكس » أرض العراق حتى نسى كل شىء ، وإذا به يلقى كلمة مسهبة يصور بها حال العراق بالرجل العليل الذى برح به السقام من الثورة التى أصبحت فتناً واضطراباً ، ويرجو القادم المستعمر أن يسارع فى إيجاد العلاج اللازم لهذا المريض ، بأن يخمد الثورة ويقطع دابر الفساد ،(١١) ومع أن الثورة لم تكن قد خمدت حتى ذلك اليوم ، فإنه تجاهل شعور الرأى العام وتحداه فقال :

عد للعراق وأصلح منه ما فســدا   واثبت به العدل وامنح أهله الرشدا
الشعب فيك عليك اليـوم معتمدٌ   فما يكون كما قد كان معتمـدا

ثم هاجم زعماء الثورة ، ووصفهم بأنهم بغاة الشر ، أرادوا أن يفسدوا فى الأرض ، ولن يخمد شرهم ويقضى عليهم غير الحاكم العام فقال :

ارأف بشعب بغاة الشر قد قصدوا   إثارة الشر فيه وهو ما قصـــدا
أما وقد جئت مصحوباً بمقـــدرة   فلا أبالى أقـام الشر أم قعـــدا

تختلف نظرة الناس إلى الأعمال ، وخاصة تلك التى لايكتب لها النجاح ، ولكن هنالك الأعمال الوطنية التى يؤمن بحقها الأحرار الذين يواصلون العمل من أجلها ، فستبقى غايتهم ومطلبهم . وقد احتضن قادة الرأى والشعراء فكرة الاحتفال بذكرى الثورة ؛ كيلا يتسرب الوهن إلى النفوس ولاتخاذ الذكرى سبيلاً لمواصلة الكفاح ، وليست حياة الشعور المغلوبة على أمرها

(١٠) ديوان الشرق ص ١٧١ .
(١١) يلاحظ نص الخطاب فى جريدة العراق العدد ١١٢–١–١٢ ت ١ سنة ١٩٢٠ .

إلا كفاحاً وثورة ، ومتى هدأت واستكانت إلى الهدوء والسكينة ، فقد غلبت على أمرها . وقد تخلف عن ركب الثورة جماعة استفادوا ؛ فبعضهم فاز بمنصب وآخر فاز بمغنم ، ولكن كل هذه المغانم كانت بنظر الوطنيين مغانم محسوبة على سمعة الشخص . وقد رأى أبو المحاسن الخيانة التى كانت فائدة لبعض هؤلاء ، ففازوا بالتقرب من المستعمر ، وتركوا إخوانهم فى المحن والآلام فلسعهم بقوله :

من رجال نقضوا ميثاقهم وجزّوا بالسوء فعل الحسن
أظهروا ما أضمروا من حقدهم وبدت بغضاؤهم بالألسن

ويوجز رأيه بالنتيجة التى آلت إليها الثورة بقوله :

ثورة أصبح من آثارها حظوة الخائن والمفتتن
معشر فى نعم قد أصبحوا من مساعى معشرٍ فى محن(١٢)

وقد امتاز محمد صالح بحر العلوم برأى طريف فى شعره ، فهو لم يقل : إن القبائل قد قامت بالثورة ، ولم يقل : إن الشعب العراقى قد ثار بل يتطرق إلى القادة والزعماء ، إنما خص الفلاحين وحدهم ؛ فهم الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم ، وبذلوا الغالى والرخيص ، ولكن لم يغنموا من وراء ذلك شيئاً . وقد اتفق مع « أبو المحاسن » فى أن نتائج الثورة ذهبت لغير القائمين بالثورة فقال بحر العلوم :

قف بالرميثة وانشد الفلاّحا هل نال من ماضى الجهود فلاحا ؟
أدمت نواظره النوائبُ واصطلت أحشاؤه تتناوب الأتراحا
قد كبلته يد الصروف وأطلقت لذوى المطامع فى البلاد سراحا
يتنعمون بكدّه ووجوههم لولا عنايته لزال وراحا (١٣)

ويتطرق فى قصيدة أخرى إلى حالة العراق العامة وما أصابه من تأخر

---

(١٢) الأدب العصرى ج ٢ ص ١٣٧ .

(١٣) العواطف ٨٩ .

وانحطاط ودعا الجموع إلى الثورة ، وبغير الثورة لن يزول الانتداب الذى ينفذ سياسته الخائنون فقال :

سياســــة شرعهــا الانتـــداب فقام فى تنفيــذها الخائنون (١٤)

وبحر العلوم من المؤمنين إيماناً عميقاً بالثورة والآملين فى ثورة أخرى تصلح أمور العراق العامة ، وتقمع جشع الأدنياء الذين يعبثون بمقدرات الشعب فقال :

ولم تزل أسيافنــــا باقيــــة يقطر منها من نجيع الدمـــاء
تريد منــا وثبــة ثانيـــــة تقمع فيها جشع الأدنياء(١٥)

وقد كان خيرى الهنداوى من أولئك المؤمنين بضرورة مواصلة الثورة ؛ لأن الثورة لم تحصل على أهدافها ، وإنما بدأ الصراع بين الشعب وبين المستعمر القوى الذى لا يحترم إلا القوى الثائر ، فعلى الشعب المصابرة والكفاح والنضال حتى يستكمل سيادته وحريته ؛ لأن الحياة الحرة لا تكون إلا للمناضلين فقال :

لا يستحق العيش قـــوم لا يريــدون الجــلادا
فصنـــاعة المـــوت الزؤا م صنـاعة تمحـو الفســادا
وســـوى الأسنـــة والمـــوا ضى البيض لا تشفى الفـؤادا
أولى الأنـــام بحـــرمة فى الرأى أكثرهم جلادا(١٦)
وأخصهـــم بتجلـــة من كان أكثرهم جهـــادا

وقد كان الشعراء يعدون أذهان الناس إلى ثورة أخرى ؛ كى يحرروا أنفسهم من الاستعمار ، فبالرغم من مرور مدة طويلة على الثورة بقى العراقيون يرسفون تحت أقدام الاستعمار تارة باسم الانتداب وطوراً باسم الوصاية أو الحماية ؛ لذلك لم يبق المستعمر أمام الشعب غير الثورة لإخراجه من

---

(١٤) العواطف ٩٩ .
(١٥) العواطف ص ١٠٠ .
(١٦) ديوان الهنداوى .

أرضه ؛ فإن ما أسماه بالحقوق أو محاولة تخدير الشعب بأسماء مختلفة من الحكومات ماكانت تخفى عليهم ، فقال الجواهرى :

إن كان طال ذا الأمـــد فبعد ذا اليوم غـــد
ما آن أن تجلوا القـــذى منها العيون الرُمّـــد
أسيافكم مرهفـــة وعـــزمكم منقـــد
هبّـــوا كفتكـــم عبرة أخبـــار من قـــد رقـــدوا
هبـــوا فعن عرينـــه كيف ينـــام الأســـد

ويأمل ثورة عربية لا تخمد أوراها حتى تحقق أهدافها فقال :

وثـــورة بـــل جمـــرة ليعـــرب لا تخمـــد
أججهـــا آباؤهـــم والحـــر لا يستعبـــد(١٧)

وإن كان الشعب فقيراً لا يملك القوى التى تذود عنه ، ولا الجيوش التى تناهض الخصم العنيد ، وتقاتل جنوده المدربة خير تدريب وبأسلحته الحديثة ؛ فقد كان للشعب قلوب تنبض بالإيمان ، ونفوس لا تقدر عليها الجيوش الجرارة ، ولا الأسلحة الحديثة .

(١٧) ديوان الجواهرى ص ٩٧ . سنة ١٩٢٨ .

وقف المؤرخون من الثورة موقفين متغايرين ؛ فقد رآها بعضهم مخيبة للآمال التى ثاروا من أجلها(١٨) ، ورآها آخرون ناجحة أدت رسالتها بإنشاء حكومة وطنية ذات سيادة ، وأنها أنقذت العراق من أن يكون مستعمراً تابعاً للهند .

وقد احتار المؤرخون مرة أخرى فى النتائج التى وصلت إليها الثورة وفى الأسباب التى أدت إلى فشلها . ولعل سبب هذه الحيرة وهذا الموقف هو حكمهم ، الذى جاء معتمداً على الظواهر العامة والنتائج الآنية التى أحاطت بالثورة ، وفاتتهم الإحاطة التامة بأمور العراق الاجتماعية والاقتصادية ، وأثرها فى النتائج السياسية وأثر العوامل النفسية فى اتجاهات كل ثورة .

فعزى فشل الثورة إلى قوة الجيش المحتل وسيطرته التامة ، وضعف القوات العسكرية الثائرة وقلة عتادها وعدتها دون ذكر للعوامل النفسية العميقة الأثر ، فعندما احتل الإنكليز العراق لم يكن العراق بلداً بدائياً ليست له مثله وتقاليده التى تربط المجتمع بالفرد ، إنما العراق بلد شعت منه الحضارة والمدنية ، وتركت آثارها واضحة فى نفسية الفرد وشخصيته وتفكيره ، وتركت حدوداً غير بارزة أو واضحة المعالم فيه ؛ لأن الطبيعة العربية البدوية كانت تمد العراق دائماً بآثارها ومثلها ، ويمكننا لسهولة البحث أن نصنف هذا المجتمع إلى فئات :

١ — الفئة الأولى وتضم رجال الدين وشيوخ العشائر وبعض أبناء الأسر القديمة وبعض كبار الموظفين من العراقيين .

---

(١٨) الحقائق الناصعة الصفحات ٤٧٣ و٥٠٣ و ٥١٥ .

٢ ـ الفئة الثانية وتضم المتعلمين وأكثرهم من الموظفين والضباط .
٣ ـ الفلاحون وصغار الموظفين وسكان المدن بصورة عامة من غير الفئتين المذكورتين .

وكانت الفئتان الأولى والثانية لهما مكانتهما الدينية والزمنية ، وسطوتهما ؛ فشيوخ العشائر متضامنون مع عشائرهم وتثور معهم العشائر ، وكثيراً ما تصفح الدولة عنهم لعدم قدرتها وسيطرتها ، ورجال الدين مرهوبو الجانب للمكانة العلمية والدينية . وكانت الفئة الثانية قد أمنت العوز والفاقة بحكم الرواتب والوظائف . وقد كان الدين الإسلامى ومثل المجتمع العامة محترمة ، لا يجروء فرد على الخروج عليها ، ثم فتح الإنكليز العراق فاضطربت هذه المثل وتخلخل المجتمع ، فاضطربت الحياة العامة ؛ فقد دخل الإنكليز العراق بالقوة ، وكانوا يفرضون الاحتلال العسكرى بقوة السلاح والإرهاب ، ولم يتسامحوا مع أحد مهما كبرت منزلته أن يقف فى وجههم ، وأن يحد من سلطانهم وسطوتهم ، سواء كان هذا الفرد شيخ عشيرة أو رجل دين أو ابن أسرة عريقة ، بل السلطة كانت تمعن فى إذلال الذين حاربوها . ولم يكن الشيوخ ينسون هدر كرامتهم التى تعتبر جزءاً من كرامة العشيرة ، تصونها العشيرة وتذود عنها ؛ فلم تكن مشيخة رئيس القبيلة إقطاعية بحتة ، وشيخ القبيلة يجب أن يكون من أبنائها ومن خيرة الأبناء(١٩) . وقد رأى رجال الدين ما حاق بالبلد وقد استعمره الأجنبى البعيد عن الشعب فى الدين واللغة ، ولا يمت له بصلة قريبة أو بعيدة ، فهالهم الأمر . وقد فقد الموظفون العون الاقتصادى والمكانة التى كانوا يرفلون فيها ، ولكنهم صبروا وصابروا بعد أن بذل المحتل وحلفاؤه الوعود الخلابة فى سبيل تحرير هذا الوطن ، غير أن الأمور لم تسوّ على الوضع الذى كان يأمله الوطنيون . فكانت الثورة ؛ فاندفع أبناء الشعب لتأييدها متأثرين إما بالفتاوى الدينية أو بمناصرة شيخ القبيلة أو مدفوعين بالخطب والقصائد ، ولكن سرعان ما ذهب الحماس .

(١٩) تطور الأمر بعد ذلك لدى بعض رؤساء القبائل وتنافسوا فى حيازة أكبر رقعة من الأرض . وقد أراد بعضهم أن يجعل له حقاً فى الدستور . راجع مذكرات المجلس التأسيسى ص ٨٩٩ـ٩٠٨ والقوى المؤثرة فى الدساتير ـ للدكتور طلعة الشيباق ص ٢٠ بغداد ١٩٥٤ .

وقد كان العامل الاقتصادى فعالاً ؛ فالعراق كان يمر بأزمة اقتصادية ، فقد تعطلت الصناعة والتجارة والزراعة مذ جند العثمانيون القادرين على حمل السلاح ما بين عشرين سنة حتى الأربعين ، فأقفرت القـــرى والمدن من الرجال(٢٠) ، وقبلت البدل النقدى الذى دفع الناس للاقتراض بفائدة بلغت ٦٠٪ ، ثم صدرت العملة الورقية التى زادت التدهور سوءاً .

وكان احتلال الإنكليز سبباً لانشغال الشعب بالأمور السياسية عن التجارة والزراعة(٢١) . ولما عاد الضباط والموظفون من سوريا والحجاز وجدوا أنفسهم بلا عون مالى يساعدهم ؛ فقد شغل الهنود والإنكليز من الوظائف أحسنها وأكثرها(٢٢) ، فاتفقت مصالحهم مع مصالح الشعب ، وكونوا فئة ضد المحتل لاستعادة الضمان الاقتصادى ، وما تأخروا فى مساندة الثورة : وبعودة العون المادى بعثرت بعض القوى ، وكان ذلك سبباً فى فشل الثورة انتبه إليه أحد المشتركين فى الثورة فقال : (ولو أن جميع الساسة والمعنيين بالقضايا العامة عندنا ارتفعوا قليلاً عما هم عليه من انكباب على زخرف الحياة ومتاعها ، وخففوا قليلاً من إعراضهم عن الإلحاح فى المطالبة بحقوق البلاد ، لما رأينا الحالة السيئة التى تنحط الآن ، ولاستطاعوا تكملة رسالة الثورة) (٢٣) وتجلى هذا الخصام فى سبيل المصالح بين الأحزاب ، بينما كانت الثورة مستعرة الأتون ، وأفقد الخصام توحيد القيادة بين الضباط ورؤساء القبائل(٢٤) ، حتى بين شيوخ العشائر أنفسهم فى الجبهات المتعددة (فأهل المشخاب كانوا لا يعلمون أى شيء عن ثورة تلعفر ، وهكذا

---

(٢٠) كثر عدد الهاربين من الخدمة حتى أصدر أنور باشا أمراً بإعدام نصف الهاربين المقبوض عليهم وإرسال النصف الآخر إلى ساحة القتال .

(٢١) تاريخ مقدرات العراق السياسية لأمين العمرى جـ ١ ص ١٤١ بغداد سنة ٩٢٥ .

(٢٢) **Bell, G. Review of The Civil Administration of Meso-potamia (London 1920) p. 122.**

(٢٣) الوقائع الحقيقية ص ٢٣٨ .

(٢٤) تاريخ القضية العراقية ص ١٤٥ ويراجع بشأن معالجة مشكلة (الأفندية) الذين كانوا ضباطاً وموظفين فى الدولة العثمانية وسخطوا . كتاب هيلدن الصفحات ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ .

بالنسبة للمحمودية وقبائل زوبع (٢٥) وكانت بعثرة القوى — برغم وجود الإخلاص العميق — عاملاً في فشل الثورة .

وقد كان العامل النفسي مؤثراً في الثورة . فالعراقي عاطفي سريع التهيج ، فردي يحب أن يسود ولايقر بحكم فرد . ولست من علماء النفس لأحلل هذا ؛ وإنما أسرد ما أعرفه بتجاربي المحدودة . ومن عرف هذه النفسية يمكنه أن يستغلها خير استغلال . وقد قامت الثورة على عامل الحماس الذي اندفع بالفتاوى والخطب والشعر ، ولكن هذا الحماس لم يدم ؛ إذ لم تكن جذوره عميقة ، ولما استقر بعد ذلك واصل الشعب الكفاح في سبيل حريته واستقلاله.

أنا من المؤمنين بأن الثورة كانت ثورة فيسبيل الحرية والاستقلال وبسطت فيها رأيي ، فإن لم أوفق فقد فاتتني أمور عسى أن يسجلها الباحثون ، خاصة والعراق لا يزال بكراً يجب أن يدرس اجتماعياً لتطوير مجتمعه وتقدمه .

إن فشل الثورة كان سبباً في خلاف دب بين العراقيين(٢٦) ؛ فمنهم من بقي يتفاخر بها وهم من ذوي الإيمان العميق ، ومنهم من نسيها وما حفل بها . والاختلاف في المثل العليا موجود في جميع المجتمعات ، ويبرز واضحاً في فشل أية ثورة والانتصار عليها ، والويل للمغلوب من الغالب . وتعدد الآراء في أمر يعكس لك جوانب المجتمع نفسه ، فقد بدا التناقض واضحاً ، وطغى على الأسلوب والمعنى ، وغطى على اللفظ والكلمة ؛ لأن الشعر عامة كان حطباً جزلاً لإلهاب نيران الثورة ، فبذل الشاعر كل قدرته في هذا النظم العجلان ، ليهز المشاعر ويثير الخواطر ضد المحتل الذي هيمن على مقدرات الوطن ، ويذكر الناس بالذل والهوان (٢٧) ، وبالرغم من أن كثرة شعر الثورة ذهب واندثر فإن رائحته الذكية العطرة تدفعنا دائماً نحو حرب المستعمر ، والثورة في وجه الظلم والطغيان .

---

(٢٥) الوقائع الحقيقية ص ٢٣٨ .

(٢٦) لاحظ حديث شعلان أبو الجون على سبيل المثال ص ٤١ في محاضرات عن العراق .

(٢٧) ذكر ذلك الدكتور البصير في مقدمة ديوانه البركان الذي طبع في أثناء طبعي لهذا الكتاب .

— ٥ —

عرش العراق

كان من نتائج الثورة التعجيل بالتفكير فى إنشاء دولة وطنية ، واستبعاد جعل العراق مستعمراً تابعاً للهند . وبذلك أثبت الشعب بأنه قادر على فرض رغبته على الإنكليز برغم ما لديهم من عدة وعدد . فالخسائر التى منى بها الاستعمار كان صداها يتردد فى مجلس العموم البريطانى ، فثار على الحكومة ، ورددت ثورته الصحف ، وثار جدل عنيف حول موقف الإنكليز فى العراق حتى طالب بعض ساستهم بالانسحاب من العراق كله ، وطالب بعضهم بالاحتفاظ بالبصرة ، اقتصاداً فى الأرواح والنفقات . وقد اضطر لويد جورج للتصريح فى المجلس بأن العراقين يجب أن يحكموا أنفسهم ويشكلوا حكومة عربية ، تقدم لها بريطانيا المساعدة فى إدارة البلاد وحفظ الأمن فى ربوعها ، وبذلك يرضى العراقين ، ويرضى المجلس ويقتصد فى النفقات ، ثم يرضى فريقاً من الإنكليز الذين يرون من مصلحة بريطانيا تحقيق بعض وعودها للعرب . وكانت أولى هذه الخطوات إرسال برقية تتضمن الدعوة إلى إنشاء دولة أوكل أمر تنفيذها إلى السير « برسى كوكس » ، وطلب إليه إنشاء وزارة مؤقتة برياسة رئيس عربى ، وانتخاب مجلس يمثل السكان . وقد شكلت الحكومة المؤقتة برياسة السيد عبد الرحمن الكيلانى ؛ فواجه العراق مشكلة لم يعهدها من قبل فى حياته السياسية ؛ فالوزارة عراقية المظهر ولكن مع كل وزير مستشار ، فكان الحكم مزدوجاً شاذاً ؛ فعلى الرغم من أن « كوكس » هو الذى اختار أعضاء الوزارة ، وأنه هو الرئيس الأعلى فقد وضع معهم المستشارين لإدارة دفة الحكم . وكانت الوزارة ممثلة تمثيلاً طائفياً عشائرياً ؛

ليسكن الاضطراب الذى عم البلاد ويهدئ من حدة الثورة المشتعلة (١) .

وبينما كان العراقيون والإنكليز يستعرضون أسماء من يولونه السلطة فى العراق ، حدثت معركة « ميسلون » وسقطت المملكة العربية فى الشام ، فكان إخراج فيصل سبباً فى ترجيحه على سواه ، وأيد هذا الترشيح مؤتمر القاهرة برياسة ونستن جرجل(٢) وبدأت الحكومة المؤقتة والإنكليز فى إعداد الجو لمرشح العرش فوصل إلى بغداد فى حزيران ١٩٢١ ، ورشحه المندوب السامى البريطانى فى بلاغ أصدره وشرح فيه السياسة البريطانية فى العراق ، ولم ينس البلاغ أن يقول إن العراق غير مستعد لحكم جمهورى لأنه متأخر(٣) فما كان من مجلس الوزراء إلا الطاعة والمناداة به ملكاً واشترط أن تكون حكومته دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون (٤) .

توج فيصل وكانت النفوس قلقة من وجود جيش الاحتلال ، وأفكار الشعب مضطربة حيرى ، بعد أن أخفقت الثورة ، فظن بالعهد أنه سيكون جديداً وسيتمتع العراق بالاستقلال الكامل . وخيبة الأمل التى سيطرت على النفوس وآثار المرارة الظاهرة فى حاضرهم المزير ؛ من معاملة سيئة إلى هدم للقرى وتشريد أبنائها ، وجمع الأسلحة والغرامات الباهظة ، وإبعاد الزعماء وسجنهم (٥) خيل لهم أنهم سيجدون فى قدومه سبباً للتغيير لطول فترة

---

(١) العراق الحديث ص ٤٥ ومقدمة فى دراسة تاريخ العراق المعاصر ص ٥٣ ويلاحظ كتاب آيرلند

Iraq, A Study in Political Development p. p. 70, 71, 200,221.

(٢) العراق الحديث ص ٤٤-٤٦ ومقدمة فى دراسة تاريخ العراق المعاصر ص ٦١

Foster, H., The Making of Modern Iraq p. p. 94,227 (London 1936).

(٣) ظهرت فكرة الجمهورية ولكن الإنكليز قتلوها . راجع حياة الشرق تأليف لطفى جمعة ص ٢٨٢ ومجلة القرى ١٨و١٩-٧-١٩٤٦ والأدب العصرى جـ ١ ص ١٧٠ وفى غمرة النضال . الصفحات ٩٦-١٤٣ و ٢٦٣ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب جـ ١ ص ٢٠٦ وأيام فلبى فى العراق الصفحات ٣٨ و ٣٩ و ٤٥ .

(٤) يراجع منشور مجلس الوزراء فى مجلة الفلاح العدد ٢٦ و ٢٧ أغسطس ١٩٢١ .

(٥) العراق الحديث . متى عقراوى ص٤٣ بغداد ١٩٣٦ ، وكتاب هيلدن ٢٣١ و ٢٥٦ و ٣١٤ .

اليأس والقنوط التي رانت على النفوس ، فهي أشبه بالغريق الذي يتشبث بأعواد القش ، ولذلك نجد بعضهم استرسل في أحلامه وكأنه عاش في أمانيها فترة من الزمن . وقد نسي هؤلاء الشعراء قوة جيش الاحتلال البريطاني وما لها من تأثير على إدارة دفة العراق ، حتى إن الزهاوي نظم ديواناً كاملاً سماه (هتاف الإخلاص) ، ولكنه سماه بعد ذلك (القصائد المطرودة)(٦) .

وكان يدفع الشعراء إلى النظم حب الفخر والمباهاة التي هي طبيعة الفنان ، الذي يريد أن يظهر فنه ، وينشره بين الناس ، فيعجب به الناس ، وترتفع مكانته بينهم ، وإشباعاً للذة الإبداع التي حرم منها شاعر القرن التاسع عشر ، ووجد ميداناً لإبداء ما يعانونه من وجود الاحتلال وتأخر بلادهم في مناحي حياتها السياسية والاقتصادية والعلمية(٧) .

ولعل أبرز ظاهرة هي الظاهرة العربية المسلمة ، واختفاء النزعة الإسلامية البحتة التي كانت تغطي شعر القرن التاسع عشر . والملاحظ أن الشعراء أسبغوا الحق الإلهي على الرئيس الأعلى الحاكم وأنه مقدس ولا ينافس ، وأن قوله هو الحق الإلهي . ولهذه النزعة جذورها في الشرق العربي ، فقد جاءت من أثر الحكم العثماني ؛ فأعطى هذا الحق السلطاني للحاكم الجديد . ويجد الدارس لهذه الفترة اتكالية بعض الشعراء ، وخيالاً واسعاً في المطاليب ، ويفيض الشعر بنعوت وألفاظ كثيرة وضخمة(٨) . ويمكن للباحث أن يجد في شعر هذه الفترة صورة الفوضى وعدم الاستقرار ، وقوة الشعب المعنوية في سبيل حقوقه(٩) .

---

(٦) جريدة العراق العدد ١٦١٨ السنة السادسة .

(٧) جريدة العراق ٣٢٩-٢-١٩٢١ والفلاح العدد ١٨ السنة الأولى والعدد العاشر الصادر ١٢ تموز ١٩٢١ .

(٨) لسان العرب العددان ٧و١٦-١-١٩٢١ وجريدة العراق ٢٣٣ و ٢٣٥ -٢- ١٩٢١ والفلاح الأعداد ٧ و ١٣ و ١٨ و ٢٦ و ٢٧ السنة الأولى ١٩٢١ ولب الألباب ، محمد صالح السهروردي ص ١٤٠ ج ١ بغداد ١٩٣٣ .

(٩) جريدة العراق العدد ٢٣٢٥-٨-١٩٢٧ ومجلة الفلاح العدد ١٩ سنة ١٩٢١ والعدد ٢٦ ٢٧ الصادر في أغسطس ١٩٢١ والعدد ٢٠-٤-١٩٢١ .

الفصل الرابع

مشكلات العراق السياسية

١٩٢٠ – ١٩٣٩

١ – حالة العراق العامة بعد الثورة

٢ – أثر الانتداب البريطاني

٣ – الشعر والمعاهدات والساسة

٤ – عبد المحسن السعدون

– ١ –

حالة العراق العامة بعد الثورة

بعد أن فشلت الثورة العراقية حربياً دخل العراق دوراً جديداً من حياته السياسية ؛ فقد استأنف العراقيون النضال السياسى من جديد ، ولم يفت فى عضدهم خسارتهم فى المعارك التى شنت ضد القوات المحتلة للحصول على الاستقلال والحرية . وقد امتاز هذا الدور بأنه كان دوراً سلمياً ؛ إذ حاول العراقيون الحصول على الاستقلال بالمفاوضات التى كانت تدور بينهم وبين الإنكليز ، للتخلص من عبء الاحتلال البريطانى الذى لا يتفق وأمانيهم القومية ، إذ أرادوا الحصول على ما حصل عليه إخوانهم فى سوريا والحجاز ؛ فقد شكلت دولة عربية فى الحجاز وأخرى فى سوريا ، ولم يكن العراقيون بأقل رغبة ولا كفاءة من إخوانهم فى هذين القطرين ، ثم إنهم ناضلوا جميعاً وضحوا كما ضحى إخوانهم فلِمَ استعمر العراق من الإنكليز وحكم حكماً مباشراً من قبل قواتهم العسكرية ، وضرب عرض الحائط برغباتهم فى حق تقرير مصيرهم ؟ كره العراقيون أن يكونوا تحت الانتداب البريطانى ، برغم الدعوة التى صاحبته من أن فترته ستكون مؤقتة حتى يقدر العراق على حكم نفسه بنفسه ، وليس الانتداب سوى تقديم النصح والإرشاد للعراقيين حتى يجتازوا هذه المرحلة ؛ لأن العراقيين لم يكونوا واثقين من هذه الأقوال . والانتداب فى حد ذاته معناه الاستعمار ، وعدم تحديد فترة الانتداب ونقض عهود الحلفاء ثانية أضاع ثقة العراقيين بالإنكليز ، وكان من جرائه أن يعتمد الشعب على نفسه فى المقاومة ليتحرر . ولم تجد جميع المحاولات التى بذلها السير « برسى كوكس » فى إقناع العراقيين بقبول الانتداب حتى إنه قال :

إن الانتداب والاستعمار عند العراقين على حد سواء[1] ؛ لأنهم قارنوا بين حكم الأتراك وحكم الإنكليز . فزادت كراهيتهم للحكم البريطانى .

كان الإنكليز يريدون أن يرضوا العراقين ؛ ولكنهم لا يريدون أن يتخلوا عن العراق ، فحاول المندوب السامى إبدال الانتداب بمعاهدة تعقد بين الطرفين ليخدر العراقين بإنشاء حكومة وطنية مؤقتة . ويبدو سوء نية الإنكليز ومخادعتهم للعراقين واضحاً من الخطاب الذى ألقاه المندوب البريطانى فى عصبة الأمم مؤكداً بأن مبادئ الانتداب ستبقى مضمونة ، بالرغم من وجود هذه المعاهدة (٢) .

ولما شكل السير « برسى كوكس » حكومة مؤقتة ، عهد إليها إدارة بعض شئون الدولة ، وقد حدد المندوب السامى صلاحيات الوزارة التى تستمد سلطانها منه مباشرة ، ووضع مع كل وزير مستشاراً أوجب حضوره مع الوزير فى مجلس الوزراء وأوجب موافقته على القرارات حتى تنفذ ، كما صنع مثل ذلك فى الألوية والأقضية ، وأبقى بعض المناطق تحت سيطرة الحاكم البريطانى مباشرة ، وكان القصد الأول منها تسكين الثورة وإسكات المدافع (٣) لبسط النفوذ البريطانى بعد تهدئة الأحوال العامة فى العراق .

أصبحت الآن وزارة فى العراق ، وأصبح للعراقين حكومة مؤقتة ، هذا هو ظاهر الحال ، ولكن الحقيقة غير هذا ؛ فإن بريطانيا أرادت حل مشكلة العراق بتخدير العراقين فعقدت بعد ذلك معاهدة بين السير « برسى كوكس » وبين الوزارة التى انتخبها كوكس نفسه ، لا تختلف فى نصوصها عن صك الانتداب بشىء سوى أن جعلت العراق حكومة مستقلة

---

(١) تحرر العراق من الانتداب ص ١ – ٤ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب صيدا ١٩٣٥ ص ٢٠٠ والجزء الثانى ص ٥٣٥ من كتاب مس بل المطبوع فى لندن سنة ١٩٢٧ .

(٢) تحرر العراق من الانتداب ص ٥ .

(٣) جريدة العراق ١١٢ بشأن استقبال برسى كوكس والعدد ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، المقالات الافتتاحية للتمهيد للحكومة الموقتة ، و ١٢١ ص ٢ وافتتاحية ١٢٢ ، ١٢٣ وما بعدها بشأن لجنة الانتخابات العراقية وغير ذلك من المقالات فى نفس السنة عن الوضع العام ، والعدد ١٢٥ أسماء الوزارة المؤقتة وتعتبر الجريدة خير سجل رسمى .

ومنتدبة فى نفس الوقت ؛ لذلك لم يرض الوضع العراقيين لما تضمنته هذه المعاهدة من انتداب حقيقى واستقلال مزيف .

ومما زاد الطين بلة والألم فى نفوس العراقيين مد أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة بعد أن كانت أربع سنوات(٤) .

إن العراقيين لم يكونوا راضين على أى حال من أحوال الانتداب ، فلم تفتهم ألاعيب الاستعمار مطلقاً ، يتجلى ذكاؤهم عندما بايعوا فيصلاً على شرط الحصول على الاستقلال التام ، وقد كان فيصل يؤكد ذلك الشرط فى جميع خطبه على الناس قبل انتخابه وبعده(٥) ، كما أن العراقيين كانوا يؤكدون على فيصل رغبتهم فى الاستقلال التام فى جميع ما ألقى من شعر ونثر ، ويؤيد ذلك زعماء القبائل الذين كانوا يلحون برفض الانتداب والمطالبة بالاستقلال التام(٦) ، وقد تشكلت بعض الأحزاب السياسية مثل « الحزب الوطنى العراقى » و «حزب النهضة العراقية(٧) » فساعدت على بلورة الرأى العام ، وكانت تعقد بعض الاجتماعات السياسية التى توجه بها الرأى العام نحو الاستقلال ، وقد عقدت اجتماعاً مشتركاً أسفر عن إرسال احتجاج إلى الملك فيصل ، ثم السير فى مظاهرة سلمية تعبر عن سخطهم على الانتداب ، والمناداة بسقوطه وسقوط إنكلترا(٨) وباءت محاولات الوطنيين بالفشل (٩) ، لكنها نجحت فى عرقلة المعاهدة ووضع شرطين مهمين :

---

(٤) يراجع مشكلة الموصل للتفصيل .

(٥) فيصل بن الحسين فى خطبه وأقواله . أصدرته مديرية الدعاية سنة ١٩٤٥ يلاحظ ص ٢٣٢ وما بعدها من الخطب .

(٦) جريدة المفيد العدد ١١٤ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ وما بعدهاج٢ .

(٧) يراجع بشأن تأسيس الأحزاب « ذكرى فيصل » تأليف محمد عبد الحسين – بغداد سنة ١٩٣٣ ص ٤٥ .

(٨) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٩ وما بعدها ج ٢ .

(٩) حاول الوطنيون عرقلة الانتخابات وطالبوا بسحب المستشارين من الألوية لأنهم يتدخلون لصالح بريطانيا ، فما كان من الحكومة إلا استعمال الشدة فنفت الشيخ الخالصى وولديه وغيرهم إلى إيران ، وطلب فيصل من عبد المحسن أبو طبيخ مغادرة العراق فسافر إلى سوريا . مقدمة فى دراسة العراق المعاصر ص ٧٢ .

الأول : الدخول مباشرة فى مفاوضات تضمن إعادة النظر فى المعاهدة لضمان المطالب الوطنية ، والثانى : صيانة حقوق العراق فى ولاية الموصل ، إذا فشلت بريطانيا فى إلحاق الموصل بالعراق فتعتبر المعاهدة ملغاة(١٠) . لم تكن المعاهدة لتختلف عن صك الانتداب بشىء فالمادة الرابعة حتمت على ملك العراق أن يستشير المندوب السامى فى جميع الشئون المهمة ، وأن يستشيره استشارة تامة فى كل ما يؤدى إلى سياسة مالية .

وقد حاول الوطنيون عرقلة تصديق المعاهدة بوسائل متنوعة منها مقاطعة الانتخابات ، وطالبوا بسحب المستشارين الإنكليز من الألوية ؛ لأن وجودهم يعرقل سير الانتخابات ، ويمنع الموظفين العرب من العمل بحرية تامة ، وطالبوا بإعادة المنفيين خارج العراق ، فأثر ذلك فى سير الانتخابات وعطله ، فاتخذت الحكومة طريق الشدة ، ونفت جماعة إلى خارج العراق (١١) فسارت الانتخابات حتى نهايتها ، ثم جرت حفلة افتتاح المجلس التأسيسى فى ٢٧ آذار ١٩٢٤ ، ولما عرضت المعاهدة على بساط البحث قوبلت بمعارضة شديدة فاستعمل الملك فيصل نفوذه الشخصى ، وأقام المآدب فى البلاط لكى يقنع النواب بالتصديق ، وذكرهم بما حدث له فى سوريا ، ثم أحرجهم قائلاً : «لاتتركوا فيصلاً معلقاً بين الأرض والسماء» ومع ذلك كله لم يوافق المجلس على التصديق حتى هدد المندوب السامى بإعلان الحكم المباشر على العراق إذا لم تصدق المعاهدة(١٢) . ولما انعقدت الجلسة الأخيرة تخلف النواب عن الحضور ، ولم يحضر من المئة سوى تسعة وستين نائباً وصادق عليها سبعة وثلاثون نائباً ، وبذلك أبرمت المعاهدة تحت الإرهاب (١٣) ولكن المجلس التأسيسى سجل على نفسه ثقل وطأة المعاهدة على الشعب(١٤) .

---

(١٠) مجموعة مذكرات المجلس التأسيسى العراقى ص ٤٤٠ — ٤٤١ بغداد سنة ١٩٢٤ .

(١١) على أثر نفى الخالصى وخروج ابى طبيخ ، خرج بعض العلماء من العراق احتجاجاً على فعل الحكومة كالسيد أبى الحسن ومحمد حسين النائينى . زكى صالح ٧٠ ، والحسنى ٣٠ ، ٣١-٢ .

(١٢) الحسنى ٨١ ج ١ .

(١٣) الحسنى ٨٣ وزكى صالح ٧٢ .

(١٤) الحسنى ١٣٨ ومذكرات المجلس التأسيسى .

وبعد تصديق المعاهدة أصبح للعراق وجهان مختلفان ؛ فهو لا يزال دولة منتدبة فى نظر عصبة الأمم ، ولكنها مع بريطانيا دولة حليفة مستقلة محدودة صلاتها بإنكلترا بمعاهدة تحالف(١٥) . وبعد المعاهدة العراقية — الإنكليزية برزت مشكلة الحدود بين العراق وتركيا ، اقترح لأجلها أن يمد أجل الانتداب إلى خمس وعشرين سنة بناء على اقتراح لجنة الحدود(١٦) ؛ فحفز ذلك العراقيين إلى إنهاء أجل الانتداب ، فوضعت مادة جديدة لم يوافق عليها العراقيون سميت معاهدة ١٩٢٧(١٧) ، ولكن هذا الرفض لم يقطع الصلة بين العراقيين والإنكليز ، وإنما أظهر للإنكليز صعوبة السير فى مثل هذه العلاقات ، فرفعت تقريراً إلى عصبة الأمم تشرح هذه المشكلة بكل جلاء وصراحة ، فقد جاء فى التقرير « للعراق سياسة وطنية ومع هذا فهو تحت الانتداب ، وإن الوزراء مسئولون أمام البرلمان وفى عين الوقت تحت سيطرة المستشارين الإنكليز(١٨) .. » ولم يكن أمام الطرفين المتنازعين غير أمر واحد هو إدخال العراق فى عصبة الأمم لحسم النزاع ؛ إذ أن دخول العراق عصبة الأمم سوف يجعله دولة مستقلة ، وبذلك سينتهى الانتداب الذى كره العراقيون اسمه وحاربوه ولعنوه(١٩) ، ليرضوا الرأى العام ، ويسكتوا أصوات المعارضة المطالبة بالاستقلال (٢٠) .

وقد تم دخول العراق إلى عصبة الأمم بعد عقد المعاهدة العراقية الإنكليزية الجديدة التى صودق عليها من قبل مجلس النواب فى السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٣٠ . وبالمعاهدة الجديدة ودخول العراق عصبة الأمم فى الثالث

---

(١٥) خدورى ص ٦ .

(١٦) League of Nations, Question of Frontier Between Turkey & Iraq, C. 400. M. 147, 1925, pp. 88-89.

وخدورى الصفحة ٦ .

(١٧) الحسنى ١٣٧–١٤٩ وزكى صالح ٧٥ .

(١٨) زكى صالح ٧٧ وخدورى ص ٧ والتقرير البريطانى ص ٢٧ .

(١٩) خدورى ص ٤ الحاشية .

(٢٠) كالجرائد والأحزاب والشعراء كما سنرى . ومن المقالات راجع لفهمى المدرس (مقالات) ج ١ بغداد ١٩٣١ فى أكثر مقالاته .

من تشرين الأول سنة ١٩٣٢ ، أصبح العراق مستقلاً وقادراً على أن يحكم نفسه بنفسه (٢١) .

بعد دخول العراق عصبة الأمم أصبح له كيان عالمى معترف به رسمياً ، وقد التفت العراقيون بصورة عامة يلتمسون الإصلاحات الداخلية . وليس هناك حوادث لها أهمية كبرى أثرت فى الشعر العراقى تأثيراً كبيراً غير الانقلابين العسكريين اللذين قام بهما الجيش العراقى ؛ فقد كان الأول فى ٢٩– تشرين الأول – ١٩٣٦ بقيادة بكر صدقى العسكرى ، إذ أرغم وزارة الهاشمى على التخلى عن الحكم(٢٢) ، أما الحادث الثانى فهو انقلاب رشيد عالى الكيلانى ، وقد امتاز هذا الانقلاب بصبغة وطنية ؛ لأنه كان ضد الإنكليز فكسب عطف الوطنيين ،وأثار فى نفوسهم ما كمن من رغبة فى تحقيق الأهداف الوطنية التامة ، واستغلال الفرصة بمناسبة الحرب العالمية الثانية ١٩٤١ ، ولم يدم أمد هذا الانقلاب إلا حوالى الشهر ، وعوقب القائمون به عقوبة صارمة(٢٣) ، ثم لما هدأت الأحوال وعادت الأمور تجرى فى مجاريها السابقة ، اصطلى العراق بنار الحرب العظمى الثانية .

(٢١) خدورى ص ٣٥ .

(٢٢) راجع زكى صالح ص ١٠٢ فقد جاء على ذكر مصادر مهمة فى حاشية البحث .

(٢٣) للتفصيل راجع زكى صالح ص ١١١ والقصة الرسمية لقيادة إيران والعراق ومذكرات تشرشل عن الحرب العامة .

The Second World War Vol. III Ch XIV pp 224-237 (London 1950) See also « Paiforce », The Official Story of The Persia & Iraq Command 1941- 1946, H. M. Stationery Office.

— ٢ —

أثر الانتداب البريطاني

بعد فشل الثورة العراقية وسيطرة بريطانيا على العراق سيطرة تكاد تكون تامة ، كانت أول مشكلة واجهها العراقيون هي مشكلة الحكم البريطاني من احتلال وانتداب وما سمي بالاستقلال . وما جاءت فترة عقد المعاهدات المختلفة إلا لتبرير وجود الاستعمار البريطاني ، وتغيير مظهره لاسترضاء الشعب ، والحقيقة أن المعاهدات كانت تحويراً لصك الانتداب ، بذل العراقيون جهداً كبيراً في التخلص منها ونبذ النير الأجنبي . بدأت أعمالهم بالاحتجاجات السلمية وكانت تتطور أحياناً إلى مظاهرة يطالبون فيها بإلغاء الانتداب ، وإزالة السلطة الأجنبية عن العراق ، وإسقاط كل وزارة توقع أيه معاهدة لا تماشي ورغبات الأمة (١) ؛

ولم يكن الشعر متخلفاً عن المشاركة في العمل الوطني ؛ فقد كانت أهازيجه من أعذب الأغاني ، وأرق الأناشيد ، تدعو للاستقلال والحرية اللذين حرم العراق منهما طويلاً . وكان أثرها على العراق كبيراً إذ عمه الألم وشمله جو الحزن والكآبة ، وغدت أحاسيس الشعراء ألحاناً تندب أيام العراق الذهبية الوارفة الظلال ، ورأى أنها لن تتحقق بغير الكفاح والنضال والثورة والعمل المتصل ، واستخلاص الحق السليب من بين مخالب المستعمر . أخذ الشعراء يهيئون أذهان الشعب ، ويذكرونه بماضيه المجيد ليعيدوا له ثقته بالنفس ،

---

(١) أرسلت برقيتان إلى الملك فيصل الأول موقعتان من كثير من أبناء الشعب وأبرزهم السيد علوان الياسرى والسيد محسن أبو طبيخ والسيد قاطع العوادى والشيخ عبدالواحد سكر والشيخ شعلان أبو الجون (العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ و ٩) عن جريدة المفيد .

وليعرفوه بمنزلته بين الأمم الواعية ، ويظهروا المستعمر على حقيقته وأنه لا يقل عظمة ومقدرة عن المستعمر ؛ فهو ابن العرب الذين شادوا الإمبراطورية العادلة المتسامحة ، ومن الشعراء الذين شاركوا فى هذا النضال أبو المحاسن ، وقد كان وزيراً فاستقال بسبب المعاهدة (٢) ، ومن شعره الذى يفخر فيه بالعرب قوله :

بقومىَ أسمو راقياً شرف العـــلا ... وأسطو بهم يوم الوغى وأصول
هم القـــوم أما عزّهم فمشيّـــد ... تليد وأما مجـدهم فأثيـــل

وليزيد الثقة فى النفوس يعرج فى القصيدة إلى شمائل العرب الكريمة وسجاياهم السمحاء فيقول :

شمائل كالروض الأريض تضوعت ... بطيب شذاه شمأل وقبـــول
كرام يقيلون العثـار وللـــردى ... بظل عواليهم ذرا ومقيـــل
لهم جبل راسى الجوانح راسـخ ... وظل لمن يأوى إليـه ظليـــل
فلا العهد منقوض ولا الوعد مخلف ... ولا الجار مخفور الذمام ذليـــل

ولرغبته فى التأكيد على إعادة الثقة بالنفس فضل العرب على غيرهم من الأمم ، وقد برر هذا التفضيل بعلمهم وإحسانهم وعدلهم وحضارتهم فقال :

يا ناطقـــاً بالضاد ما لفضيلـــة ... معنى يتم بغير حرف الضـــاد
أو ليس عصر النـــور من آثارهم ... قبست لواضع نوره الوقاد
والعلم من ثمرات غرسهم الـــذى ... عمّ الورى بفواضل وأيـــاد
والعدل والإحسان من حسنـــاتهم ... وهى التى جلّت عن التعداد
وعلى مبادينـــا الحضارة أسست ... أيام ليست غيرهن أيـــادى

ولا يكتفى الشاعر بالماضى المجيد والحضارة العربية الشامخة وفضائلهم الكريمة (٣) ، إنما يلقى التبعة على الشعب العربى الذى يعيش ، ويقول صراحة

---

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ ج ٢ .

(٣) جريدة المفيد العدد ٢١٥ السنة الثانية ١٩٢٤ .

إن إرادة الشعب هى التى تغير فساد الأوضاع وليس هناك غير إرادته الحديدية من مغير حينما قال :

سر أيهــــا الشعب سيراً ... إلى العـــلا غير هــائب
فسيف عــــزمك مـــاض ... ونهج حقــنك لاحــب
إرادة الشعــــب أقـــوى ... عــزاً وأمنــــع جانــب
ما غـــولب الشعــب يومــاً ... إلا وذا الشـعب غالــب (٤)

ولم يتخلف معروف الرصافى عن هذا المضمار ، فقد ألقى قصيدة فى إحدى حفلات المدارس هز فيها مشاعر العراقيين ، وذكّرهم بماضى العرب المجيد ، وما قدموه للعالم من حضارة ، عندما كانوا متحدين أقوياء ، وطلب من أبنائهم أن يقتفوا أثر الآباء الكرام ؛ لأن الحياة الكريمة الشريفة لاينالها غير المناضلين المجاهدين الأباة ، أما الخاملون الذين لا يحفظون تراث الآباء ولا يسيرون فى الطريق الذى ساروا فيه ، فجدير بهم الموت والإهمال الدائم ، فقال يندد بهم لأنهم لم يحفظوا هذا التراث قائلاً :

وقد عهــدوا لنا بتراث مُـــلك ... أضعنــــا فى رعايته العهـــودا
وعاشوا ســــادة فى كل أرض ... وعشنا فى مواطننا عبيـــدا (٥)

وشتان بين والد كان سيداً أينما حل ، وولد أضحى عبداً مستضعفاً مسترقاً فى عقر داره ، يحكمه المستعمر ويذله ، فما سبب استرقاق العرب فى أوطانهم ؟ !

---

(٤) المفيد العدد ٤٧ السنة الأولى ١٩٢٢ وله قصيدة فى العدد ٨٨ من السنة نفسها . وللشاعر مشاركة فى جريدة المفيد يستفيد منها الباحث ليطلع على أدبه ولاحظ العدد ١٧٤ من جريدة لسان العرب السنة الأولى ١٩٢٢ ، فقد نشرت له قصيدة فى افتتاحية الجريدة وهناك قصائد أخرى ، فله قصيدة فى العدد ٤٢ من السنة الأولى من جريدة المفيد يتحدث فيها عن الشعب وعن الوحدة العربية وحوادث سوريا والعدد ٨٨ ، ولعبد الرحمن البناء قصيدة فى العدد ٩٠ من الجريدة نفسها ، وله قصيدة أخرى فى العدد ٢٥٣–٢–٩٢٤ وقصيدة لمهدى صالح العدد ١٦٥–١–١٩٢٨ ولأحمد حق الحلى قصيدتان فى جريدة النهضة العراقية .

(٥) جريدة العراق ٣١٢–١–٩٢١ ونشرت فى الديوان ص ٣٤ ، ولاحظ ص ٦٣ من الديوان .

يشرح الشعراء هذه الفكرة ويعزون ضعف العراق إلى تخاذله ، وإلى قوة المستعمر . وقد سرت هذه الفكرة بين الأدباء والصحافيين فهذه جريدة الزمان تكتب فى مقال افتتاحى لها تحت عنوان (استضعفونا فأهرقوا دماءنا — بريطانيا مسئولة عن هذا الضعف) ثم شرحت فى المقال ما أصاب العراق من تأخر تحت نير الاستعمار البريطانى ، وقالت إنها السبب الأول فى هذا التأخر فلم تصنع شيئاً فى سبيل تقدمه ورقيه (٦) ، وأخذت الجرائد عامة تندد بالانتداب الذى وقف حائلاً دون أمانى الشعب ، ولن تتطهر أرض العراق إلا إذا بذل أبناؤها أرواحهم رخيصة فى سبيلها . وما الحياة سوى تنازع على البقاء ، فقد قال هبة الدين الشهرستانى :

ليس الحياة سوى مجـــال تنـــازع   فى العيش والأقوى هو المنصور(٧)

وقد ساعد الشعر الوطنى على بث روح الحماس فى النفوس ، ودعا إلى النضال والكفاح وعدم مهادنة المحتل ومسامحته ؛ لأن التسامح معناه الرضا بالذل الذى حاق بالبلاد ، وأورثها الأحزان والآلام ، ولن يدفع المستعمر عن حمى الوطن غير لم الشمل والقوة والثبات ؛ لأن ضعف الشعب أغرى المحتل ، وقال العبيدى مؤيداً هذا الرأى :

أترى يبلغ المـــرام ضعيف   إنما يبلغ القوىُّ المـــراما

واتحـــاد القلـــوب أفضل قوس   حين ترمى أيدى الكماة السهاما

ويعجب للشعب كيف يحتمل الذل والهوان ، وهو المعروف بصلابته فى سبيل حقه فقال :

ما عهـــدنا العـــراق يحمـــل ذلاً   ويحابى نذلاً ويحوى طغامـــا

إن ضعف النفوس أطمـــع فيـــه   طالما الضعف أطمـــع الظلّاما.

---

(٦) الزمان ٢٧–١–٩٢٨ لاحظ جريدة العاصمة العدد ١٠٨ السنة الأولى ١٩٢٣ المقال الافتتاحى (اعتماد الشعوب على نفسها) وغير ذلك من أعدادها و (المفيد) وكثيراً من الجرائد التى كانت تصدر فى هذه الفترة .

(٧) جريدة العاصمة ١٩٩ فى ٤ تموز ١٩٢٣ ولاحظ قصيدة حافظ جميل فى جريدة الاستقلال العدد ١٦١–٣–٩٢٣ وقصيدة حمزة قفطان فى مجلة اليقين ١٨–١–١٩٢٣ .

وإذا لنت للئيم تـــــــــولى　　وإذا ما غمزته ما استقاما (٨)

وإذا أراد الشعب أن يتحرر فعليه أن يأخذ حريته بقوته ، لأن المستعمر إذا ما أعطاك حريتك ، فسوف يمن بها عليك ، فعلى العراقيين أن يأخذوا الحرية اقتساراً من المستعمرين ، فقال البصير :

أنا يا رفاق لا أريـــد ســــلامتي　　فتذكروني إن هلكت رفـــاقي

إن لم تعش نفسي العزيزة حـــرة　　فلأسعين بها إلى الإزهـــاق

لأجاهـــرن بما تجن ضمائـــري　　وليكثرن وسائـــل الإرهـــاق

هب أن رحمـــة أسرى ستكفني　　أو لست أحمـــل منة الإطلاق

فأشق من أسرى على بـــأن أرى　　يد آسرى يوماً تحل وثاق (٩)

وإلى جانب الدعوة إلى محاربة المستعمر ، كانت دعوات إلى المهادنة وإلى التسامح مع المحتل ، فوقف محمد باقر الحلى يرد على هؤلاء المهادنين ، ويسخر منهم فى حفلة عودة بعض المنفيين السياسيين فقال :

قالوا لنا اعتدلوا فى نهجكم أفـــلا　　قالوا انصفوا وحقوق الشعب تغتصب

ما الاعتدال تجـــاه الاعتداء سوى　　جبن ، يحسنه للقائل الرهب (١٠)

وبعد أن صادقت الحكومة على المعاهدة فى ١٠ تشرين الأول سنة ١٩٢٢ ، تركت أمر إبرامها للمجلس التأسيسى ، فقد كانت تشعر بعظم المسئولية ووطأة هذه المعاهدة على الشعب ، وقد أيد هذه الرغبة المعتمد السامى البريطانى فقد أراد إضفاء صبغة شرعية على المعاهدة ، وقد نص فى المعاهدة على وجوب مصادقة المجلس التأسيسى عليها .

---

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر فى ١٣ كانون الأول ١٩٢٩ .

(٩) جريدة شط العرب ١٤-١-١٩٢٤ وقد ورد البيت الأخير فى (حقيقة الزهاوى) بغداد ١٩٤٧ ص ١٠٩ :

فأشق من ويـــلات أسرى أن أرى　　يـــد آسرى يوماً تفـــك وثاق

ولاحظ قصيدة عبد القادر الزهاوى فى جريدة الأمل العدد ٢١-١-٩٢٣ وقصيدة الجواهرى فى الفلاح العدد ٢٣-٨ أيلول-٩٢١ .

(١٠) الفلاح العدد الأول ٧-٥ تموز ٩٢١ بمناسبة عودة السيد نور السيد علوان .

بدأت الجهود تبذل لتحول دون تصديق هذه المعاهدة ، وأول عمل قام به الوطنيون ، هو مقاطعة الانتخابات للمجلس التأسيسي ، ولكن الحكومة حاربت الذين سعوا في مقاطعة الانتخابات لتقضي على حركة المقاومة ، لكنها لم تفلح ؛ فقد انضم رجال الدين إلى المقاطعة ، وأفتوا بتحريم الانتخابات(١١) حتى يحولوا دون انتخاب مجلس يلزمهم بمعاهدة حورت عن صك الانتداب ، ثم إن السلطات الاستعمارية لم تكن واضحة المقاصد إزاء العراق ، ففي الوقت الذي تنادي فيه بالحرية والاستقلال ، والدعوة لتكوين حكومة وطنية دستورية ، تغلق الأحزاب وتعطل الصحف ، وتنفي أبناء الوطن لأنهم يشتغلون من أجل حريتهم واستقلالهم(١٢) ، تفعل كل ذلك دون أي ضمان أو حتى إيضاح لأعمالها ، ولو أرادت أن تعطي الضمانات والوعود ، ففي تجارب العراقيين ما يمنعهم من تصديق هذه الوعود والضمانات ، لذلك تعرقلت الانتخابات وتعثرت طويلاً ، وقد شعر نفر من أبناء البلاد بأن الانتخابات سوف تتم ، والانتخابات فرصة لإدخال بعض العناصر المناوئة للاستعمار ، ووجودهم داخل المجلس التأسيسي يؤثر أكثر من وجودهم خارج المجلس لصفتهم الشرعية ، وتأثيرهم المباشر على المعاهدة لتعديل بنودها لصالح العراق ، الذي قد يضمن استقلال العراق ويؤدي إلى تفاهم مع بريطانيا ، ويضمن مصالحها في الشرق الأدنى ، وقد أطمع دخول بريطانيا مع العراق في معاهدة بعض الوطنيين فظنوه أصبح نداً لها ، فخدعت بريطانيا جماعة من الوطنيين الذين اعتبروا المعاهدة تقدماً محسوساً في العلاقات البريطانية(١٣) ، وفاتهم أن العراق لا يزال مستعمراً ، وتعتبره عصبة الأمم تحت الانتداب البريطاني . كما ظن بعض المتفائلين بالانتخابات أن رفض المعاهدة من مجلس عراقي بصورة رسمية سيزيد من

---

(١١) أصدر رجال الدين فتوى بتحريم الانتخابات قالوا فيها (قد حكمنا بحرمة الانتخابات وأن الداخل فيها محارب لله ورسوله وللأئمة الطاهرين ..) وقد زاد عليها الشيخ مهدي الخالصي (وأن لا يدفن في مقابر المسلمين..) العراق في دوري الاحتلال والانتداب ص ٢٨ ج ٢ .

(١٢) جريدة العاصمة مقال بتوقيع (ع . صميم) العدد ١٦٨ صدر في ٢٣ من آيار ١٩٢٣ ولاحظ أعمال المندوب السامي في (ذكرى فيصل الأول) لمحمد عبد الحسين ص ٥٤ (بغداد ١٩٣٣) والعراق في دوري الاحتلال والانتداب ص ١٤ ج ٢ .

(١٣) لاحظ جريدة العاصمة المقالين الافتتاحيين ١٦٨ و ١٦٩ السنة الأولى ١٩٢٣ .

القوى المعنوية للشعب داخل العراق وخارج العراق ، فيجب أن تدخل عناصر وطنية مهمة فى المجلس التأسيسى ؛ لتقف فى وجه المعاهدة لتحقيق بعض مصالح البلاد . فكان انقساماً فى الرأى أعطى القوة للمستعمر فضرب المعارضين وقاومهم بعنف ، وأجرى الانتخابات تحت سيطرته وإرادته ، ولكن الحكومة فقدت ثقة الشعب منذ أول يوم من أيام الانتخابات .

ولم تعد له هذه الثقة بأى انتخابات جرت بعد ذلك . فشلت الخطوة الأولى من مقاطعة الانتخابات ، غير أن الوطنيين لم يفشلوا من محاولة أخرى هى الوقوف أمام المعاهدة حتى يتم تصديقها من قبل المجلس التأسيسى لاستبدال صك الانتداب بمعاهدة جرت البلاد إلى الويلات والمصائب . قالت جريدة الاستقلال فى مقال افتتاحى لها «إننا نريد أن يكون الميدان الذى ستدخلنا إياه المعاهدة ميدان سلم دائم ، لاساحة عراك تعكر ودّ الدولتين المتعاهدتين ، ميدان استقلال تام لاتشوبه شائبة الوصاية ، وصرح حرية مطلقة لايقيدها غل الانتداب . وبكلمة واحدة إننا نريد أن يكون ذلك الميدان ميدان استقلال ناجز لاسوق نخاسين ، سوق تمضى فيه أمة بأسرها صك رقها وعبوديتها..(١٤)».

وكانت الجريدة واضحة كل الوضوح ، فقد عبرت عن أهداف الوطنيين ووضعت الخطوط العريضة لأهدافهم فقالت : هذا هو الميدان الذى تريد أن تدخلنا إياه المعاهدة ، وذلك ما تريده الأمة بأجمعها ، وإننا نرجو أن يضعه المتعاقدون نصب أعينهم ، وأن يتذكروا عند بحثهم فى كل مادة من مواد المعاهدة.. » .

كان المستعمر يبذل جهداً كبيراً فى إمرار المعاهدة ، وقد شن حملة لتأييد هذا التصديق ، بيد أن الشعب كان يقظاً ؛ فإن رجال الفكر كانوا للمستعمر بالمرصاد ، فكانوا يعقدون الاجتماعات لبحث نصوص المعاهدة ، وإيضاح الأضرار التى تعود على البلاد من جرائها ، وكان المجلس التأسيسى يتأثر بالرأى

---

(١٤) جريدة الاستقلال العدد ٥٣ السنة ١٩٢٢ والعدد ٤٠٦ السنة الرابعة لاحظ مقالين لياسين الهاشمى وأمين الزهاوى وقد كان سلمان الشيخ داود من المؤيدين للمعاهدة — لاحظ مقاله المنشور فى جريدة العراق فى الخامس من نيسان ١٩٢٤ .

العام الخارجى الطامح بالحرية والاستقلال ، وعلى الرغم مما بذله المستعمر من جهود تارة بالقسوة وطوراً باللين لم يقدر على أن يغير وجهة نظر الشعب.

وكان من جراء هذا الوعى أن تجمهر الشعب حول بناية البرلمان ،وأغلقت الحوانيت حتى اضطرت السلطات إلى إطلاق النار لفض هذه المظاهرة . ولئن قضت على المظاهرة وتفرق شمل الشعب ، فقد تركت وراءها أثراً كبيراً وفى نفوس أبناء الشعب عزماً متوقداً (١٥) .

(١٥) يلاحظ فى جريدة العراق ١٣٢٤-٤-١٩٢٤ بلاغ وزارة الداخلية وبيان رئيس المجلس التأسيسى وفى أعدادها لهذا الشهر ذكر لما حدث فى العراق من جراء الانتخابات .

— ٣ —

الشعر والمعاهدات والساسة

جند الاستعمار الإنكليزى كل قواه المادية والمعنوية وبذل مجهوداً جباراً فى سبيل تصديق المعاهدة الأولى ، والمعاهدات التى تلتها ، ليوهم الرأى العام العالمى بأن المعاهدة وقعت من هيئة منتخبة لها صفتها الشرعية ، ولكن الشعب كان يقظاً وكانت طلائع النهضة الفكرية متوقدة ، تنير لهم السبيل إلى الحرية والاستقلال والأمن والرخاء . وقد اتخذ الزعماء طرقاً شتى ليحولوا دون وضع طوق المعاهدة فى عنق الشعب ، وكان الشعراء أشد الناس إحساساً ، وأسرعهم تلبية للواجب المقدس ، فقد شعروا شعوراً صادقاً بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، وصار هذا الواجب جزءاً من حياة الشاعر وتفكيره ، فكان يحذر النواب مرة من المصير المحتم الذى سيلاقونه متى غضب الشعب عليهم ، وسحب ثقته ورضاه بهم ، وتارة يسخر من المعاهدة التى تعطى العراق مظاهر الاستقلال الجوفاء ، وآونة يسخر من الوزراء والحكومة التى جاءت فى إثر المعاهدة . والحق أن هذه الفترة كانت من أخصب فترات الشعر السياسى ، ومن الوسائل التى التجأ إليها الشاعر تهديد نائب المجلس التأسيسى متى صادق على قيود الاستعمار بغضب الشعب وعقابه وأنه لن يرحم نواباً جروه إلى الذل والهوان ، ولن يرأف ساعة الحساب بمن أذلوه ، فقال عبد الرحمن البناء :

يأيها النائب المندوب عن أمم	ألقت إليه مقاليد التدابير
احذر مناقشة الشعب الحساب غداً	من دون عذر وإشفاق وتوفير
يوماً به الشعب يبدى الغيظ من أسف	هناك تقرع فيه سن مأسور

إن الصدور براكينٌ إذا انفجـرت   فى الأرض تنسف فيها كل معمور(١)

وقد كانت حملات الوطنيين متواصلة ، ألهبت صدر الشعب عامة ، فسرت روح الحماس إلى داخل المجلس التأسيسى ، بعد أن ظن الحاكمون بأن الأكثرية الساحقة من الأعضاء بجانبهم وفى جانب المعاهدة، وفى المصادقة عليها يكسبون حقاً شرعياً فى البقاء على أرض العراق . وأوهمهم بذلك تلك الجهود التى بذلت فى التمهيد للانتخابات ، ودخول بعض العناصر الإقطاعية ورؤساء العشائر ، ومن الموالين لهم ، لكن إلهاب الرأى العام من قبل قوى المعارضة الوطنية الثائرة فوت عليهم ما كانوا يعتقدون ، فقد أخذت ساعة التوقيع على المعاهدة تتأخر يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبر المندوب السامى « السير هنرى دوبس » ولم تجْدِ جميع المحاولات السلمية التى بذلت من وراء الستار فتيلاً ، فأخذ المندوب السامى يضغط بصراحة على المسئولين، ويأمر بوجوب التصديق على المعاهدة، وبلغت به الجرأة أن عين يوم إبرامها(٢)، وإلا فسيعلن الحكم المباشر فى البلاد، ولما أجل المجلس البت فيها إلى يوم تال ، هاله الأمر ، وذهب إلى الملك فيصل وطلب دعوة المجلس ليلاً ؛ لأن التأجيل معناه رفض المعاهدة . وقد دُعى المجلس ليلاً فلم يحضر الاجتماع سوى ٦٨ نائباً من ١٠٠ نائب وقبيل منتصف الليل تم التصديق على المعاهدة (٣) فتحول الانتداب إلى معاهدة .

وقد ظن الاستعمار بأنه سيخدع العراقيين بتحويره صك الانتداب إلى معاهدة ، وسيرضى العراقيين بثوب الانتداب الجديد ، بيد أن الخيبة شملت حتى الملك فيصل الذى سعى سعياً متواصلاً فى عقد المعاهدة، فرأى بأم عينيه كيف ضاع استقلال العراق (٤) . وناء الشعب بقيود المعاهدة وزاد

---

(١) جريدة الاستقلال العدد ٤١٣–٤–١٩٢٤ . ولاحظ قصيدتى حمزة قفطان فى العدد ٣٩٧ ومحمد خليل من العمارة فى العدد ٤٠١ من السنة نفسها .

(٢) عين المندوب السامى اليوم العاشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٤ لإبرام المعاهدة .

(٣) وافق ٣٧ وخالف ٢٤ وامتنع عن التصويت ٨ وكان الغائبون ٣١ – مذكرات المجلس التأسيسى ص ٤٣٥ – ٤٣٩ .

(٤) تحرر العراق من الانتداب – مجيد خدورى ص ٥ بغداد ١٩٣٥ .

الألم فى النفوس ظهور مشكلة الموصل التى انتهت بضمها إلى العراق على شرط مد أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة(٥) ، وقد مدت المعاهدة فعلاً ، فلم يكن أمام العراقيين غير النضال الجديد (٦) .

أعطت المعاهدة الجديدة الحكم للعراق ليؤلف حكومة وطنية لها ملك ودستور وبرلمان ، أعطته كل مظاهر الحكم الديمقراطى ، ولكن كانت هذه المظاهر معطلة عن العمل الفعلى ؛ لأن السلطات البريطانية هى الحاكمة حسب نصوص المعاهدة الأخرى ؛ التى نصت على وجوب الاستشارة التامة ، وهذا تدخل صريح فى سيادة العراق الوطنية قوبل بالسخرية اللاذعة من قبل الشعراء .

كان الشعراء ينظرون إلى الوضع العام العراقى ، والألم يهصر قلوبهم ونفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً ، ويبدو تارة بشكل سخرية لاذعة من الحكومة ووزرائها ونوابها ، وطوراً يظهر مشوباً بالرثاء لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم ممثلين على مسرح السياسة ، وأصبح المستشار الإنكليزى فيها المخرج والملقن ، وآونة نجد الشاعر متألماً جاداً ، يحاول معالجة الأمور برزانة وتعقل ، ويدفع الشعب إلى نبذ هذه المظاهر البراقة الكاذبة التى تعطى الاستعمار السيطرة الفعلية . وقد كان الرصافى سباقاً إلى تسجيل مظاهر هذا النضال ورسم صورة خالدة للتاريخ فى العراق ، فوقف ساخراً وقال :

هذى حكومتنا وكل شموخها ... كذبٌ ، وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها وموه وجهها ... فجميع مافيها بهارج زيّف
وجهان فيها باطن متستر ... للأجنبى وظاهر متكشف

---

(٥) لاحظ ماقيل من الشعر فى جريدة الاستقلال الأعداد ٢٥ و ٢٩١ السنة الرابعة و ٥٥٧ و ٥٧٦ السنة الخامسة و ١٣١٠ السنة الثامنة . وقد كتب الدكتور فاضل حسين رسالة عن (مشكلة الموصل) طبعت فى بغداد ١٩٥٥ تعتبر خير ماكتب عن المشكلة .

(٦) ما كانت بريطانيا تريد إنهاء الانتداب عن العراق ، فكان من جراء ذلك الصدام الذى أدى إلى رفض معاهدة ١٩٢٧ والتى وضعت بعد معاهدة ١٩٢٦ فانضمت بموجبها الموصل إلى العراق . لاحظ (مشكلة الموصل) الفصل السادس ١٧٦ و ٢٣٧ .

ويعدد هذه المظاهر الخلابة الكاذبة التي حاول الاستعمار أن يخدع بها العراقيين ، فقال :

علم ودستور ومجلس أمـــة ... كل عن المعنى الصحيح محرّف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها ... أما معانيها فليست تعـــرف
من يقرأ الدستور يعلم أنـــه ... وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يُلفِــه ... فى عز غير بنى البلاد يرفرف
من يأت مجلسنـــا يصـــدق أنه ... لمراد غير الناخبين مؤلَّف
من يأت مطّرد الوزارة يلفَها ... بقيود أهل الاستشارة ترسف(٧)

والقصيدة من غرر الشعر السياسى ، وأصدق مسجل للعهد الذى نظمت فيه . ولم يكتف الرصافى برسم صوره ، وتسجيل حوادثه ، إنما كان يحس بالواجب الملقى على عاتقه فى محاربة هذا الدخيل ، وهز حمية المواطنين ، ويصف الواقع عارياً أمام الوزراء ، ليعرفوا موقفهم وعملهم فى هذه الدولة ، فهم دمىً يحركها المستعمر لأية وجهة يريدها ، ليست لهم سيطرة على وزاراتهم يستمدون الصولة والسطوة كالآلات الصماء . لذلك خوفهم الرصافى من الأجنبى ، ومن المصير الأسود الحالك الذى ينتظرهم عندما يثور الشعب عليهم ، فستكون ثورته عارمة لن تبقى للمستعمرين والمتحكمين بقية ؛ لأن الشعب هو الحاكم الوحيد الذى له السلطان الفعلى على نفسه ، وإن استكان هذا الشعب فله يوم آخر يأخذ فيه استقلاله ، لأنه شعب عربى شريف أبى ، لم يرض بالاستعمار والذل ولن يرضى بالمستعمرين وأذنابهم ، ولن يتخلف عن سوح الشرف والجهاد فقال :

إن دام هذا فى البلاد فإنه ... بدوامه لسيوفنا مسترعف
لابد من يوم يطول عليكم ... فيه الحساب ، كما يطول الموقف
فهنا لكم لم يغن شيئاً عنكم ... لسنٌ تقول ، ولا عيون تذرف

(٧) ديوان الرصافى ص ٤٥٣ .

وإذا دعا داعي البلاد إلى الوغى أتظن أن هناك من يتخاف
أيذل قوم ناهضون وعندهم شرف يعزّ جانبيه المرهف
كم من نواصٍ للعدا سنجزها ولحى بأيدى الثائرين ستنتف

وتبدو سخرية العبيدى فى المتناقضات الموجودة فى نظام الحكم مع بعضها ؛ فالبلد مستعمر سيطرت عليه الفوضى يئن تحت الاستعمار ، متأخر ، ولكنهم يدعون بأنه ذو سيادة يسوده النظام والحرية والاستقلال ، ولكن هذا السيد الحر يقسر على عقد معاهدة لاستعباده . فقال :

نحن فى معجم السياسة شعب ربُّ مُلكٍ وما ملكنا حطاما
نحن فى معجم السياسة شعب ذو نظام وما رسينا نظاما
نحن فى معجم السياسة أحرا ر ، ولكنا قاصرون يتامى
فإذا الشعب كان غير رشيد كيف يدعى لعقد عهد لزاما

وتبدو ثورة العبيدى واضحة عندما يرى القيود التى كبلت شعبه وأذلته ، فما استطاع المقاومة المسلحة ، ثم تحولت هذه الثورة إلى آلام تنخر فى النفوس وظهرت شعراً يطفح بالتهكم المرير على الحليفة التى تقيد حليفتها لتستديم صداقتها وحلفها لدولة صغيرة ، والشعب متوثب يريد الانطلاق والحرية . أهذه هى الصداقة بين ندين متحالفين ، أم أنها سيطرة الذئب الشرس الذى يدس السم بالعسل ! ؟

خففى أيهـا الحليفة عنـا من قيود أصبحن عاراً وذاما
أثقلت كاهلاً وأدمت قلوباً وأذلت من النفوس كراما
كلما فكر العراقى فيها لعن الدار والحمى والمقاما
طليت عسجداً ودفت صديداً وأذيقت سمًّا وصبت مداما(٨)

أضفت المشاكل السياسية على الجو الشعبى العام جواً من الحزن واليأس والكآبة ، وران على العراق التشاؤم ، فطفح الأدب بالألم والنقمة والثورة ؛

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر فى ١٣ كانون الأول ١٩٢٩ .

فقد وجد العراقيون أنفسهم تحت نظام من الحكم جديد ، وكانوا خلال فترة الاحتلال والانتداب يحاربون الإنكليز وجهاً لوجه ، أما اليوم فقد وجدوا الحكم الإنكليزى قد تقنع بقناع عراقى ، فحال بينهم وبين العدو الأصلى .

بقى الناس فى حيرة وقلق واضطراب نفسى ، كان من جرائه الاضطراب فى المثل ، وظهور طبقة النهازين الذين لا يردعهم رادع من وطن أو خلق ، همهم الاستفادة على حساب الشعب وحساب المستعمر وحساب إخوانهم الذين تركوا فى ساحة الشرف والنضال . ألم يكن قسم كبير من هؤلاء يناضلون مع المناضلين ولكنهم هادنوا المستعمر راضين بالمظاهر الكاذبة والوظائف الموهومة ، وبذلك وضعوا سلاحهم وانثنوا عن الكفاح ؟ ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد ، بل أصبحوا شوكة فى قلوب المناضلين ، يردونهم عن الاستقلال ويدفعونهم عن الحرية ويضعفون معنوية الشعب ؛ ففتوا فى عضد القضية المشتركة التى مات من أجلها الشهداء ، ونفى الأحرار وسجن الأبطال ، وشرد من شرد وشنق من شنق . إن تغليب المصلحة الفردية على مصلحة المجموع كان خداعاً وخيانة ورياء ، لم يكن يتوقعه المخلصون . ولئن رضيت هذه القلة بالمجد الزائل والجاه الكاذب المؤقت ، ونسيت مصالح شعبها ، فإن أبناء الوطن المخلصين أكثر من هؤلاء المنشقين المارقين . فقد واصلوا الكفاح لنيل قسط من الاستقلال والحرية ، واعتبروا هؤلاء المنشقين جزءاً من المستعمرين يجب أن يحاربوا مثلهم ، ويصب عليهم سوط العذاب ، فلئن غلبهم الإنكليز على بعض إخوانهم بالقوة مرة ، وبالرشوة تارة ، وبالحيلة طوراً ، وبضمان مصالح الإقطاعيين ورؤساء العشائر ، فإن حقل الوطن واسع وميدان الجهاد حافل بالمخلصين . وكان من جراء خذل هؤلاء ازدياد الرغبة فى استخلاص حقوق الشعب من الدخيل المستعمر .

وقد تجلى ذلك واضحاً فى الشعر الحربى ، فوصف حال الشعب وصفاً دقيقاً صادقاً بعيداً عن بهارج الكلام وزخرف القول ، وتجلت الصورة بعيدة عن روح التعقيد اللفظى ، ومحاكاة القصائد القديمة ، إذ لم يجد الشعراء فى نفوسهم مجالاً حيوياً يتجاوب وأحاسيسهم الجديدة التى تحيط بهم ،

وتهددهم فى كرامتهم وعزتهم ، فكان الألم عميقاً حاراً ، والشعور دافقا فياضاً ، بعد أن وجد الشاعر نفسه جزءاً من المجموع تواجهه نفس المشكلات التى تواجه الشعب بأجمعه ، فرأى فى نفسه الشعب والشعب فى نفسه ، فأخذ يصرخ متحدياً قوى الانتداب وأذنابه من بنى جلدته ، مطالباً بالإصلاح ، ثائراً على تدهور الحال ، محتجاًعلى ماوصلت إليه بلاده . ومتى اتفقت مصالح الشاعر مع مصالح الشعب ، ومتى شعر الشاعر بشعور الشعب وعكس مصالحه ، فقد سار فى طريقه الذى يريده الشعب ، وفاز بالمجد والشهرة والتمجيد والخلود ؛ لذلك لم يكن الشعراء يريدون إبراز صورة فنية من صور الاحتلال وموالاة إخوانهم للاستعمار لتعجب الناقد ، فيستحسن جمال الخيال فيها ، ورقة الأسلوب ، وعذوبة البيان ، ورصانة العبارة ، إنما كانوا يحاولون إبراز مشكلات الوطن السياسية والاجتماعية بأسلوب سهل ، ليرسل الشاعر إشعاعاً من روحه ، وصرخة من قلبه ، ليوقظ الشعب الذى لا يزال يعيش فى الديجور ، ففاضت قصائد العصر بالحماس ، واضطرمت بالثورة ، تصب فى قوالب رائعة . وأهم الكلمات التى ظهرت فى الشعر هى : الاستشارة ، المستشار ، الانتداب ، الدخيل ، الغربى ، الحرية ، الاستقلال التام ، الكفاح ، النضال ، السيادة ، الأجنبى ، كرسى الوزارة ، النواب ، المجلس ، وغير ذلك من الكلمات التى جاءت مع تشكيل الحكم فى العراق .

وهناك ظاهرة جديرة بالتسجيل هى بروز عدد كبير من الشعراء فى حقل النضال السياسى فى هذه الفترة . وهذه الظاهرة تدل على رهافة الشعور العربى فى العراق ، وإعجاب العراقيين بالشعر أكثر من إعجابهم بالنثر ؛ وقد همد حماس هؤلاء الشعراء لما انتهت هذه الفترة ، فإذا تصفحنا جرائد هذه الفترة نراها طافحة بالشعر القومى السياسى(٩) ، وإن اختلف الشعراء فى التعبير بالنسبة لثقافة الشاعر ومدى استيعابه للتجربة الشعرية ، والظاهرة

(٩) لاحظ من جرائد هذه الفترة ومجلاتها : النجف ، المنبر العام ، العراق ، الأخلاق ، الزمان ، النهضة العراقية ، بغداد ، الحيرة ، النور ، بطائح العراق ، البلاد ، صدى الاستقلال ، الطرائف المصورة ، الجهاد ، نداء الشعب ، المستقبل ، وصدى الوطن .

الثانية هي طغيان السياسة على كل شيء في حياة الشعب ، فقد أعطيت للحياة السياسية الأهمية الأولى فوق قضاياه الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

وظاهرة ثالثة جديرة بالتسجيل هي أن الحكومة الإنكليزية قد منحت من الحرية ما أمكن بها للعراقيين أن يعبروا عن رغباتهم تعبيراً صادقاً لم نعهده — ويا للأسف الشديد — في أدوار الحكومات العراقية المتتابعة بعد معاهدة ١٩٣٠ ، وقد كانت هذه الحرية في ظل الاحتلال والانتداب أوسع مجالاً من الحرية في ظلال الحكم الذي شارك فيه العراقيون الأجنبي ، إلا إذا استثنيت فترات صغيرة تسلم فيها الحكم جماعة من أبناء الشعب ، وأرادوه أن يعبر عن رغباته ، ولكن سرعان ما تكبت حرية الشعب ويساق الأحرار إلى السجون باتهامات هم أبرياء منها . وأروني شخصاً كتب في جريدة عشر معشار ما كتب في فترة الاحتلال في حاكم من حكام العراق ، ولم يؤذ في رزقه وجسمه وأبنائه وذويه . لذلك كانت تضحيات الأدباء كبيرة ، ضحوا في سعادتهم وراحتهم وأرواحهم في سبيل مثلهم العليا بكل اطمئنان دون أن يمنوا على الشعب ، ومن هؤلاء كان شاعرنا معروف عبد الغني الرصافي الذي قال ساخراً :

تجوز سيادة الهندي فينا	وأما ابن البلاد فلا يسود
إذن فالهند أشرف من بلادي	وأشرف من بني قومي الهنود
فكم عند الحكومة من رجال	تراهُم سادة وهمُ عبيد
كلاب للأجانب هم ولكن	على أبناء جلدتهم أسود
وليس الإنكليز بمنقذينا	وإن كتبت لنا منهم عهود(١٠)

إنه القول الفصل بأن الاستعمار لن يخرج من بلادنا ، وإن كتب العهود إذا لم يطرده أبناء الشعب ، لأنه متنعم بالخيرات رافل بالنعيم ، وتارك أبناء البلاد في جوع ، وعرى ، وفقر ، إلا أولئك الذين اتخذوا من أنفسهم دمى يحركها كما يشاء ، قال محمود الملاح :

بلاد غريب الدار فيها منعّم	ولكن على أهل البلاد مقابر
وتحكم فيها الهند والهند أعبد	فلو لطمت منا الجباه حرائر

(١٠) ديوان الرصافي ٤٥٢ .

تماثيل من طين تقام خديعة ومن لم يصبخ للطين فهو مكابر(١١)

الإستشارة والوزارة :

كانت إحدى بلايا البلاد فى هذه الفترة ، الحكم الأجنبى ، الذى ألبس وجهاً وطنياً ؛ فالمظاهر تدل على وجود حكم وطنى ، ولكن الواقع أن الأجنبى هو الذى كان يحرك دفة الأمور بوساطة المستشارين الذين دسهم فى أرجاء هذا الحكم . لذلك لم يكن للوزراء أو النواب أو جميع المواطنين من رأى ، إنما هم آلات فى الدولة يحركها المستشارون ، فحيل بين الشعب وبين المستعمر بستار وزارة عراقية لا تقدر أن تنفع البلاد ما دام المستشارون لا يريدون ذلك . فوجه الشعراء اهتمامهم إلى هؤلاء المستشارين ، وسخروا من الوزراء الذين تصرف لهم أمور البلاد ويحل قضاياهم الأجنبى . كانت سخرية الشعراء لاذعة وتهكمهم مريراً موجعاً ، يطفح بالنقمة على هؤلاء الذين أصبحوا مطايا للمستعمر ، ويموج بالسخط على السياسة البريطانية التى تعبث بمقدرات البلد ، وتزيد فى تعقيد الأمور ، فجعلت البلد عبداً تسخره كيفما تريد ، باسم هؤلاء الوزراء الذين صدقوا أنهم الحاكمون فقال محمد باقر الشبيبى :

مما يزيد المشكلات تعقداً أن ليس ثمة من يحل ويعقد
قالوا استقلت فى البلاد حكومة فضحكت أن قالوا ولم يتأكدوا
أحكومة والاستشارة ربها وحكومة فيها المشاور يعبد
الحكم حكمهمُ بغير منازع والأمر مصدره همُ والمورد
المستشار هو الذى شرب الطلى فعلام يا هذا الوزير تعربد

وقد آلم معروف الرصافى وَضْعُ الوزراء واستخذاؤهم أمام السلطات الإنكليزية ، والذين سكروا غروراً راضين باسم الوزارة دون أن يقدموا لهذا البلد خيراً ، حتى خجلت كراسيهم من هذا الاستخذاء والغرور فقال يؤنبهم :

---

(١١) جريدة النهضة العراقية ٢٩٧-٢-٩٢٩ .

يالله يا وزراءنا ما بالكم إن نحن جادلناكمُ لم تنصفوا
وكأن واحدكم لفرط غروره ثمل تميل بجانبيه القرقف
أفتقنعون من الحكومة باسمها ويفوتكم فى الأمر أن تتصرفوا
هذى كراسىّ الوزارة تحتكم كادت لفرط حيائها تتقصف
أنتم عليها والأجانب فوقكم كل بسلطته عليكم مشرف
أيعد فخراً للوزير جلوسه فرحاً على الكرسى وهو مكتّف(١٢)

وزخر شعر الرصافى فى هذه الفترة بتأنيب النواب والوزراء وجميع الذين تولوا السلطات العامة . وتأنيبه مشوب بالتهكم المرير الموجع ، فيصف الوزير كذيل حمارة ليس له من سلطان ولا حول ، وإنما هو صنم تشيع فيه الذلة والصغار ، فيقول :

ووزير ملحق كالذيـــل فى عجز الحماره
ذنب أصبح للحكـــم به أقبح شاره

ويذكر سبب تهكمه عليه ، لأنه لا عمل له إلا أن يقبض راتبه فى نهاية الشهر :

فوزير القوم لا يعـــ ـمل من غير إشاره
وهـــو لا يملك أمـ ـراً غير كرسىّ الوزاره
يأخـــذ الراتب إما بلغ الشهر سراره(١٣)

وقال الرصافى صراحة إن الوزراء جماعة من أبناء الشعب آثروا مصالح الأجنبى على مصالح أبناء الوطن ، ولا يستوزر الإنكليز العراقى المخلص لأنه سوف يعمل لصالح وطنه وبلده ؛ لذلك فإن الوزراء مخلصون للمصالح البريطانية فقال :

إن الوزارة — لا أبالك — عندنا ثوب يفصَّل فى معامل لندنا

---

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤٥٤ .

(١٣) ديوان الرصافى ص ٤٥٦ ، والسرار الظلام الذى لا يظهر فيه القمر ويكون القمر فى المحاق ، كناية عن نهاية الشهر لاحظ الديوان ص ٤٢٩ قصيدته بمناسبة قدوم كراين سنة ١٩٢٩ .

لا يرتديه سوى امرئ أضحى له   طبعاً ، وداد الإنكليز ، وديدنا(١٤)

ووقف محمود الملاح موقف الناصح الواعظ مبيناً أثر المستشار فى تعقيد أمور الشعب ، ويعزو قوة المستشار إلى تخاذل أبناء الشعب بأحزابهم ، ولو أنهم وحدوا صفوفهم لطردوا المستعمر شر طردة . لكن النفع الذاتى وحب الكراسى أغريا بعض أبناء البلد ، فضحى فى سبيلها بكل مصالح الشعب فقال :

الاستشارة قيد بين أرجلنا   وكيف يمشى الفتى فى حال تقييد
كم أمة دونها فى الشرق قد نجحت   ونحن معها بحال غير مودود
المستشار الذى تجلى به عقد   لا من يجىء لحلول بمعقود
وما التخاذل فى الأحزاب غير يد   يدسها طامع يسعى لتبديد
فوحدوا خطوكم يا قوم واعتقدوا   أن النجاح محال دون توحيد
إن الكبير كبير النفس من صغرت   فى عينه خشب قامت بتسفيد
لا ترغبوا فى كراسى فى نعومتها   ففى النعومة شوك غير مخضود
تلك المقاعد كم غرت أخا ثقة   كما تغر ثنايا الخرد الغيــــد
إن الكراسىّ أنصاب مهندمة   فيها تضحى بلاد باسم معبود(١٥)

وكثيرون الذين خانوا بلادهم فى سبيل مطامعهم الفردية وجشعهم ، فأصبحوا دمى يحركها الأجنبى ، وهويسخر منهم فقد تهالكوا على رضاه فارتموا تحت أقدامه معتبرين أنفسهم جزءاً من هذا الأجنبى الذى دخل بلادهم ، ولا تربطه بهم رابطة اللغة أو الدين أو العقيدة أو التاريخ أو الجنس غير الاستعمار واستغلال خيرات البلاد ؛ فهم خدم لهذا المستعمر لا

---

(١٤) ديوان الرصافى ص ٤٩٦ والطريف أن يلجأ الرصافى إلى المثل العراقى المستهجن (الصيت للنورة والعمل للزرنيخ) فيطبقه على المستشار وعلى الوزير فيقول بتهكم لاذع :

ألا بلغـــــوا عنى الوزير مقالة   له بينهـــا لو كان يخجل توبيخ
أراك بحمـــــام الوزارة نـــــورة   وأما جنـــاب المستشار فـــزرنيخ

(١٥) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٢٠ السنة الثانية ١٩٢٩ .

يخجلون من خدمته ، ويتفاخرون بأنهم من محاسيبه فقال على الخطيب ساخراً متهكماً ، وسخر معه الشعب والتاريخ والأمم الواعية المستقلة :

والحليفة أعوان توأزرهم منا علينا وقد أضحوا لهم خدما
لا ينكسون من النكراء هامتهم فلا يرون بها بأساً ولا غمما

ومن أذل نفسه فى سبيل مطامعه ، وغدا مطية للأجنبي يرى خيره فى خيره ضماناً لمصلحته الفردية ، زاعماً أن ذلك فى سبيل الشعب ، وما هو إلا دمية تؤدى ما يطلب إليها دون تفكير ، تنعم بالمظاهر من مال زائل وألقاب كاذبة :

والقابضون زمام الأمر أشغلهم عنا المطامع حتى جاوزوا النهما
مستسلمون ضعاف فى مراكزهم ما قدموا قدماً أو أخروا قدما
دمىً تحركها أيدٍ مخبأة فتضحك الشعب والتاريخ والأمما
ليهلك الشعب مادامت مناصبهم مضمونةتقذفالألقابوالنعما(١٥ب)

وقد انفرد محمد مهدى البصير برأى بالنسبة للأكثرية الساحقة من الشعراء ، فهو لم يلق التبعة علىا لإنكليز وحدهم أوالمستشارين من الإنكليز ، إنما ألقاها على كاهل الوزارة العراقية . فمن المفروض أن يكون الوزير مالكاً زمام أمور وزارته متصرفاً بشئونها قادراً على الهيمنة التامة وبذلك لن يكون للمستشار قيمة فى الوزارة ولن يتدخل فى أموره ، والرأى خيالى لا يمكن أن ينطبق على وزارة هذا العهد ، لأمور منها أن الذين جاءوا الوزارة هم من ذوى المصالح المشتركة مع الإنكليز ، أو أنهم بحاجة إلى العون الاقتصادى ، أو من الضعاف الذين خبرهم الإنكليز وسبروا أنفسهم ، إذ ليس من المعقول أن يأتى الإنكليز بوزير قوى معارض لسياستهم ، ولكن البصير أراد أن يدفع الوزراء إلى العمل ، ويخلق فيهم القوة والعزة والكرامة للمصاولة ، فإذا اتفق هؤلاء الوزراء — وهذا خيال شاعر — فقد يأخذون الحكم بأيديهم وسيعم الإصلاح العراق ، والبصير أخذ يرد على الذين

(١٥ب) جريدة النهضة العراقية ٣٠٤-٢-٩٢٩ .

يعترضون عليه بأن المستشار سوف يضطرهم بقوته إلى الرضوخ لأوامره ونواهيه ، ولكن لم يجد برهاناً واحداً على وقوف الوزراء أمام رغبات المستشار والحد من رغباته . والحقيقة أن المثل العامة قد تفسخت ، فلو أجمع أبناء البلد على مقاطعة الوظائف وصمدوا أمام التهديد والسجون والموت ، لما تمكن الإنكليز من تطبيق خططهم الاستعمارية فى استقلال العراق . إن أكثر العراقيين مسئولون أمام التاريخ فى تشجيع المستعمر على التدخل فى أمور بلادهم ، وهم أحرى باللوم وأجدر بالتقريع ، لأنهم لم يستأنفوا نضالهم وضعفت معنوياتهم ، مع نفع زائل ونعيم حائل ، فقد قال البصير من قصيدة ألقاها فى يوم افتتاح الحزب الوطنى ببغداد :

ما رسمنا للاستشارة حداً فلها العذر أن تجوز الحدودا
شغلت مركز القيادة منا إذ رضخنا فكنا لها جنودا
أتقـولون إنها أكرهتنا فعملنا ما لا نراه سديدا
شكر الله سعيكم — خبرونى كم بذلتم فى كبحها مجهودا(١٦)

وقد عكست الجرائد العراقية الحيرة والوجوم اللذين هيمنا على ربوع العراق ، من الوضع الشاذ فى هذه الدولة الجديدة المستقلة وذات السيادة ، والتى لها برلمان ، ولكن لا يمكن لأبنائها أن يديروا دفة الأمور فيها ، مع أن الوزراء مسئولون أمام البرلمان ، فهم لا يصدرون أمراً إلا بموافقة المستشارين . وقد قالت جريدة الزمان بصراحة إن البلاد مستعمرة وجاءت بالدليل بقولها : « .. يقولون إن البلاد مستقلة وإن شئونها إنما تديرها حكومة وطنية .. والله يعلم أن البلاد مستعمرة لا مستقلة ، وكيف لا تكون كذلك وهذه جنود الإنكليز فيها ، وهذى طياراتهم محلقة فى سماء العراق صباح مساء .. وكيف تكون مستقلة ، وكلمة الإنكليز هى العليا فى الصغيرة والكبيرة .. » وتفند الجريدة المزاعم الإنكليزية بقولها : « .. ومن الخطل فى الرأى أن نستمر على التغرير بأنفسنا فنزعم محالفة الإنكليز لنا ، إنما هى

---

(١٦) جريدة العراق العدد ٢٥٧١ السنة التاسعة ١٩٢٨ وقد أعيد نشرها فى الطرائف المصورة العدد الرابع الصادر فى الحادى عشر من شهر آيار سنة ١٩٣٠ .

مستندة إلى الإخلاص المتبادل ، فالمعروف الذى لا يمكن تجاهله أن القوى إذا حالف ضعيفاً ، فهو إنما يسعى إلى مغنم يلبسه ثوب الحق وينفى عنه تهمة الغصب والاعتداء ، وبغير ذلك لا يمكن تعليل هذه . ولو بحثنا الحالات المتعددة التى سلمت فيها الوزارة العراقية ، لوجدنا أن آساس التسليم للإنكليز فى هذه البلاد إنما يرتكز على الإفراط فى الحذر ، لئلا يصطدم هذا الاستقلال المفلوج بسيطرة الإنكليز ..)(١٧) .

وهاجم محمد صالح بحر العلوم كل وزير وكل نائب ، واعتبره جاسوساً يخدم الأجنبى ، وما الراتب إلا أجرة عمله هذا فقال :

تجسس البعض منكم بخبرة ومهاره
ونال منا أجوراً عن جهده بجداره
فى النيابة أجر وآخر فى الوزاره(١٨)

والطريف أن يجعل المستشار أباً لهؤلاء و (المس بل) أمهم ، ويحدثنا عن نتيجة الذين لا يتفقون معهم فى الرأى ، فهى إما السجن أو النفى أو الشنق ، وبذلك يظهر لنا التعصب الأعمى من الأجانب ضد أبناء الوطن الذين لا يوالونهم ، ولا يرضون بحكمهم البغيض . وقد جعل أول العقوبات للوطنيين السجن والنفى والاعتقال ، أما أولئك الذين يصرون على موقفهم الوطنى فهو الموت :

وحكم من يتوق طرق الحماية خنق
نفى وحجز وسجن وإن أصر فشنق

النواب :

غرت مظاهر الحكم العامة بعض الشعراء ، لذلك اختلفوا بادئ الأمر فى معاملة نواب المجلس ، فحسبهم بعض الشعراء بأنهم قادرون على انتشال البلاد من التأخر ، والسير بها نحو معارج الرقى والتقدم ، ولهم من السلطة ما يقومون به اعوجاج أمورها ، ويثقفون أودها ؛ لأن المجالس النيابية فى

(١٧) لاحظ المقال الافتتاحى لجريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .
(١٨) من مخطوطة بقلم الشاعر فى مكتبتى .

الدولة المستقلة هي عمادها وركنها الأشد ، وساعدها الذى تعتمد عليه وقت الشدائد والملمات ، وهي ذات القول الفصل فى القضايا العامة ، فى شئون الدولة . ومتى اتفقت كلمة النواب فى أمر من الأمور فما على الدولة إلا الانصياع كرهاً أو رضاً لرغبتهم ، غير أن نواب العراق ، ويا للأسف ، لم يكونوا يمثلون الشعب العراقى ، فقد أخذوا يتنصلون من التبعة العظمى الملقاة على عواتقهم ، لأنهم لم يشعروا بأن الشعب قد جاء بهم إلى المجلس ، ولم يحسبوا له حساباً فى مناقشة الأمور ، إنما همهم كان منصباً على إرضاء الوزارة التى جاءت بهم إلى المجلس . فلم يذودوا عن مصالح الوطن فى أحلك الظروف ، وكان أول دليل على ذلك موقفهم من معاهدة ١٩٢٢ ؛ فقد كان عدد الموافقين ٣٧ نائباً من مجموع مائة نائب ، ولم توات الشجاعة بعضهم ليحضر إلى المجلس ويعارض ويرفض المعاهدة ، وليدخل فى نضال جديد ، ولو كان النواب مستندين على القوى الشعبية ما جبنوا وتولاهم الذعر ، فهم بين نارين ، نار الوزارة التى أدخلتهم البرلمان ، وهى تضمن لهم مصالحهم الخاصة ، ونار القوى الشعبية التى ثارت على المعاهدة ، فإذا وافقوا على المعاهدة فسوف يغضب الشعب ويلصق بهم تهمة الخيانة . ولو رفضت المعاهدة لتغير مجرى السياسة فى العراق ، وتغيرت أساليب حكم الشعب العراقى .

ومن الشعراء الذين أملوا الخير من النواب ، وتفاءلوا من وجود المجلس النيابى فاضل الصيدلى ، وحسين كمال الدين ، وعبد الرحمن البناء ، وقد كان تفاؤلهم ذلك بعيداً عن الواقع وممزوجاً بالشك ، فقد رسموا الطرق التى يجب أن تبذل فى سبيل الشعب فى دك صروح الجهل ، وإصلاح الأخلاق الفاسدة المتردية ، والأخذ بيد العامل والفلاح نحو الخير والصلاح ، فقد خاطب حسين كمال الدين النواب فى موشحة له :

أنوابنا هل لكم نهضة تقومون فيها بإصلاحنا
فقد كاد يهلك عمالنا وأودى الطواء بفلاحنا

إذا مات فلاحنا جائعاً فلا فخر ننجو بأرواحنا(١٩)

ورحب فاضل الصيدلى بهم ، وهاجم سوء الظن الذى يحيق بهم لأنهم مقام الخائف الراجى ، والعائذ اللاجى ، والمستجير الناجى ، فقال :

لا صح سوء الظن فيكم أو وهى عزم ولا زلت بكم أقدام
أبدوا سرائر عزمكم ورجاؤنا أن تكذب الأضغاث والأحلام(٢٠)

وقال عبد الرحمن البناء إن الشعب يفدى النواب بروحه ، لأنهم مالكو زمام الأمر فى العراق ، وسوف يتحدون فى سبيل مصالح الشعب ، ويقضون على أعداء الشعب فقال :

يا من ملكتم زمام السيف والقلم رقوا العراق بنشر العلم والعلم
ما اختاركم شعبكم إلا لنصرته فأيدوا رأيه حفظاً إلى الذمم
كونوا يداً فى مجال الذب واحدة تقضى على كل أفاك ومنتقم
الشعب بالنفس فدّاكم وقدمكم إلى العلا فاحذروا من زلة القدم(٢١)

ولما تجلى للعيان أعمال هؤلاء النواب خلال التجارب القاسية التى مر بها العراق ، ظهرت خيبة الرجاء وظهر كذب الظنون ، فإذا بالنواب قانعون بالراتب وبالمنصب دون العناية بمصلحة الشعب فقال خيرى الهنداوى :

أين العدالة أيها النواب كذب الرجاء وسدّت الأبواب
قصدتكم الآمال وهى ظوامئ فإذا الذى قد غرهن سراب
كنا نظن بكم ننال حقوقنا فتقطعت فيكم بنا الأسباب
ألهاكم قبض الرواتب يا ترى أم أقنعتكم هذه الألقاب(٢٢)

---

(١٩) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٧٢ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ قصيدة أخرى بتوقيع (شاعر نجفى) فى العدد ٣٦٦ من الجريدة نفسها ، ويبدولى أنها للشاعر نفسه ، فهى من نفس الروى .

(٢٠) جريدة العراق العدد ٢٤٧٣ السنة التاسعة ١٩٢٨ .

(٢١) جريدة الأخلاق العدد ٦٧ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ العدد ٧٩ لسنة ١٩٢٨ قصيدة شاكر أسعد من الهويدر والعدد ٥٩ السنة الأولى ١٩٣٨ قصيدة بتوقيع ل . م . ج .

(٢٢) مخطوطة ديوان الهنداوى فى مكتبتى .

والواقع المرير أن جل النواب لم يكونوا راغبين فى معارضة الحكومة ، ولم تكن لهم الجرأة والشجاعة على الثورة على أى قانون تسنه ؛ إذ لم تكن هناك أحزاب قوية لها من المنعة ومن القوة ما تسند نوابها ، فقد مر العراق فى دور كانت فيه أحزاب ، ولكنها لم تتغلغل بين أفراد الشعب ، ولم تكتسب يوماً من الأيام شعبية .وقد كانت الانتخابات فى كثير من الأحيان تجرى بدون وجود أحزاب فى البلد ، وتدير دفة الانتخابات سلطات الحكومة التى منحت نفسها صلاحيات واسعة لحمايتها من الشعب ، فإذا وجدت حزباً بدأ يقوى سارعت إلى حله تخلصاً من المشكلات التى قد تنجم منه ، حتى أن ياسين الهاشمى حل الحزب الذى كان يترأسه بعد أن أصبح رئيساً للوزارة ، فكان الشعب بعيداً كل البعد عن الانتخابات ، فنما الشعور العام بأن المجالس أداة بيد الحكومة وأن النواب يعينون فيها(٢٣) ، ولم تكن هذه المجالس تملك السيطرة على الوزارة ؛ إذ لم تحدث فى تاريخ العراق أن استقالت وزارة ؛ لأن المجلس قد سحب منها الثقة(٢٤) .

ولم تكن عيون الشعراء بعيدة عن أحوال هؤلاء النواب ، لذلك انصب عليهم سيل من التهكم المرير ، كانصبابه على الوزراء ، فقد قال الجواهرى يلذعهم بقاسى الكلم عندما عقدت الجلسة النيابية لتأبين عبد المحسن السعدون :

ولقد أقول لرافعين أصابعاً ليست تحس كأنها أحطاب
رهن الإشارة تختفى أو تعتلى وينال منها السلب والإيجاب
ماذا نويتم سادتى : هل أنتم بعد الرئيس ــ كعهده ــ أخشاب
هل تنهضون إذا استثيرت نخوة أو تجمدون كأنكم أنصاب
هل أنتم ــ إن جد أمر ينبغى توحيد شملكم به ــ أحزاب(٢٥)

(٢٣) لما انتخب الرصافى نائباً جاءه أحد إخوانه ليقدم له التهانى فقال له : أهنئك بانتخابك نائباً فضحك الرصافى وقال تقصد بتعيينى نائباً .

(٢٤) تحدى أحد رؤساء الوزارات النواب قائلاً «من أراد أن يبرهن على شعبيته فليستقل من المجلس ، وأنا أبرهن له بأنه لن يعود إلى المجلس » فسكت النواب .

(٢٥) جريدة العراق العدد ٢٩٢٧ السنة العاشرة ١٩٢٩ وذكرى السعدون ص ١٢٠ .

وقد سخر على الشرقى من المجلس ، ولم ير فيه سوى المظاهر الكاذبة وترك أمره للأيام ، فهى كفيلة بتقدير قيمته ، ولا أرى الأيام بحاجة إلى أن تجيب ، فقد وجدت البرلمان آلة دون شك بيد الحاكمين فقال :

صوروا مجلساً بهياً أنيقاً شيخه واقف ويلقى خطابه
لو سألتم منه سؤالاً دقيقاً سوف تعطيكم الليالى جوابه

وكان محمد باقر الشبيبى واضحاً كل الوضوح بوصف مجلس النواب بآلة يراد بها إسباغ حق شرعى على القوانين والرغبات التى يريدها المستعمر ، فهو دريئة لأعمالهم ومجناً يصدون به أقوال الشعب ، والحق أنه طريق لاستعباد الأمة ، فقال فى الحفلة التى أقيمت على شرف مستر كراين :

فخذوا من الحكم المشوه صورة ومثالها هذا الزمان الأسود
وأقامها العهد (العتيد) حكومة هى طبق ما اتفقوا عليه ومهدوا
وتستروا بالمجلسين فمجلس طوع البنان ومجلس يتجلد

ولم يرض عن الضيم والذل الذى يكتنف العراق ، وقال إن هذا سكوت الأبى الصابر المتفائل المستعد فقال :

أما العراق فإن فى تاريخه شرفاً يضىء كما يضىء الفرقد
ليس السكوت من الخضوع وإنما هذا السكوت تجمع وتحشد(٢٦)

البرلمان والمعاهدة :

تركت المعاهدة الأولى وما يتبعها من أحداث آثاراً سيئة فى نفوس أبناء الشعب ، فاضطرب العصر اضطراباً واضحاً وماج بين قوتين ؛ قوة الشعب التى يساندها المثقفون والواعون ، وقوة الانتداب ومن سار فى ركابه من المنتفعين والانتهازيين . وقد كان الجميع يتوقون إلى استقرار الحال ، بعد أن طالت فترة الاضطراب ، فالإنكليز يريدون استقرار الأحوال لتمشية مصالحهم وتحسين سمعتهم بين العالم المتمدن ، ويريد الوطنيون الاستقرار ليسيروا قدماً فى إصلاح البلاد إصلاحاً عاماً يمكنهم من مواصلة الكفاح مرة

---

(٢٦) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٠٤ السنة الثانية ١٩٢٩ .

أخرى . وبين هؤلاء كانت بعض القوى تؤيد الحكومة الوطنية ، التي تحرص على استبقاء ماسمته المعاهدة بالاستقلال ، كيلا تتحطم مساعيهم وأملاً في الحصول على أشياء جديدة من الإنكليز . وقد فكر الإنكليز في الخروج من هذا المأزق ، وتفتق ذهنهم على شيء جديد هو عقد معاهدة جديدة ، يجددون بموجبها علاقتهم بالعراق ، ولإدخاله إلى عصبة الأمم ، دولة مستقلة في الظاهر ، محافظين على مصالحهم الخاصة ، وبذلك يوهمون الشعب بإنهاء الانتداب عن العراق ، وابتعاد الأثر الأجنبي فيه ، ولما نشرت مسودة المعاهدة في الجرائد لم ير العراقيون فيها تغيراً كبيراً عن المعاهدة السابقة ، فقد قيدت سيادة البلاد وشنت ضدها معارضة قوية من الأحزاب . ومر العراق في فترة حالكة ، وأحجم الساسة عن تشكيل وزارة توافق على بنود المعاهدة ، وتعطل تشكيل وزارة جديدة مدة ثلاثة أشهر ، ولم تجد الدعاية التي شنها الموالون للاستعمار أو تؤثر مساعيهم شيئاً . فقد أعلنت المعارضة برياسة ياسين الهاشمي أن المعاهدة قد أعلنت الاحتلال من جديد(٢٧) ، إذ نصت على إجراء مشاورة تامة وصريحة في جميع شئون السياسة الخارجية مما له مساس بمصالح العراق وبريطانيا(٢٨) ، وأن يقدم العراق جميع ما في وسعه من التسهيلات والمساعدات اللازمة من استخدام السكك والأنهار والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات في حالة الحرب أو خطر الحرب(٢٩) وضمنت بريطانيا لنفسها مكانين لإنشاء مطارين جويين داخل الحدود العراقية ، لتقيم فيهما القوات البريطانية(٣٠) ، وأوجبت تدريب الجيش العراقي تحت الإشراف البريطاني ، وشراء أسلحته من بريطانيا إذا تيسرت هذه الأسلحة لديها(٣١) .

---

(٢٧) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤ ونص المعاهدة في البلاد ٨-١-١٩٣٠ .

(٢٨) المادة الأولى من المعاهدة .

(٢٩) المادة الرابعة من المعاهدة .

(٣٠) المادة الخامسة من المعاهدة .

(٣١) يلاحظ تعليق خدوري : تحرر العراق من الانتداب ص ٩-١٤ وتعليق الدكتور زكي صالح مقدمة من تاريخ العراق المعاصر ص ٨٧ و ٨٨ وخطاب المعارضة الذي ألقاه ياسين الهاشمي. العراق في دوري الاحتلال والانتداب ص ٢٢٠ و ٢ وخطاب الحكومة ص ٢١٣ .

صودق على المعاهدة فى ١٦ ت ٢ فى جلسة واحدة بأغلبية ساحقة ، وبذلك أصبح العراق فى وضع جديد ، أهله ليكون عضواً فى عصبة الأمم(٣٢) ، وبدخول العراق عصبة الأمم اعتبر دولة مستقلة ذات سيادة . إن الوضع الجديد الذى سيصله العراق ، سيجعله بصورة رسمية مستقلاً ، واعترف به شكلياً بأنه دولة مستقلة ، غير أن هذا الحل لم يرض الذين لمسوا السيطرة البريطانية واضحة فى تسيير دفة أمور الحياة العامة للعراق ؛ ولم تخف عنهم بنود المعاهدة من قيود قيدت العراق : فكان رد الفعل عميقاً فى النفوس ، وبدأ الوطنيون يهاجمون الحكومة التى غدت آلة طيعة بيد المستعمرين ، كما هاجموا المعاهدة وأظهروا ما حاق بالعراق من تأخر وانحطاط ، لأن الإنكليز هم الذين يصرفون أموره حسبما تقتضيه مصالحهم .

وقد شاركت الصحافة العراقية فى إبراز عيوب المعاهدة الجديدة للشعب ، وأظهرت ما فيها من متناقضات غريبة ، فقد كتبت جريدة المستقبل فى افتتاحية لها « إن الاستقلال التام لايجمع والاحتلال فى صعيد واحد ، ونضرب مثلاً بارزاً للعيان هو جثوم الطائرات الإنكليزية على أرض العراق .. » ثم قالت : « .. السماء والأرض والحوادث تشهد بأن إنكلترا مذ عقدت معاهدة ١٩١٥ مع شريف مكة (سجين قبرص) لم تفكر باستقلال البلاد العربية ، كما أنها لم يخطر لها أن تترك العراق حراً مستقلاً ، ولكن دعاة السوء وسماسرة الأخاديع يزعمون أن الوزارة الحاضرة دخلت المفاوضات مع بريطانيا على أساس الاستقلال التام ، فما أوقح هذا الزعم وما أفضح الدعوة الضعيفة إليه ..(٣٣) » .

إن الجهود التى بذلت للحيلولة دون المصادقة على المعاهدة ذهبت أدراج الرياح لأن الملك فيصل كان راضياً عن المعاهدة خلافاً لموقفه فى معاهدة ١٩٢٢ فقد أعلن بكل صراحة هذا الرأى وقال : « إن العراق حر طليق لا سيد عليه غير إرادته . وحليفتنا بريطانيا ليس لها فى هذه البلاد سوى شىء واحد هو هذا الخط الجوى .. » .

---

(٣٢) راجع خدورى ص ١٥ – ٣٧ .

(٣٣) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤ .

ولم يكتف فيصل بذلك إنما هاجم الذين وقفوا أمام المعاهدة ، وقال : « .... وإن الذى يؤسف له ، ألا يكون من بين رجال الأمة من يدرك حقيقة ما بينته لكم ، ولا يجرؤ على مصارحتكم به ، اضطررت أن أصارحكم بذاتى .. » غير أن هذا الرأى لم يكن يتفق ورأى زعماء المعارضة ، لأنهم وجدوا المعاهدة جائرة وفاسدة وأنها قيدت استقلاله الموهوم ، وأرادوا أن تبدل هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى تعطى البلاد استقلالاً كاملاً ، لاتشوبه شائبة ، وأن المجلس الذى عقد المعاهدة مجلس غير شرعى ولا يمثل البلاد(٣٤) ، وأن المعاهدة تتضمن الاحتلال الأبدى(٣٥) لأنها زادت من أغلال العراق وعزلته عن الأقطار العربية(٣٦) ، ووضعت العراق رسمياً تحت حماية بريطانيا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، وقضت على الوحدة العربية وثبتت أقدام الصهيونية فى فلسطين الشهيدة(٣٧) .

ولم يختلف رأى الشعراء عن رأى رجال المعارضة من القوى الوطنية ، فقد هاجموا المعاهدة والبرلمان الذى صادق عليها ، واعتبروها معاهدة باطلة لأن البرلمان الذى أقرها لايمثل الأغلبية ، وبرلمان لايمثل الشعب يجب ألا يقر معاهدة تقرر مصير البلاد ، ومستقبلها السياسى ، خاصة وأن الكثرة الكاثرة قد قاطعت هذه الانتخابات ، وصفحات الجرائد تطفح بأسماء الذين قاطعوها وأسماء المحتجين على طريقة الانتخابات وخاصة جرائد المعارضة : فقد قال صالح الجعفرى بعدم شرعية البرلمان لأن إنكلترا أشرفت على الانتخابات ، وسيرتها نحو الهدف الذى تريده وجاء أعضاؤه وفقاً لرغباتها ، وكيف يوثق بمجلس طوع إرادة الإنكليز :

(٣٤) لاحظ وثيقة التآخى بين حزبى الإخاء والحزب الوطنى فى جريدة الاستقلال العدد ١٧٠٣ السنة ١٣ سنة ١٩٣٣ .

(٣٥) جريدة الزمان الصادرة بدل البلاد ٢٨٤ فى ١٧ تشرين الأول ١٩٣٠ ، ولاحظ آراء حكمة سليمان ومحمد رضا الشبيبى وحمدى الباجه جى وباقر الشبيبى ومحمود رامز ضد المعاهدة ، كما دافع عنها نورى السعيد فى العدد نفسه والعدد ٢٨٥ .

(٣٦) الزمان العدد ٢٨٤ لاحظ رأى الكيلانى والهاشمى .

(٣٧) المصدر السابق لاحظ رأى مزاحم الباجه جى .

وقد جاء نوابه حسب رغباتهم خاصة ، وإن أغلبية الشعب لم تشترك فى هذه الانتخابات ، قال من قصيدة :

ما الانتخاب بمشروع إذا اتفقت ... كل البلاد على أن ليس تنتخب

أبرلمان وهذا الشعب قاطعه ... إلا القليل ، وقد حفت به الريب

ما مثّل المجلس المعقود أمته ... وإنما عقدوه وفق ما رغبوا

خدعتم الشعب بالأشباح ماثلة ... جوفاء تسترها أثوابها القشب

كأن لندن مغناطيس مجلسنا ... فحيثما جذبته تلك ينجذب

منها القرار ومنا أن ننفذه ... والأمر منها ومنا الطوع والأدب(٣٨)

وقد نظم فى هذا المعنى جواد السودانى ، وأظهر غضب الشعب على الحاكمين ، وشرح طريقة تلقين هؤلاء للدفاع عن مصالح الدخيل فقال :

لم ننتخب نحن نواباً نوائبنا ... منهم ، إذا كانت الأعيان تعيينا

لاتعقدوا مجلساً ترضى مبادئه ... ألفاً ، وتغضب من شعبى ملايينا

رجاله تشبه البغاء لو نطقت ... تلقن الأمر (منهم فيه) تلقينا(٣٩)

وقد طعن الشعراء بالانتخابات التى جرت فى ظروف شاذة من التهديد والإرهاب ، وبالنواب الذين رضوا أن يمثلوا البلاد فى مثل هذه الظروف ، لأنهم أصبحوا شوكة فى قلب الوطن ، ينغرون فى مصالحه وفى استقلاله وفى سمعته حتى جروه إلى الشقاء والفساد ، ومثل هذا الرأى جماعة منهم محمود الملاح ، قال من قصيدة ألقاها فى الحزب الوطنى المعارض :

لا أمان فى مجلس قائم فو ... ق ضروب التهديد والإرهاب

فيه تغتال للبلاد حياة ... وتساق البلاد نحو الخراب

أى فضل لفتية مالهم من ... هدف غير خدمة الانتداب

ما شقاء البلاد إلا من الأذ ... ناب ، ويل لمعشر الأذناب !

---

(٣٨) جريدة صدى الاستقلال العدد ٢٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٣٩) المصدر السابق العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

ضربت فى البلاد أطنـــاب ذل فغدوا كالأوتـاد للأطنـاب(٤٠)

وقد بذل معروف الرصافى (٤١) جهداً كبيراً داخل المجلس ضد المعاهدة لأنه كان عضواً فيه ، وألقى خطاباً ندد فيه ببنودها قائلاً : « .. إن المعاهدة كمعاهدة الحمل مع الذئب وما أدرى أية قيمة لمعاهدة تقع بين الحمل والذئب ... » ثم بين الظروف التى حملت العراقيين على عدم الرغبة فى المعاهدة بقوله : « .. نحن فى عقد هذه المعاهدات لسنا على اختيار بل على اضطرار . كلنا يعلم أن العراق فى قبضة بريطانيا الحديدية ، أو النارية ، وأن الإنكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة ، فى هذا الوضع تعقد معاهدة مع الإنكليز ، معاهدة بمعنى أنهم يعلون ونحن نكتب .. »(٤٢) ويتجلى ألم الرصافى الواضح فى تتابع الصفات التى أسبغها على سلطة الإنكليز ، وقد كان الرصافى ضد كل معاهدة عقدت مع العراق ، فقد قال عن معاهدة ١٩٢٢ :

والعهـد بين الإنكليز وبيننـا كالعهـد بين الشـاة والرئبال
من ذا رأى ذئب الذئاب معاهـداً بصداقة حملاً من الأحمـال(٤٣)

وقد طفحت جرائد هذه الفترة بسيل من أسماء الشعراء الذين نقموا على تصديق المعاهدة ، وأخذوا يهاجمونها وينتقدون سياسة الحكم القائم

---

(٤٠) جريدة الجهاد العدد ٢٤٠ الصادر فى ٢٥ آب سنة ١٩٣٠ .

(٤١) بقى الرصافى يندد بالمعاهدة طوال حياته مطالباً باستقلال العراق . لاحظ — آراء الرصافى — جمع سعيد البدرى بغداد ١٩٥١ ص ٢٠ و ٢٥ وما بعدها وعندى قصيدة لمحمد صالح بحر العلوم ضمن مخطوطة شعره يقول فيها :

عهـد حـزيران وكم ثائـر حـول على عهـد حـزيران
فحملـه بالبغى من لنـدن ووضعـه عنـدى ببغدان
نـوائب الأمـة فى جانب وأمهـا فى الجانب الثـانى
وحكم من تزنى — وإن لم تكن محصنـة — عطف على الزانى

(٤٢) جريدة نداء الشعب العدد ٣١٠ صادر فى ٢١ تشرين الثانى ١٩٣٠ .

(٤٣) آراء الرصافى للبدرى ص ٣١ وأدب الرصافى لمصطفى على ص ١٠٥ وديوان الرصافى ص ٥٠٢ .

آنذاك ، فمنهم إبراهيم أدهم الزهاوى (٤٤) ، وجواد السودانى (٤٥) ، ومحمد حبيب العبيدى (٤٦) وعبد الحسين الملا (٤٧) وباقر الشبيبى (٤٨) والصافى (٤٩) وشفيق العانى (٥٠) ، وغيرهم كثيرون ممن نشروا فى جرائد ومجلات أخرى . وقد اتفقوا جميعاً على أمر واحد هو التنديد بالمعاهدة الجائرة ، وآلمهم أن تكون بلادهم لعبة تستغلها قوات الأجنبى لصالحها ، تهدر مصلحة الشعب الذى ذهب ضحية الوعود الكاذبة ، وضحية الانتهازيين من أبنائه والمنتفعين من وجود المستعمرين فى بلادهم ، الذين أسلموا الوطن ، دون أن يردعهم ضمير ، أو يؤنبهم على الخيانة وازع ، فعاثوا فى مقدراته دون حسيب أو رقيب (٥١) . وكان من أبناء هذا الوطن الوزراء الذين حصلوا على امتيازاتهم وألقابهم ورواتبهم من كد الشعب وعرقه ودموعه ودمه ، ولكنهم لم يرعوا حقوقه ، وإنما فضلوا مصالح الأجنبى الغشوم على مصالحه وعاشوا فى العراق ، ولكنهم يستمدون تعاليمهم من خارج العراق ، فأثقلوا كاهل الشعب وأرهقوه ، ونصبوا من أنفسهم قادة للشعب ، وحجبوا الوطنية عن غيرهم واحتكروها لأنفسهم دون حياء أو خجل ، فانساق بعض السذج معهم وظنوا أن قولهم الصدق وخالوا ما يدعون هو الصواب ، فلما تكشفت نياتهم وظهر للعيان ما بيتوا لهم من أغلال وقيود ، باسم التحالف وباسم المعاهدة ، تنبه الشعب واتجه نحو الصواب ، وتركهم وحدهم مع أسيادهم ، وقد رأى بعض الشعراء أن خير حل للقضاء على هؤلاء هو ثورة تطيح بهم وبأسيادهم ،

---

(٤٤) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى سنة ١٩٣١ .

(٤٥) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٦) جريدة البلاد العدد الصادر فى ٣ كانون الثانى ١٩٣٠ .

(٤٧) جريدة صدى الاستقلال العدد ٢١ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٨) جريدة الجهاد العدد ٢٣٩ الصادر فى ٢٤ من آب ١٩٣٠ .

(٤٩) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر فى ٢٢ من آب ١٩٣٠ وجريدة الاستقلال العدد ١٥٦ الصادر فى ١٦ آذار سنة ١٩٣١ وجريدة صدى الوطن العدد ٣ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٥٠) جريدة الاستقلال العدد ١٥٨٩ السنة ١١ ؛ سنة ١٩٣١ .

(٥١) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ قصيدة جواد السودانى .

وتعيد للشعب حقوقه المهضومة (٥٢) . والشعر العراقى فى هذه الفترة كثير ولنأخذ مثلاً واحداً من شعر أحمد الصافى النجفى ، وفيه يتجلى مقدار الخسارة الفادحة التى حلت بالعراق من جراء المعاهدة التى عقدها الوزراء من أبناء الشعب الذين حصلوا على كل ماحصلوا من ثروة باسم هذا الشعب فقال :

سرق الطامع أبهى مجـــــدنا ومضى يعــدو فأين الحرس
قد رقــدنا أملاً فى حـــرس ولقد نمنـا ونام الحــرس
سهروا فى أول الليــل ولمـا نهض السارق يسعى نعســوا
قد حصدنا الشوك مما زرعــوا وجنينـا المر مما غرســوا

ويصور بسخرية لاذعة أولئك الذين ثاروا باسم الشعب وقادوه ، ثم تركوه ، لما حصلوا على ما يريدون من مناصب وثروات ؛ لأنهم يعتمدون على الأجنبى فى جميع آرائهم فليس لهم من رأى إنما هم آلات تنفذ رأى الأجنبى فقال :

باسم هذا الشعب نالوا ثــروة ثم باعوا الشعب لما أفلســوا
كرماء لم يردوا طامعــاً وأجابوا كل من يلتمــس

وسخر من المجلس الذى يردد الآراء المستوردة بقوله :

أخذوا رأى شيــاطين لهــم همسوا فى أذنهم ما همســوا
ما أرى المجلس إلا حاكيــاً صوته — عن مجلس — منعكس
ضم آلات بسلك وصــلت فإذا حــرك يومــاً تنبس
إن دعاهــا لدفاع شــعبها رجفت ثم اعتراها الخــرس(٥٣)

لم تتحمل الحكومة معارضة الصحف الشديدة ، والوقوف أمام الانتخابات وعدم تصديق المعاهدة ، وأفزعها النقد الشديد الموجه ضدها

---

(٥٢) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى ١٩٣١ قصيدة ابراهيم أدهم الزهاوى .

(٥٣) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر فى ٢٢ أغسطس ١٩٣٠ ونشرت فى الأمواج ص ٥٤ وله فى الأمواج قصائد فى الصفحات ٥٠ و ٥٢ و ٥٣ .

لأن المعارضة كانت تستند على الجانب الواضح الصائب ، جانب الشعب والأكثرية المؤيدة له . وقد كان مؤيدو الحكومة أقلية ، ولكنهم أرادوا أن تكمم الأفواه وإسكات كل معارض لسياستها ، فعطلت جريدة (الرافدين) و (الاستقلال) ، وأنذرت جريدة (المستقبل) ونفت (فهمى المدرس) و (رافائيل بطى) إلى « أربيل » (٥٤) فثارت ضجة فى البلاد تطالب الحكومة بالحرية الفكرية وإفساح المجال للكتاب للتعبير عن أفكارهم لخدمة هذا الوطن ، واحتجت جريدة المستقبل التى قالت : « .. مابال هذه الحكومات القائمة فى ظل الوضع الشاذ ، تضطهد الحرية فى بلاد الرافدين ، وتلاحق الوطنيين بشتى الوسائل وأنواع القسوة ؟ ماذا يبرر لتلكم الحكومات ولهذه الحكومة الحاضرة ملاحقتها لحرية الرأى وحرية النشر » (٥٥) .

وسخر صالح الجعفرى من هذه التصرفات فقال :

أراهــم قيــدوا الــرأى فلم ســموه لى حــرا
ومــا فائــــدة الرأى إذا لم أبــده جهــــرا
هل المرء سوى أن يـــــر تأى النفــع أو الضرا (٥٦)

يمتاز العرب بحب الحرية الفكرية حرية الكلام والتعبير ، لأن حرية التعبير عن الرأى عزيزة فى نفوس الأحرار ، وقد أكد الإسلام على هذه الحرية فى أحاديث الرسول وفى سير الخلفاء ، لذلك كان كبت الحريات الفكرية يبوء بالفشل دائماً . ونجد المطالبة بالحرية فى كثير من دواوين الشعراء ؛ ففى ديوان الرصافى عدة قصائد (٥٧) ، ولعل أشهرها تلك

---

(٥٤) جريدة بغداد العدد ٢٦ السنة الأولى ١٩٣٢ ؛ وقد أصبح المعتمد العام لحزب الإخاء الوطنى ياسين الهاشمى ، أما التهمة التى وجهت الكاتبين فهى (المس بالذات الملكية وقلب نظام الحكم) راجع حاشية مقالات فهمى المدرس ص ١٢٣ .

(٥٥) جريدة المستقبل العدد الثامن السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٥٦) جريدة النجف العدد ٧٥ السنة الثانية ١٩٢٧ .

(٥٧) ديوان الرصافى ص ٥٠ .

التى نظمها سنة ١٩٢٢ م والتى أخذ هذا العصر يرددها (٥٨) ، ورددها العراق فى كل دور من أدوار كبت الحريات والتى غدت أغرودة بفم العراقين ومضرب الأمثال دائماً :

ياقوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوّم
وتأخروا عن كل ما يقضى بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانباً فالخير ألا تفهموا(٥٩)

ولم تتطرق إلى تأييد الحكومة التى عقدت المعاهدة غير قصائد محدودة (٦٠) ، فكانت جريدة العراق تعوض عن ذلك بمقالاتها ، فتهاجم المعارضة ، وتنشر بعض الرسائل المفتوحة أو البرقيات مثل (أخاديعهم لا تنطلى على الشعب) أو (ما هذه المهازل) وتحمل تواقيع متنوعة مثل (فريق من الشبيبة المعتقدة بتلاعبهم) أو (فريق من شبيبة الحلة) (٦١) ، وتسلقهم بافتتاحيات عنيفة مثل (يفترون) و (هل تستمر المعارضة فى طغيانها الأثيم) وإذا اعتقلت الحكومة المعارضين تقول (الحكومة تقضى على الدسائس والمكائد) و (ماذا يريد المفتونون) و (يغالطون ويموهون)(٦٢) وكانت جرائد المعارضة ترد عليهم وتنشر أخبار الاجتماعات وتنشر الخطب ، وتعنون مقالاتها بعناوين مثل (الخرس لهذه الأفواه) و (يكيدون للشعب (٦٣)) ، كما كانت تنشر أخبار الإضرابات التى يقوم بها الشعب وتعلق عليها فترد عليها العراق (٦٤) ومن المقالات التى نشرتها ، مقالة

---

(٥٨) أدب الرصافى ص ٧٧ .
(٥٩) ديوان الرصافي ص ٤٤١ .
(٦٠) مثل عبد الرحمن البناء وعبد المجيد الملا والجواهرى .
(٦١) جريدة العراق الأعداد ٣٣٣١ و ٣٣٣٢ و ٣٣٣٣ السنة الحادية عشرة ١٩٣١ .
(٦٢) جريدة العراق ٣٣٧٣ و ٣٣٧٥ و ٣٣٧٦-١١-١٩٣١ .
(٦٣) الإخاء الوطنى أعداد السنة الأولى وغيرها من جرائد المعارضة الصادرة ١٩٣٠ ١٩٣١ كالاستقلال ، والثبات ، والأخبار ، والبلاد .
(٦٤) دراسة هذه الفترة تستحق عناية من أحد الباحثين لوجود أشياء طريفة وجديدة .

تهاجم فيها المعارضة ، وتتهمها بأنها تعارض للحصول على كراسى الحكم ، وقالت (إن مناحة المعارضين يوم الجمعة الماضى لم تختلف بشىء عن مناحاتهم المعروفة فقد بكوا كثيراً على القضية المضاعة ، والوطن المحروب ، والحرية المضطهدة ، والصحافة المصفدة ، والآمال الفاشلة ، وحاولوا استبكاء الجمهور على غير جدوى ، وكانوا فى الحقيقة ينوحون على كراسى لهقت أعينهم بقوائمها وعلى مناصب ضخمة ، ومراتب جزيلة) (٦٥) وعندما ينشر الجواهرى قصيدة يؤيد بها المعارضة تثور الجريدة عليه ، وتعجب كيف ينظم قصيدة فى تأييد المعارضة ، وهو الذى أيد الحكومة بالأمس وضحى فى سبيلها بوظيفة يتهافت عليها المعارضون ، ثم تنشر له قصيدة هاجم فيها المعارضة ، وأيد فيها الحكومة من قبل قال فيها ساخراً منهم :

فقد علم الأقــوام أن ليس عندكم سوى خطف كرسى ومنضدة قصد
وهيهات هيهات الكراسى ولمسها فمن دونها سد ومن دونكم سد(٦٦)

(٦٥) جريدة العراق ٣٤٧٧-١٢-١٩٣١ المقال الافتتاحى .

(٦٦) جريدة العراق العدد ٣٤٨٧-٢-١٩٣١ ولاحظ جريدة الزمان العدد ٢-١-١٩٢٧ ويلاحظ جريدة الإخاء الوطنى العدد ٢٤-١-١٩٣١ وجريدة العراق ٣٤١٩-١٢-١٩٣١ .

— ٤ —

عبد المحسن السعدون

لاحظنا الصدام العنيف الذى حدث بين القوى الوطنية والقوى الأجنبية ، فلم يكن العراق هادئاً مستقراً ، وكان الرأى العام مضطرباً ينذر بالعاصفة ؛ فقد كانت البلبلة متفشية بين الصفوف والحياة الحزبية مضطربة متفككة . وكان العراق يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من الحقوق ، وبريطانيا تحاول جاهدة استبقاء سيطرتها بطرق شتى ، وفى مثل هذا الجو المتوتر الثائر القلق طلب إلى عبد المحسن أن يؤلف الوزارة لعقد المعاهدة ، فاشترط أن يحصل على وعد صريح بإلغاء المعاهدة والاتفاقيات السابقة ، وأن يدخل العراق عصبة الأمم بدون قيد أو شرط ، وأن تكون المعاهدة الجديدة على أساس الاستقلال التام . وكانت بريطانيا تبحث عن مخرج تخلص به من التوتر السياسى فأظهرت استعدادها لقبول شروط السعدون ، فألفها معتقداً بأن بريطانيا سوف تحقق للعراقيين أمانيهم ، حتى قال فى حفلة إجراء مراسيم تشكيل الوزارة : « لقد أمعنت أنا وزملائى النظر ملياً فى جواب الحكومة البريطانية هذا ، فأقنعتنا بأنه محقق لشطر كبير من رغائب الأمة العراقية التى لاترضى عن الاستقلال التام بديلاً » (١). وأعتقد أنه سوف يقدم لبلاده ما يريده لها من الاستقلال التام والكرامة . ويبدو أن رجال السياسة قد أدخلوا فى روعه أنه المنقذ الوحيد للعراق من البلبلة والتوتر السياسى ، وكأنى بالسعدون قد وعد بتحقيق هذه الأمانى

---

(١) ذكرى السعدون — تأليف على الشرقى — بغداد ١٩٢٩ ص ٥٦ . لاحظ خطاب السعدون جميعه . وقد أكد هذا المعنى فى الخطاب الذى ألقاه فى حزب التقدم وكرر الفقرة نفسها . ذكرى السعدون ص ٦١ وفى الكتاب ترجمة وافية لحياة السعدون .

لأمته ، وإذا فشل فسوف يؤازره الشعب ويأخذ استقلاله بالقوة وبالتضحية والفداء . ولعل مظاهر الحماس التي رآها على الشعب أججت في قلبه هذه الرغبة تسنده الوعود التي بذلت له بصورة سرية (٢) فاندفع وصرح بوجوب أخذ الاستقلال بالقوة . ولولا رغبته وما جال وراء الستار لما اندفع هذا الاندفاع ، حتى ظن أن الاستقلال أصبح ملك يمينه ، ولكنه اصطدم على صخرة رغبات بريطانيا ، وصعب على المرء أن يرى أحلامه العراض تتحطم ، ويهوى مابناه بيده فتنتابه المذلة والألم . وقد حدث ذلك للسعدون ، فلم يقدر على إقناع رجال السياسة البريطانيين الذين تقلبوا في السياسة وعاشوا فيها ، وعرفوا خباياها ، ولم يقف الشعب العراقي وراءه ثائراً مقاتلاً (٣) لأن هناك قوى أخرى غير الشعب تقف ضده ، هناك أذناب المستعمر الذين يملئون بلاده ، وهناك الملك الذى لايريد أن يفرط بالعرش ، وهناك عقبات أخرى في الشعب العراقي لم يقدرها السعدون حق قدرها ، وكانت خيبة الأمل مريرة في نفس السعدون (٤) تجلت في الوصية التي تركها عندما انتحر قال فيها :

« إني سئمت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقاً وشرفاً . الأمة تنتظر الخدمة والإنكليز لايوافقون ، ليس لي ظهير . العراقيون طلاب الاستقلال ضعفاء عاجزون وبعيدون عن الاستقلال » (٥) فنجد السعدون واضحاً كل الوضوح من أنه وُرِّط في تأليف الوزارة ، وترك وحده في المعركة ، ولم يوفق بين رغبات الشعب العراقي الضعيف العاجز

---

(٢) قال على الشرقي (لكن المقامات العالية حركت نخوته وإخلاصه ، واستنبضت عرقه الكريم ، وناشدته بالعروبة والوفاء لها) ص ٥٥ .

(٣) سأله الريحاني عن مدى استجابة أعضاء حزب التقدم لآرائه السياسية فقال : الاعتقاد رصين والأمل وطيد بأن الحزب يكوى بحرارة الإخلاص الذى أحمله ، وغالباً أجد روحى تتوزع عليه ويندفع بقوة الحق إلى مشاركتي . »

(٤) قال السعدون في معرض حديثه مع زميل له « أنا مثلي معكم مثل موسى مع أصحابه إذ قالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ماذا أكون وحدى وإنكم ما فيكم الباسل ..» .

(٥) جريدة العراق الأعداد ٢٩٢١، ٢٩٢٢ ، ٢٩٢٣ ، من السنة العاشرة ١٩٢٩ . كتب السعدون وصيته باللغة التركية وترجمت بعد ذلك .

البعيد عن الاستقلال والحرية وبين رغبات الإنكليز الذين لايوافقون على منح الاستقلال .

أعد السعدون كل شيء وفكر فى كل الاحتمالات ، ففض المجلس النيابى وجاء بنواب أكثريتهم معه ، فاستند على قوتهم وصفق له حتى المعارضون عندما عاهد الله والوطن على الجهاد والتضحية ، وقد اعتمد الملك عليه للخروج من المأزق بل أثار نخوته ليدير دفة البلاد ، وقد كان السير « كلبرت كلايتون » المندوب السامى يؤيد المطاليب العراقية وقد رأى السعدون فى جواب بريطانيا تحقيقاً لشطر من رغائب الأمة العراقية وقال : « إن الاستقلال أصبح وشيكاً وإن المعاهدة تنتهى مع الاتفاقات برمتها وستعقد معاهدة جديدة أساسها الاستقلال التام (٦) » لكنه باء بالفشل ، ولم يحصل على شيء . وقد كان السعدون أبياً كريم النفس فاسودت الحياة بعينيه بعد أن ضاع منه مايريد أن يحققه لشعبه ، واتهم بالخيانة وبأنه خادم الإنكليز وعبدهم (٧) ، مع أن الرجل تحمل مالا يطاق وزج بنفسه فى مأزق أراد به خدمة الأمة .

لم يمت السعدون دون أن يترك أثراً عميقاً وراءه هو وصيته التى هزت الشعب العراقى ، لأنها أطلعته على ضعف الشعب وتخاذله وقت الشدائد ، وحقيقة الصراع الذى كان ناشباً بين السعدون وبين الإنكليز .

والشعب العراقى شعب مستعجل لاينظر إلى الماضى ولا يتعظ . ينسى بسرعة ، فهو يلقى كلمات الحمد والثناء على من تملق عواطفه وينسى إساءته سريعاً ، وهو يغضب سريعاً ، وينسى جميع ما يقدم له ، ويتمسك بآخر غلطة للإنسان ويريد أن يتدخل فى كل الأمور صغيرها وكبيرها . وقد كان السعدون كتوماً لأسراره فاتهم بالخيانة ، وكان رزيناً فباعد بينه وبين أبناء الشعب ، فاستيقظ الشعب على صوت انتحاره وهاجت

---

(٦) لاحظ خطاب السعدون فى جلسة حزب التقدم الأولى فى اليوم الأول من شهر تشرين الثانى سنة ١٩٢٩ ، ذكرى السعدون ص ٥٨ ومابعدها .

(٧) جريدة العراق لاحظ الأعداد التى ذكرت الوصية .

عواطفه الطيبة فى ضميره ، وخاصة سبب الانتحار كان عدم موافقة الإنكليز على إعطاء العراق استقلاله التام . وقد نسى الشعراء جميع حياة السعدون واتخذوا الفرصة نبراساً يهتدون بهديه فى شعرهم ، وأصبح السعدون رمزاً قومياً كريماً ونموذجاً صادقاً فى الوطنية والتضحية ، فانتشرت صوره فى كل مكان ورسمت على علب « السيكاير » وورق لف « السيكاير » والأوانى الفخارية ، وعلى كثير مما يستعمله الشعب ، وعلقت على بضائع التجار لترويج ، وقد أقيم له تمثال فى خير بقاع بغداد وأضخم مكان (٨) ، وسمى باسمه شارع كبير وحديقة . وأول الشعراء الذين أصابتهم الحسرة ، وأمضتهم اللوعة كان معروف الرصافى ؛ فقد كان عبد المحسن صديقاً له يواليه بعطفه ورعايته وجاهه وماله (٩) ، وكان الرصافى يمقت الإنكليز الذين استعمروا بلاده ، فاستحال هذا المقت إلى كراهية عميقة ، فقد أجهزوا على صديق عزيز عليه ، وسند قوى يركن إليه ، فأهاجت ميتة السعدون كوامن الألم فى الرصافى ، فصبها سيلاً من الحمم والقذائف على الإنكليز (١٠) ، فوصف عظم التضحية التى قام بها السعدون ، ومقدار خسارة الوطن بهذه التضحية ، ثم هجا الإنكليز الذين سببوا هذه الكارثة . وأشهر قصائده وأطولها الرائية ، وقد بوبها الشاعر أبواباً ، ووضع لها العناوين المتنوعة فوصف أولاً منظر الرافدين يوم وفاة السعدون وهما يجريان دماً ، بعد أن أمضهما الحزن واللوعة ، ووصف الحزن الذى انتاب الشعب بهذه الكارثة ، وذكر الميزات التى امتاز بها السعدون والسجايا الكريمة والمزايا العالية التى فضلته على سواه ، وخير هذه المزايا وأسماها التضحية الكبرى بنفسه فى سبيل الوطن ، ثم خاطب أهل لندن وما جرته سياستهم من آلام وأحزان على العراق ، وفى القسم الأخير قارن بين سعد

---

(٨) غير محله وحرك قليلاً حيث وضع فى مكانه الحالى بمدخل الشارع المسمى باسمه عندما افتتح الجسر الجديد فى الباب الشرقى .

(٩) بشأن صداقة الرصافى والسعدون لاحظ (الرصافى) تأليف مصطفى على مصر ١٩٤٨ ص ١٩٤ .

(١٠) ديوان الرصافى ص ٣١٠ و ٣١٢ ، ٣١٦ ولاحظ ذكرى السعدون ص ١٢٧ .

زغلول وعبد المحسن السعدون ، وما قدم كل زعيم لبلاده من تضحيات وخدمات وفضل السعدون على سعد زغلول ، لأنه كان أكثر تضحية إذ فدى الشعب العراقى بنفسه والجود بالنفس الأخير أقصى غاية الجود ، ويدخل ضمن موضوعنا القسم السياسى الرابع الذى خاطب فيه الإنكليز بقوله :

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم ... أهل العراقين لابدواً ولا حضرا
إن انتــدابكم فى قلب موطننــــا ... جرح نداويه لكن لم يزل غبرا (١١)

ويشرح أعمالهم التى ارتكبوها فى العراق من تقييد لحرية الرأى ، ووقوف فى طريق تقدم العراق ، ورقيه ، وتفريق لصفوفه ، ليتسنى لهم الحكم ، ثم بثهم الكراهية والبغضاء بين أبنائه بدل الحب والوئام والعطف ، لأن الاستعمار لايقدر أن يعيش إلا فى الفوضى والاضطراب والبلبلة النفسية والرعب والفزع ، ثم يذكرهم بمعاهدتهم مع العراق فيقول :

فى كل يوم لنا معكم معاهــــــدة ... نزداد منها على أوطاننـــا خطرا
جفت بها سرحة استقلالنـــا عطشاً ... حتى إذا ما مسسنا عودها انكسرا

ويصف قسوة قلوب الإنكليز فى سبيل مصالحهم ، وبذلهم الوعود السخية دون أن يفوا بها ، فيقول :

تقســو قلوبكم لما نفاوضـــــكم ... كأننا نحن منكم ننقر الحجـــرا
أما مواعيدكم فهى التى انكشفت ... عن مين منمان أو عن غدر من غدرا

ويقارن بين وطنه الضعيف الواهى القوى وبين قوة الإنكليز الجبارة التى تسيطر على العراق ، ثم يتهددهم تهديد الضعيف الوهن ؛ فيصف الشعب بالذبابة التى تزعج الأسد ، وكان الأجدر بالرصافى أن يتهدد الإنكليز بأن المستقبل للشعب الذى سوف يقوى ويشتد ساعده ويقضى على قوة الإنكليز ، ولا شك بأن الرصافى كان قريباً جداً من الواقع الذى بعد عنا اليوم حينما قال :

---

(١١) الجرح الذى اندمل على فساد ثم انفجر .

لاتفخروا إن كسرتم غرب شوكتنا لافخر للصقر فى أن يقتل النغرا(١٢)
لاتستهينوا بنا من ضعف قوتنـــا فكم ذبابة غابٍ أزعجت نمــرا

وقد أبدى الرصافى تسامحاً وتساهلاً عندما عرض على الإنكليز صداقة الشعب ، بعد أن يئس من قوة الشعب وعدم قدرته على مقارعة قوة الخصم الجبارة والكفاح فى سبيل الأهداف السامية ، ولعله كان يأمل أن يحصل باللين وبالتساهل مالم يحصل عليه بالكفاح والقتال فقال :

هذى البلاد اغرسوا فيها مودتكم ثم اقطفوا من جناها ودّنا ثمرا
نكن لكم حلف صدق فى سياستكم نمشى إلى الموت من جرائها زمرا
لسنا بقوم إذا ماعاهدوا نكثـــوا ولو جرى الدم حتى أشبه النهرا(١٣)

وقد رثاه كثير من شعراء هذه الفترة مثل محمد هادى الدفتر (١٤) ، وأكرم أحمد (١٥) ، وعبد الرحمن البناء (١٦) ، ومحمد بهجة الأثرى(١٧) ومحمد حبيب العبيدى (١٨) ، وكمال نصرة (١٩) ، وعبد الكريم العلاف(٢٠) وناجى القشطينى (٢١) ، وخضر القزوينى (٢٢) ، ومحمود الملاح (٢٣) ، ومحمد مهدى الجواهرى (٢٤) ، ومحمد على اليعقوبى (٢٥) ، وأحمد حقى

---

(١٢) النغر : بضم الميم وتشديده الفرخ الصغير أو البلبل .
(١٣) ديوان الرصافى ص ٣١٤ وقد نشرت القصيدة فى جريدة البلاد فى العدد الصادر فى ٢٧ كانون الأول سنة ١٩٢٩ .
(١٤) جريدة العراق العدد ٢٩٦٩ السنة العاشرة ١٩٣٠ .
(١٥) جريدة العراق العدد ٢٩٢٥ صدر فى ٣٠ تشرين الثانى ١٩٢٩ .
(١٦) جريدة النور العدد ١٣٩ صدر فى ١٧ تشرين الثانى ١٩٢٩ .
(١٧) جريدة البلاد العدد ٣٠ فى كانون الأول ١٩٢٩ .
(١٨) جريدة البلاد العدد ١٥ كانون الأول ١٩٢٩ .
(١٩) جريدة البلاد العدد الصادر فى ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٩ .
(٢٠) جريدة العراق العدد ٢٩٥٧ الصادر فى ٢٧ كانون الأول ١٩٢٩ .
(٢١) مخطوطة شعره فى مكتبتى الخاصة .
(٢٢) شعراء الغرى ج ٢ ص ٣٧٢ .
(٢٣) ذكرى السعدون ص ١٢٢ .
(٢٤) ذكرى السعدون ص ١١٥ ، ١١٩ .
(٢٥) ذكرى السعدون ص ١٢٩ .

الحلي (٢٦) وغيرهم .

وقد بدأ موقف الزهاوي قلقاً حائراً ، فقد ساهم الشعراء في تأبين السعدون . أيبقى دون أن ينظم شيئاً وأشد ما يخشاه أن يطعن في ولائه للوطن ، ولا يريد أن يعيد ما قيل عنه وما يقال ، أم ينظم ويطعن الإنكليز ولا تزال القوى بيدهم والحول ملك يمينهم . أراد أن يشارك الشعراء كيلا يقال نضبت قريحة الزهاوي ، وهو الذي يجب أن يذكر اسمه ويمجد ويقرضه النقاد (٢٧) . نظم قصيدة واستبعد مهاجمة الإنكليز ، وكان حذراً فآثر أن يسلك أسلم طريق فنظم الوصية وحاول أن يرسم صورة صادقة مكبرة لها ، وبذلك يتخلص من مهاجمة الإنكليز صراحة ويرضي الوطنيين ، قال :

ماذا تفيد سلامتي من شرهـــــا   إذ كان منــه موطني لايسلم

الشعب ذو حـــرص على استقلاله   لايرتضي أحـــداً ســواه يحكم

الشعب يطلب أن أقوم بحقـــــه   والإنكليز على التغاضي يرغـــم

للشعب أبرم ما أراه صـــالحاً   والإنكليز يحل ما أنا أبـــرم

للإنكليز في الانتداب سيـــاسة   أما السياسة فهي ليست ترحم (٢٨)

وكان علي الشرقي من أقرب الناس إليه ، وأشدهم حسرة على موته ، حتى ألف كتاباً عنه وعن آل سعدون ، فإنه لم يتهم الإنكليز في قتله ، مع أن السعدون قال صراحة في وصيته إنهم السبب في انتحاره ، بل لم أجد له قصيدة في تأبين السعدون اللهم إلا قصيدة واحدة نظمها بمناسبة نصب تمثاله (٢٩) ، كانت موحدة الموضوع لم تخرج عن السعدون نفسه ،

---

(٢٦) ذكرى السعدون ص ١٣٥ وأخبرني الشاعر بأنه نظم قصيدة أخرى .

(٢٧) حدثني أحد معاصري الزهاوي ومن المتصلين في جريدة العراق وأظنه الأستاذ رفائيل بطي أن الزهاوي كان يأتي إلى الجريدة ويكتب أمام اسمه الأستاذ الكبير الفيلسوف إلى غير ذلك من الألقاب والنعوت .

(٢٨) البلاد العدد الصادر في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٩ وقد نشر في ديوانه (الأوشال) المطبوع في بغداد ١٩٣٤ ص ٤٤ وله قصيدة أخرى في ص ٤٥ .

(٢٩) ديوان علي الشرقي ص ٢٠٧ .

وإن حمدنا له هذه الوحدة فى المعنى نراه لم يستغل الفرصة ليؤلب الشعب على المستعمر الجاثم على صدر العراق .

أما الجواهرى فقد نظم قصيدتين لام فيهما الشعب وقرعه ، كما لام الساسة فى الأولى ، وفى القصيدة الثانية صب جام سخطه على النواب الذين كانوا خشباً مسندة ، وكان رثاء عبد المحسن رثاء عاماً لم يأت بجديد فيه ، ووصف وجوم الشعب حول قبره وسماه (ضريح أمة يعرب) الذى سيركع عليه التاريخ والجيل (والنخوة والعروبة والشهامة والصراحة) وأن (ثكله ثكل العروبة) ، وخص الملك فيصل وتوجعه بأبيات ومن ثم توجه إلى المعارضين بقوله :

يتساءلون بأى عـــذر تختفى ... من شعبنا وبأى وجه تطلـــع
واسترجعوا أحكامهم مرفوضـة ... ناس بحكمهمُ عليك تسرعوا

ثم طالبهم بالانتحار إن كانوا مخلصين لبلادهم ليطمئن الشعب إليهم :

قالوا لأشبــاه الرجــال تصنعــاً ... إلا تكونوا مثلــه فتقنعــوا
لاتبرمونا بالتشدق ، شعبــكم ... بسوى انتحاركم له لايقنع
سلفاً يقوّم بالدم اســـتقلاله ... فإذا صدقتم بادعــاء فادفعوا

وسخر من مجلس النواب وطالب أن تكون محاكمة الخصم بريئة عادلة ليفسح له المجال فى الدفاع عن نفسه ، ولا يضغط على حريته فقال :

لتكن محاكمة الخصـــوم بريئـة ... فى قاعكم وليحسن استجـــواب
تأبى المروءة أن يندس خـــائن ... أو أن يطول على البرىء حساب

ويضعف الجواهرى ويلين حينما يريد من الشعب العراقى أن يتروى فى قصده ، ولا يتهور مستعجلاً فيقول :

أوحى الزعيم إلى الجــزيرة كلها ... أن ليس يدرك بالكلام طِــلاب
يا هذه الأمم الضعــاف تــروياً ... لاتنهضى صعداً وأنت زغاب
لاتقطعى سبـــاً ولا تتهورى ... نزقاً إذا لم تكمل الأسبــاب
لاتدن من ظفر القـــوى ونابه ... إن لم يكن ظفر لديك ونـــاب

لأن محاربة الخصوم فى غير أوقاتها معناه الخسارة فيجب أن يستعد الشعب فقال :

وإذا عتبت على القـــوى فلا يكن إلا بأطراف الحراب عتـــاب(٣٠)

وقد اغتنم محمود الملاح انتحار السعدون ، فجال جولة سريعة ذكر فيها فوادح البلاد العربية المتتالية فى فلسطين وسوريا ومصر والمغرب ، إذ تئن العروبة من هذه المصائب المتوالية ، وكأن الشرق براكين هذه المصائب ثم ينظر نظرة الأمل الباسم فيقول :

سينتبه النوام من غفــــلاتهم قياماً فلا يبقى على الأرض هاجع

ثم يتطرق إلى نكبة العراق وما أصابه ، ويهاجم الذين عارضوا السعدون فى سياسته واضطروه إلى الانتحار ، يقول :

أراد أناس أن يجاروه فى العــــلا وكيف يجارى الجون صفراء فاقع(٣١)

ضحية قوم ما دروا كنـــه فضله ولا عرفوا سر الذى هـــو شائع

ورب كريم ضاع بين معـــــاشر كعقد نفيس فهو فى الفحم ضائع

ويتحدى أولئك الذين انتحلوا الوطنية بالانتحار ، والملاح مسلم متدين يعرف جيداً أن الانتحار إثم لا يرضاه الشرع لذلك استرجع فقال :

فمن ينتحل من بعد ذا وطنيـــــة ولا ينتحر فهو الكذوب المخادع

وليس مرامى أن تضحى خلائق ولكن مرامى أن تضحى المنافع

قياس صحيح لا ينافيـــــه منطـــق وإن خالفتنى فى القيـــاس المنازع

ويطلب من الشعب العربى أن يتحمل كل جفوة حتى يتم له الأمر ويصبح قوياً :

فياشعب قحطان احتمل كل جفوة إلى أن تماشى جانبيك المدافـــع

وحتى ترى فى ساحتيك فيـــــالق ينادون لا استقلال إلا المعـــــامع

---

(٣٠) ذكرى السعدون ص ١١٩.

(٣١) الجون – الفرس الأدهم .

ويريد الملاح أن يسمع « رمزى مكدونلد » رد فعل المصاب الذى حل بالعراق فيقول :

دوّت طلقة ليلاً بآفاق دجلة فيا (مكدونلد) هل لها أنت سامع
تململ منها راكد وتحركت شجون وهاجت بالنيام المضاجع
وطلقة نار فى مخارمَ شاهق سيلقى صداها شاسع ثم شاسع
رأيت رخيصاً كل ما العرب قدموا وهذا دم غالٍ فهل أنت قانع

وفى القصيدة التفاتة سريعة إلى ما حل بالعراق من انتهازية ، فأثرى فيها الانتهازى والأجنبى ، أما أبناء البلاد الذين يتعففون عن الإثراء العاجل فقد أصابهم الطوى فقال :

تأثل ملكاً فوقها كل ناكث وصار له فيها قرى ومزارع
وأثرى بأموال البلاد أجانب ومات مديناً ربهن المدافع (٣٢)

ولم يكن انتحار السعدون عائقاً عن إنجاز ما صممت عليه الحكومة البريطانية ووافق عليه الساسة فى العراق ، إذ سارت المعاهدة فى طريقها ، وعقدت فى ١٦ من تشرين الأول سنة ١٩٣٠ م ، وبعدها أدخل العراق فى عصبة الأمم عضواً مستقلاً .

وقد أقامت الحكومة العراقية مهرجانات رسمية ، خرجت فيها المدارس تنشد أن العراق أصبح مستقلاً ، وأذكر ونحن طلاب فى المدرسة الابتدائية أن قد خرجنا وطفنا فى المدينة ننشد نشيداً منه :

بمثل اليوم يا عرب دعاة المجد قد وثبوا
خيولاً فوقها وثبوا فنالوا منه ما رغبوا

غير أن النبأ لم يهز شعور الشعراء فى العراق إذ لم أعثر على شاعر نظم فى هذه المناسبة غير حسين بستانة قال فيها :

بغداد وافتك البشائر فابسمى وترنحى مسرورة وترنمى

---

(٣٢) ذكرى السعدون ص ١٢٢ .

ولتلبسى للمهرجـــان مطـــــارقاً ولتخلعى ثوب الحداد الأسحم(٣٣)

وبعد دخول العراق عصبة الأمم ساد العراق هدوء سياسى نسبى ، فقد حل محل النظام القديم نظام جديد ، حاول السيطرة على العراق سيطرة تامة بكل الوسائل ، لكى يخلق له وحدة إقليمية جديدة ، وحدثت بعض الثورات الداخلية والرجات مثل ثورات العشائر فى الشمال والجنوب وثورة الآثوريين ، غير أن الحكومات كانت تمنع تسرب الأخبار عنها إلا النزر اليسير ، وكانت تقابلها بالشدة والقسوة ؛ لذلك خلت هذه الفترة من شعر منشور يمثل هذه الثورات إلا النزر القليل الذى لايمكننا اعتباره ظاهرة جديرة بالدرس .

غير أن الأحداث العربية كان لها صدى عميق الأثر فى اتجاهات الشعر العراقى جديرة بالدراسة فهى تمثل جانب الإحساس القومى بهذه الأقطار وقد كانت الاستجابة لمشكلات العرب أعمق من الاستجابة لغيرها من الأحداث فنحن نجد آثاراً ظاهرة واضحة لفلسطين وتونس والجزائر ومصر وسوريا والأردن وعدن أكثر من غيرها . ومع ذلك فلم يخل الشعر العراقى من روح إنسانية عالية ، فقد كانت حوادث الاستقلال والثورات على المستعمرين تجد لها صدى ، فقد استجاب للمشكلات الإسلامية والمشكلات الشرقية والمشكلات العالمية كاليونان والهند والصين .

والاستقرار النسبى العام كان سبباً واضحاً فى اتجاه بعض الشعراء إلى الوجهة الاجتماعية . وبذلك نجد الشعر التزم جانباً فى صميم حياته الداخلية الأحداث الاجتماعية .

---

(٣٣) جريدة العراق العدد ٣٨١٠ السنة الثالثة عشرة ١٩٣٣ م .

الفصل الخامس

أثر الحياة الاجتماعية في الشعر

١ – مشكلات الحياة الاجتماعية :

٢ – مشكلة المرأة :

٣ – الفلاح والإقطاع :

٤ – مشكلة الفقر :

- ١ -

مشكلات الحياة الاجتماعية

لاحظنا من الفصول المتقدمة أثر الحياة السياسية فى الشعر ، وكيف استحوذت مشكلاتها على جزء كبير من تفكير الناس ، وشغلتهم عن معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع هذا فقد كان هناك من يحس بضرورة إصلاح الحياة الاجتماعية ، وينعى على الناس هذا الاستغراق فى السياسة والانصراف عن المجتمع ، فقد كتب الشيخ على الشرقى ، يصف هذه الحالة بمقال منه « .. فلا نرى فى الأمة إلا سياسياً وسياسة حتى كأن الجمهور العراقى كله طائفة سياسية ، فالسياسة فى الجوامع والمخادع والمقاهى والأسواق والطرقات والمدارس وغرف المحاماة والثكنات العسكرية ، فالبقال والفلاح ورجال العلم ورجال الدين والمحامون والضباط ورجال المال والحوذية وسواق السيارات كلهم سياسيون ، وكل العراق موجات سياسية ، وقد عم الطوفان السياسى حتى حانوت الخباز .. (١) » لأن مشكلات الحياة السياسية كانت أشد بروزاً للعيان ، وأكثر تماساً بحياة الشعب بعد الاحتلال الإنكليزى فقد أثرت تأثيراً كبيراً فى حياته اليومية فى رزقه وعواطفه ومشاعره ، وهدد الطمأنينة فى نفسه فقد شعر أن كرامته قد هدرت ، وأمانيه العزيزة قد جرحت ، فهو عرضة للسجن والنفى والتشريد والتعذيب ، دون أن يعرف سبباً لما يتنزل به . فالمحتل بعيد عنه فى الدين واللغة والتاريخ والتقاليد ، وكان هذا المحتل قوياً ضارياً تؤثر قواه المادية والمعنوية فى حياته ، وتسيطر عليها ، فيجب أن يكرس جزءاً كبيراً من نضاله ليعيد الهدوء إلى قلبه ، والأمان والحرية والدعة لوطنه ، ويتخلص من الجنود الذين يسرحون على أرضه ، والطيارات

---

(١) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٧ .

التي تئز فى سمائه ، ومن موظفيه الذين يتحكمون فى مصيره وحياته، فاتجاه الشعب نحو السياسة كان ضرورة حتمية للتخلص من المستعمر ، الذى يقف حائلاً دون أى إصلاح جذرى ، فلا غرو إن عزى كل تأخر للمستعمر . ومشكلات العراق الاجتماعية لاتختلف عن مشكلات البلدان المتأخرةالأخرى فهى الفقر ، والمرض ، والجهل ، ومشكلة الإقطاع والفلاح ،والمرأة ، ولا تزال هذه المشكلات قائمة حتى الآن ، برغم ما بذل فى إصلاح بعضها ، ولكنها لم تصل إلى ما يهدف إليه العالم الاجتماعى بعد ، فقدكان لتوالى الغزوات على العراق أثر كبير عميق الأثر فى تأخر العراق الاجتماعى .فالمستعمر تركياً كان أم فارسياً أم إنكليزياً لم يكن يهمه غير استمرار حكمه ، فلم يعن بمشكلات البلد الداخلية ، ففى القرن التاسع عشر لم يكن فى العراق غير مستشفى واحد ، ومن الطريف أن تكون مؤهلات مدير المستشفى البراعة فى لعب الشطرنج ، فهو لاعب شطرنج ماهر لم يكن الوالى بقادر على الاستغناء عنه ، فأعطاه هذا العمل ليكون إلى جانبه . وقد بقيت حالة العراق متأخرة حتى بعد الحرب العظمى الأولى فقد بدئ بإنشاء أول مستشفى عام ١٩٢٨(٢) وبقيت أكثرية الشعب فترة طويلة تحت سيطرة المشعوذين والدجالين من محترفى الطب ،وغالباً ماتؤدى معالجتهم إلى عمى العيون، وجلد الأبدان وموت المريض يضاف إلى ذلك كله ما يصفه بعض الشيوخ من ذوى الطرق الذين يداوون المريض بالأدعية والطلاسم والبصق فى الماء(٣) . ولما انتشر الوعى الطبى أخذت المستشفيات تنتشرفى ربوع العراق حتى بلغت ٨٩ مستشفى(٤) ؛ وقد بقيت حالة التعلم متأخرة فى العهد التركى ، ولم تؤثر دعوات الإصلاح، لأنها كانت محدودة الأثر ويساير إصلاح الفساد الإدارى والخلقى ، وتحت ستار الدين الإسلامى خوفاً من أذى الوالى الذى يعد النصيحة انتقاصاً

(٢) مجلة عالم الغد العدد ٧ السنة الأولى مقال للدكتور معمر خالد الشابندر .

(٣) لا تزال هذه المداواة لدى كثير من أبناء الشعب فى القرى والأرياف ، وهناك من يثق بالطب القديم حتى فى المدن وبين المثقفين . وقد قتل أحد الشيوخ فى لواء ديالى قبل سنوات أحد المرضى بالأعصاب لاستخراج الروح الشريرة من بدنه فأدى ذلك إلى سجنه .

(٤) نشرة الإحصاء الصحى والحياتى سنة ١٩٥٢ بغداد ١٩٥٥ ص ٣٦ .

لكرامته ، حتى جاء دستور ١٩٠٨ ، فارتفعت أصوات الناس عالية تطالب بالإصلاح ، وتجرأت بعض الجرائد على السخرية من المرتشين والمستغلين(٥) وأخذت بعض الجرائد تنشر بعض الرسائل المفتوحة تشكو ماحل بالبلاد من تأخر شمل جميع نواحيها (٦) . وقد كان لتدفق جرائد سورية ومصر وتركية ، وما تحمل فى طياتها من أنباء التقدم والازدهار أثر فى يقظة الفكر وازدهاره .

وعندما فتح الإنكليز بغداد نشطت سياسة التعليم بتأسيس دائرة المعارف، فقد وصل عدد المدارس فى نيسان عام ١٩٢٠ إلى تسعين مدرسة(٧) . وازداد نشاط فتح المدارس عندما تولى العراقيون الإشراف على سياسة المعارف حتى بلغ عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف عام (٩٥٣ — ١٩٥٤) مايلى:

المدارس الابتدائية على اختلاف أنواعها	١٤٥١ مدرسة
المدارس الثانوية والمهنية	١٤٣ مدرسة(٨)

وإذا قورن هذا العدد بمساحة العراق ، وبعدد نفوسه ، فهو عدد ضئيل. ثم إن أكثرية هذه المدارس مركزة فى المدن ، أما القرى والأرياف فهى محرومة من التعليم ، ففى العراق ١٦٠٨ مدرسة تابعة لوزارة المعارف من مختلف درجاتها ، ولايوجد فى القرى التى تحوى أكثرية السكان غير ٥٧٤ مدرسة (٩) ، ولم ترتفع نسبة التعليم فى العراق عن ٨٪ (سنة ١٩٤٩) ، وكانت أعلى نسبة للتعليم فى لواء بغداد قد وصلت إلى ١٨٪ وهو اللواء الوحيد الذى حصل على هذه النسبة المئوية . وقد تدنت فى بعض الألوية

---

(٥) يلاحظ الفصل الأول .

(٦) جريدة الرقيب العدد ١١٤ السنة الأولى .

(٧) **Henry A. Foster, The Making of Modern Iarq (London 1936) p. p. 15,20.**

ولكن تقرير وزارة المعارف ينص على وجود ٨٨ مدرسة .

(٨) التقرير السنوى ص ٧ .

(٩) المصدر السابق .

إلى ٣٪ . والإحصاء التالى يعطينا فكرة عامة عن التعليم فى العراق عام١٩٥٣—١٩٥٤ :

نوع الدراسة	عدد المدارس				عدد الطلاب
	الذكور	الإناث	المختلط	المجموع	
الدراسة الابتدائية الرسمية	١٠٩٤	٢٥٦	١٠١	١٤٥١	٢٥٨٣٣٣
الدراسة الابتدائية الأهلية	٣٥	٣	٩٣	١٣١	٢٠٢٦١
الدراسة الابتدائية الأجنبية	٥	—	٥	١٠	١٧٨٤
المجمـــوع	١١٣٤	٢٥٩	١٩٩	١٥٩٢	٢٨٠٣٧٨
الثانوية على اختلاف أنواعها	١٤٧	٥٠	—	١٩٧	٤٦٤٦٣
المدارس المهنية على اختلاف أنواعها	٨	٢	١	١١	١٨٧٤
دور المعلمين	٢	١	—	٣	٨٦٣
المعاهـد العاليـة	٣	١	٨	١٢	٥٢٥٥
المجموع العام لجميع المدارس والدورات	١٢٩٤	٣١٣	٢٠٨	١٨١٥	٣٣٤٨٣٣(١٠)

وقد أيقظ فتح الإنكليز بمظاهره المادية الفكر العراقى برؤيته مستوى عالياً من الحياة لم يره عند جنود الدولة العثمانية كالنظافة والأناقة وكفاية فى المال . وكانت مجالاً واسعاً للمقارنة بين الجيشين ، وتمنى المثقفون أن ترتفع حالة الشعب المادية ، وأن ينتبه على صوت سنابك خيل المحتل ووطء أحذيته على أرض الوطن .

أما الأدب فقد تغير مجراه العام وروافده الذى كان يتسرب فيه ، فابتعد عن خدمة السلطان والوالى والحكومة واتجه للشعب وخدمته ، وأصبحت للشعب منزلة محترمة . وبدأ الشعراء وقادة الرأى فى معالجة مشكلاته الاجتماعية والسياسية لرفع شأنه ، وخلق شعب قوى صحيح غنى مثقف . وقد كانت هذه المشكلات الاجتماعية متشابكة مع المشكلات السياسية . وكان الشعب جاهلاً مريضاً فقيراً . والشعب الضعيف المتأخر ، المتخاذل ، لايقدر على إصلاح نفسه ، لأن قوة الشعب تأتى من قوة أفراده ، ومتى قدر الضعيف الواهن على المقاومة والنضال لاستخلاص حقه ؟ . والمؤلم أن هذا الشعب

(١٠) التقرير السنوى عن سير المعارف ١٩٥٣ — ١٩٥٤ بغداد ١٩٥٥ ص ٦ .

يملك أرضاً تفيض بالخيرات خصبة تتدفق فيها الأنهار ، وتضيع خيراته ويذهب ماؤه عبثاً ؛ لأن المستعمر الدخيل حال دون استغلال هذه الثروات. قال الصافى النجفى مستنكراً ذلك بقوله(١١) :

ما للفرات يسيل عذباً سائغاً عجباً ، وورد بنى الفرات أجاج
الفقر أحدق فى بنيه وإنما ماء الفرات العسجد الوهاج
جاءته (حوت البحر) ظامئة له أو ماكفاها بحرها العجاج
قد شب فيها نفطنا ناراً فهل يطفى لظاها ماؤها الثجاج
والنفط يجرى فى العراق ومالنا ليلاً سوى ضوء النجوم سراج

ويتهكم على الاستعمار الذى كبل الشعب ويقول إنه مطلق السراح يفعل ما يشاء بحرية تامة بينما هيمنت رقابته على كل صغيرة وكبيرة ليسيره حسبما يريد ويهوى :

قد أثقلوه من القيود بمرهق وأحاط فيه من العداة سياج
زعموه مختاراً وقد وضعت له تحت الصوارم والمدى أوداج
أيكون ذا رشد بعقد عقودهم وبغير ذاك لقيِّم يحتاج
نم الخداع بما تكن صدورهم إن الخداع لدى اللبيب زجاج
أسروا العراق وكم فدينا أنفساً عنه ، فهل لأسيرنا إفراج

ويبعث الأمل فى نفس الشعب ، ويدله على الطريق السوى فى سبيل حقه بالمطالبة الملحفة ، وبالشجاعة والإقدام ويضرب له الأمثلة من عبر الأيام التى حطمت العروش ، وسحقت التيجان لأن الشعب لم يكن ركيزتها فقال :

لاتيئسن من اللجاج فإنما سبل الحياة شجاعة ولجاج
لاتيئسوا فالحادثات بمرصد ولكم هوى عرش وحطم تاج

وكان التأخر والانحطاط مهيمنين على ربوع العراق ، وليس هناك من يصلحه لأن المتحكمين فى مصير الشعب هم الدخلاء والانتهازيون ،

---

(١١) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٥٦ السنة الثانية ١٩٢٨ والأمواج ص ٥٠ .

وخشي الشعراء أن يصرحوا بذلك خوف أذى السلطان ومكره ، وبطش القوة وقساوتها فانصرفوا إلى تقريع الشعب الذي تحمل الذل صابراً ؛ وماثار واستردحقه ،وأصلحأمره بقوته.فعند ما جاء أمين الريحانى إلى بغدادعام١٩٢٢، كان الأمل يملأ قلبه من ذكريات بغداد فى عهدها الذهبي الزاهر أيام كانت مشرق الأمل للعالم فى الحضارة والرقى والتقدم ، وقد صدمه واقعها المرير الحاضر ، فنظم الرصافى قصيدة يرحب به ويعتذر إليه عما حاق بوطنه ، فقال :

أأمين جئت إلى العراق لكى ترى	مافيه من غرر العلى وحجوله
عفواً .. فذاك النجم أصبح آفلاً	والقوم مترقبون بعد أفوله
أما الحيا فذياك الحيا	لكل مسيل الماء غير مسيله
وربيعه ذاك الربيع وإن شكا	من جهل ساكنه اشتداد محوله

وكانت نفس الرصافى تفيض حسرة وهو يعدد مصائب العراق التى تدمى القلوب أسى ، وتملأ القلوب لوعة فقد أصبح القطر الذى كان يدوى صيته ؛ ويزهو برقيه وحضارته وعمارته فى مباءة للاختلاف والتنازع ووكراً للتنابذ والتناحر والبغضاء والشقاق . فالجار يخشى من جاره ، والصديق يشك فى أعز أصدقائه وأهليه ، فقد اختلف أبناء الوطن الواحد وأصبحوا كتلاً وجماعات فالنصرانى يشك فى سلامة نية المسلم ، والمسلم لايطمئن للنصرانى ، وقد بلغت الفوضى حداً لم يبلغه قطر من أقطار المعمورة ، فقد انتهكت حرمة العلماء والأساتذة ، ولم تبق لهم كرامة أو قيمة ، وخشى العلماء الأفذاذ وأصحاب الرأى فيه إبداء آرائهم ، لفساد الأحوال وتدنيها ؛ كيلا يتهموهم بالمروق والكفر وبالخروج عن تعاليم الدين . إنه لوضع مؤلم وآلم منه الاعتراف به ، لكن مما يخفف عن النفس أحزانها وعن النفس شجونها وشجوها ، ومن القلب لوعته وأساه أن يسجل الشاعر مايحتبس فى صدره ، ويجد تعليلاً لهذا الأمر كله يقدمه للريحانى ، هو أن العراق لايتصرف حسب أهواء أبنائه ورغباتهم ، إنما هى توصيات العميل المستوردة وشعب هيمن عليه المستعمر لن ينال الخير والرفاهية فقال :

من أين يرجى للعراق تقدم وسبيل ممتلكيه غير سبيله !
لاخير فى وطن يكون السيف عند جبانه ، والمال عند بخيله
والرأى عند طريده، والعلم عند غريبه ، والحكم عند دخيله
وقد استبد قليله بكثيره ظلماً ، وذل كثيره لقليله(١٢)

وقد كانت آراء الرصافى سائدة بين شعراء هذه الفترة مثل عبد الحسين الملا (١٣) ، وعلى الشرقى (١٤) ، وصالح الجعفرى(١٥) ، وعبد الحسين الأزرى (١٦) ، ومهدى الجواهرى (١٧) ، فكلهم يرجع سبب تأخر العراق إلى المستعمر الذى رتع بخيرات الوطن ، وتصرف بجميع مقدراته دون أن يحس بمايعانيه أبناؤه من الشقاء ، فقال كمال نصرة بصراحة تامة ، يصف فوز الأجنبي وتنعمه بالعراق :

بلادى بها فاز الغريب بقصده فما خانه جد ولا عز مطلب
له راتب ضخم وعيش مرفه وأمر مطاع واحتكام ومنصب
وإن له عند الحكومة حرمة وقدراً تسامى وهو منها مقرب
أفى الحق أن نشقى ويسعد غيرنا ويغصب منها الحق والرزق يسلب(١٨)

وصور على الخطيب آلام الشعب العميقة تحت وطأة الدخلاء والمستعمرين الذين اكتسحوا أرضه وتعموا بخيراته ، دون أن يصلحوا من أمره ، ويرفعوا من مستواه عندما اختلطوا به ، وهز قلبه أنينه وبأواه فقال :

---

(١٢) ديوان الرصافى ص ٤١٥ — ٤١٧ . سمعت أن الملك فيصل لما سمع (والحكم عند دخيله) ترك محل الاحتفال احتجاجاً .

(١٣) جريدة النهضة العراقية العدد ١١٦ و ١٢٦ السنة الأولى والعدد ٢٨٢ السنة الثانية من سنة ١٩٢٨ .

(١٤) المصدر السابق العدد ١٤ السنة الأولى ١٩٢٧ .

(١٥) النجف العدد ٤ و ٧٥ السنة الثانية سنة ١٩٢٧ .

(١٦) جريدة النهضة العراقية ٩٧—١—١٩٢٨ والزمان ٣٩—١—٩٢٨ .

(١٧) المصدر السابق العدد ٢٦٠—١—٩٢٨ وجريدة المفيد العدد ٢٥٧—٢—١٩٢٤ .

(١٨) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٨٢ السنة الثانية ١٩٢٨ .

فخالط الشعب واسمع ما يئن به   وافسح مجالك للمظلوم بالكلم(١٩)

وألقى بعض الشعراء تبعة تأخر العراق على أبناء الشعب ، الذين شاركوا المستعمر فى حكمه فقال (ميمون بن قيس) – ولعله خيرى الهنداوى – يخاطب الوطن :

حتى بنوك مع الدخيل عليك متحدى الأيادى

ويصم أبناء الوطن بالخور والضعف ؛ لأنهم لم يقاوموا المستعمر وأذناب المستعمر الذين عميت قلوبهم عن مصالح وطنهم ، ونفذوا رغبات الدخيل دون تفكير ، فهم المسئولون عن كل ماحل بالبلاد من فساد وفوضى ، فقال :

هم علة الوطن العزيز وهم جراثيم الفساد (٢٠)

وقد أكد هذا المعنى محمود الملاح فى شعره ، ومن طريف شعره بيت قال فيه :

الخير فى هذى البلاد مقسم   بين (المساتر) من (سمث) (وكوك)

ويرجوك الشاعر أن تتلمس الواقع بنفسك فى الأسواق بالاحتكاك بأبناء الشعب وتسقط حالته الاقتصادية والعلمية ، وما وصلت إليه من التدنى والتأخر فيقول :

انزل إلى الأسواق تلق متاجراً   أربابها فى رثة الصعلوك
العامل المسكين يبذل جهده   ويعيش عيش البائس المنهوك
والعلم فى أوطاننا متقهقر   مغمورة أرجاؤه بالنوك(٢١)

أما مصطفى جواد فقد حار فى أمره واندهش من تصرفات الدخيل الذى ظن نفسه صاحب الدار ، ولم يرع لرب البيت حرمة ، فقد تنعم بالخيرات

---

(١٩) جريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .

(٢٠) مجلة المعرض العدد المزدوج ٩ و ١٠ السنة الثانية ١٩٢٧ .

(٢١) جريدة البلاد العدد ١١٠ – السنة الأولى – ١٩٣٠ وجريدة النهضة العراقية العدد ٢٩٧ السنة الثانية ١٩٢٩ له قصيدة أخرى .

وترك الفضلات لأصحاب النعم الذين هم أحق بها منه ، ولم يرسبيلاً إلى التخلص منه بغير الطرد والضرب والصفق فقال :

فأعجب بضيف صار للدار صاحباً وتعساً له قد باء بالطرد والصفق(٢٢)

وقد وجه الصافي النجفي لومه للشعب ، لأنه هو الذى خلق الحكومات ولو كان الشعب عادلاً لما جاءت إلا حكومة عادلة ترحمه وترأف به ، ولكن متى كان الشعب ظالماً كانت الحكومات التى تحكمه ظالمة مثله فقال :

دافع الشعب بالحكومة إن يظـ لمك وادفع بالشعب ظلم الحكومه
واحذر الكل فالحكومة بنت الشعـ ب خلقاً والشعب أم ظلومه

ثم يعزو تكوين الحكومات الظالمة إلى ظلم الشعب وعدم نضجه فيقول :

إن ظلم الشعوب «سوى» الحكومات وأنشا لنا الطقوس القديمه
فترى الشعب للحكومة لايحـ تاج لو كان ذا قلوب رحيمه
فالحكومات مثل أشواك سم أنبتتها أرض الشعوب الوخيمه

ونصح الشعب بإصلاح خلقه حتى يمكن أن تلغى الحكومات فقال :

أصلحوا خلقكم لتلغى الحكوما ت وعيشوا ذوى قلوب سليمه(٢٣)

وهذه القاعدة صحيحة متى كان الشعب قادراً على أن ينتخب حكومته من صميم أبنائه ، أما الحكومات العراقية فلم تكن تختار إلا بإرشاد من حكومة بريطانيا وليس للشعب أى رأى فى اختيارها، ولكن يأسه من إصلاح الحالة العامة دفعه لإلقاء اللوم على الشعب بعد أن رأى عدم عناية الحكومة الحاكمة بأموره وعدم ثورة الشعب على الحكومة الظالمة الأجنبية .

---

(٢٢) جريدة النهضة العراقية العدد ١٣١ السنة الأولى ١٩٢٨ وله قصيدة فى العدد ٦٨ من السنة نفسها .

(٢٣) الأمواج ص ٦٤ .

— ٢ —

مشكلة المرأة

من الفترات التي الحالكة مرت بها المرأة فى العراق فترة القرن التاسع عشر(١) وأوائل القرن العشرين فقد كانت محجبة لايسمح لها بالخروج من الدار إلا فى النهار وتحت مراقبة شديدة ، وقلما كنا نرى امرأة مسلمة تمر فى السوق ، بل إن مجرد سماع العراقيين ذلك يهز أعصابهم ويخيفهم(٢) ، وإذا أرادت الخروج كانت تسدل عليها العباءة السوداء أوالعباءتين وتتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شيء ، وعليها أن تمر فى الدروب الضيقة والأزقة المتعرجة ، وتتجنب المحلات العامة والمقاهى ، وإذا لم يكن غير طريق واحد كانت أمهاتنا يطلبن إلينا أن نسبقهن إلى المحل الذى سنزوره ؛ كيلا يعرف الرجال من مصاحبتنا لهن هويتهن ، وقد يبلغ التعصب بالرجل أن يمنع زوجه الخروج من البيت لأى سبب وقد سمعت أحد الشيوخ قبل سنوات يتحدث مفاخراً بأن زوجته لم تر عتبة الباب ، وخير وصف لحالتهن قول محمد بسيم الذويب :

ظلموك ، سجنوك ، زوجوك شر زوج فى الوجـــــود
قائلاً زوجى لاتخـــرج إلا يوم تدعـوها اللحـــود (٣)

ولايزال بعض الرجال يخجل من ذكر اسم الأم أوالزوجة أو الأخت

---

(١) الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر ط ١ ص ٢٤ .

(٢) Foster, H., The Making of Modern Iraq (London 1938) p. 217.

(٣) مجموعة خطية بقلم الشاعر فى مكتبتى الخاصة ويلاحظ ديوان الزهاوى ص ٢١٦ .

أمام الغرباء ، ولما انبثق القرن العشرون ودوى صوت قاسم أمين فى مصر تردد صدى صوته فى العراق ، فقد طالب بوجوب تعليم الفتاة وتخفيف الحجاب أورفعه عنها وإعطائها حقوقها الاجتماعية ، وحريتها الطبيعية مستنداً إلى تعاليم الدين الإسلامى التى تمنح المرأة مثل هذه الحقوق (٤)،وقد ساعد على نشر هذه الآراء عناية الجرائد المصرية بها والرد عليها ونشر أخبار المؤيدين لها . وكانت هذه الجرائد تصل العراق (٥) وتؤثر فى القراء ، فكان منهم المستحسن والمهاجم وقد انقسم الرأى كانقسامه فى مصر ، فنادى بعض القوم بوجوب تعليم المرأة وإعطائها حريتها ، واعتبارها إنساناً لها ماللرجل من حقوق وواجبات ، وإفساح المجال لها لتكون عضواً عاملاً لبناء المجتمع فى العراق ، واتخذ الدين الإسلامى وتعاليمه سنداً لهذه الآراء ، وضرب الأمثلة الحية من تاريخ العرب ، فقد حاربت النساء مع الرسول وظهرن سافرات معه وذقن آلام الأسر والتعذيب كالرجال .

أما الذين كانوا يقفون أمام التيار فأكثرهم من رجال الدين ، الذين يرون فى سفور المرأة واختلاطها بالرجال خطراً سيكلف المجتمع مشكلات خطيرة ، وعدوا السفور مخالفاً لتعاليم الدين الإسلامى ، وقالوا بأن السفور يقود الناس إلى المجون ، وأن إباحة النظر للمرأة سيهدم القيم الاجتماعية ، وقد اتهم دعاة السفور بأنهم دعاة فساد يريدون التمتع بالمرأة دون قيد أو شرط ، وهذه أمور لاتقرها التقاليد العربية ، ودعاة السفور كفار ،وذكروا فى دفاعهم فوائد الحجاب فهو يصون المرأة من الفجور ويكسر حدة الشهوة الجنسية(٦) وغير ذلك من الحجج .

كانت دعوة السفور دعوة جديدة هاجمت معايير المجتمع العراقى التى

---

(٤) الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين (القاهرة ١٩٥٤) جـ١ ص ٢٧٧ خير من كتب فى هذا الموضوع ولاحظ الاتجاهات الأدبية تأليف أنيس المقدسى جـ ٢ ص ٤٨ .

(٥) كان عدد ما يرد إلى العراق أسبوعياً نحو خمسة آلاف نسخة بضمنها الجرائد غير العربية يلاحظ مقال عن الصحافة فى جريدة البلاد الصادر فى ٧ شباط ١٩٣٥ ومقال عن (أثر الصحافة المصرية) فى (دار السلام) العدد ٨-١-١٩١٨ .

(٦) تنوير الأفكار العدد ٣ السنة الأولى ١٣٢٨ هـ .

اصطلح عليها وارتضاها ؛ لذلك كان من الصعب عليه أن يتخلى عنها بسرعة ، لأنها دعوة لم يألفها من قبل ، واهتز لها واضطرب وعاش فى دوامة من الحيرة والقلق ؛ لأنه كان بين نارين : العقل ومتطلبات الواقع من تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، وبين التقاليد والتربية الاجتماعية التى ألفها الفرد . ومشكلة المرأة مشكلة حساسة فى المجتمع العراقى الذى يرى أى خدش فى كرامتها خدشاً لكرامته ولكرامة الأسرة كلها . والأسرة العراقية متماسكة كل التماسك فأى عار يصيب امرأة من الأسرة فهو يصيب الأسرة كلها ، ويمنع المجتمع العراقى المرأة التحدث مع الرجل الغريب ، فكيف بالخروج معه ومخالطته والعمل معه ؛ لذلك فقد وجدنا حتى الداعين إلى السفور أرادوه بشروط ، كيلا يؤذوا مشاعرهم الاجتماعية التى نشئوا عليها فقد طالبوا بتعليم المرأة ومراقبتها ، وأن يكون سفورها محدداً بالوجه ، متعللين بالخوف من نكسة تصيب المرأة ، وطالب قسم بتعليم المرأة أولاً ثم سفورها حتى تتمكن من المحافظة على نفسها من الرجال .

وقد كان على رأس المناصرين لحركة تحرير المرأة الرصافى والزهاوى ؛ فقد نظم الرصافى قصيدته التائية عام ١٩٠٩ وقد آزرته جريدة الرقيب ومما قالته : « إن حالة المرأة فى مدينة بغداد حالة يستحى القلم من تحريرها لأنه لايوجد بينهن واحدة من عشرة آلاف من تحسن القراءة ، والسبب الأعظم هو تعصب سادتنا علماء الدين ضد تعليمهن .. » (٧) . وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير فى الحياة الاجتماعية العربية فقد تناقلتها الجرائد السورية وبادر بعض الشعراء يرد عليها مفنداً آراءها محرماً تعليم المرأة لعدم قدرتها على التعلم ، ولأنها من سقط المتاع (٨) ، وقد استمرت هذه الدعوة طويلاً ولم تنته (٩) ، مع أن المرأة قد حصلت على كثير من حقوقها ، وقد جرت بعض

(٧) جريدة الرقيب العدد ٧٤ السنة الأولى ١٩٠٩ العدد الصادر فى (٦ ذى الحجة ١٣٢٧هـ).

(٨) المصدر السابق .

(٩) حدثنى المرحوم الأستاذ خيرى الهنداوى أن المرحوم يوسف العطار — من أبرز رجال الاين آنذاك — استغل قصيدة الدفاع عن السفور عندما هجاه الرصافى فذهب إلى الملك على وكان يؤثر رجال الدين وأقنعه بكفر الرصافى وطلب إليه معاقبته بقطع راتب قدره ٥٠٠ روبية كان يتقاضاه بتأثير أخيه الملك فيصل بعد أن أقسم عليه بقطعه .

المتاعب على الرصافى(١٠)، وديوان الرصافى يطفح بموازرة المرأة، حتى إنه أفرد لها باباً أسماه (النسائيات) إضافة إلى وجود بعض قصائد فيه (١١)، وقد بحث الرصافى جميع مشكلات المرأة الاجتماعية فكان اجتماعياً وخبيراً بهذه المشكلات ، ولم يكتف بمشكلة المرأة فى العراق ، إنما ساهم فى البحث عن مشكلتها فى الشرق ، فذكر غمط الرجل لحقوقها واحتقاره لها ، وجهلها الذى جر إلى ذل الشرقيين وشقائهم(١٢) ، ولما أرسل قصيدته إلى صاحبة مجلة (الخدور) شكا لها سوء حالة المرأة فى العراق كثيرا ، وشبه المرأة كالنخلة إذا لم تكن قوية فلن يكون ثمرها يانعاً طيباً (١٣) ، وبحث فى مشكلة حرية الزواج التى اشترطها الدين الإسلامى والتقاليد العربية الأصيلة ولم يمنحها المجتمع لها منذ حجبها عن الرجل ، فمنعها من اختيار شريك حياتها فلا يراها إلا ليلة البناء ، وقد يكون عجوزاً أشيب أغرى أسرتها بالمال أو بالجاه أو كان للأسرة مصالح فى هذا الزواج فقال :

ظلموك أيتها الفتاة بجهلهـــم   إذ أكرهوك على الزواج بأشيبا(١٤)

والطامة الكبرى أن تمنع حتى من إبداء رأيها بهذا الزواج ، لأن رفض المرأة يعد عاراً عليها وعلى أسرتها . وقد تحدثت مع أحد أبناء الجيل الذى سبقنى بهذا الأمر فقال بصلف وكبرياء « لم تأتنا البنت التى تجرؤ على رفض رغبة أهلها » ؛ لذلك هاجم الرصافى هؤلاء وتساءل كيف تحب الزوجة زوجها إذا زفت إليه غصباً ، ولن يسود الوئام والسعادة بين الأسر إلا بإفساح المجال أمام تعليمها وسفورها ، حتى تختار من تريد فتملأ بيت الشرق بالسعادة فقال :

هل يعلم الشرق أن حيـــاته   تعلو إذا ربى البنات وهذبـا
وقضى لها بالحق دون تحكم   فيها وعلمها العلوم وأدبا (١٥)

(١٠) ديوان الرصافى ص ٣٣٢-٣٤٥ .
(١١) ديوان الرصافى ص ٥٤و ١٥٦ .
(١٢) ديوان الرصافى ص ٣٣٢ .
(١٣) المصدر السابق ص ٣٣٤ .
(١٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦ .
(١٥) القصيدة نفسها .

ويتخذ من ظهور كتاب (السفور والحجاب) للآنسة نظيرة زين الدين سبباً يتحدى به الرجال — الذين يناوئون السفور—إن كان بينهم رجل يحاكى المؤلفة ذكاء وعلماً وأدباً (١٦)، وهي نموذج رائع على قدرة المرأة المسلمة على التعلم وعلى الحرية (١٧) ، وقد أفرد للمرأة المسلمة قصيدة وصف فيها جهلها وبؤسها مع أن الإسلام يفرض تعليمها. ولعل التائية هي الجامعة لكل رأى فى سفور المرأة فقد حشد فيها الأدلة والبراهين والشواهد لتأييد رأيه فى سفور المرأة ، واعتبرها المدرسة الأولى التى يجب أن يعنى بها لينشأ الطفل مهذباً مثقفاً ويحزنه انحطاط المرأة المسلمة فيخاطب أم المؤمنين عائشة زوج النبي ويشكو إليها ماحاق بالمرأة ، ويرد على المدعين بأن الدين الإسلامى منع تعليم المرأة فقال :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الذين على اللواتى
لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشم منه مزلزلات

ويقرع المسلمين الذين لم يلتزموا بتعاليم الدين الإسلامى لانصرافهم عنه ، فظنوا أن منع المرأة من حريتها من صلب الدين ، ولم يقتدوا برسول الله ولا بنسائه وعناية السيدة عائشة بالعلم فقال :

أليس العلم فى الإسلام فرضاً على أبنائه وعلى البنات
وكانت أمنا فى العلم بحراً تحل لسائليها المشكلات (١٨)

وقال : إن تعاليم الدين قد نصت على تعليم المرأة وإعطائها حقوقها ، وفى التاريخ العربى خير برهان ، ويشير إلى حياة المرأة البدوية الحاضرة

---

(١٦) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

(١٧) السفور والحجاب محاضرات ومناظرات تأليف الآنسة نظيرة زين الدين بيروت بيروت ١٩٢٨ لاحظ الصحفات ١٤٨ و ٢٧٥ و ٢٨٠ بشأن شعراء العراق وكتابه . وقد أثنت الكاتبة على الرصافى وعلقت على شعره واستحسنته ص ١٤٨ وقد جاء فى الكتاب على حرية السفور وحرية العمل فى الإسلام وناقشت آراء مستحسنى الحجاب ، واستندت إلى القرآن والحديث وأخبار العرب[؟] وشعر شوقى [و]إسماعيل صبرى والرصافى والزهاوى وحافظ وأعلام الإصلاح الدينى مثل الأفغانى ومحمد عبده وبرهنت على القابلية الكبيرة فى تعاليم الدين الإسلامى على السفور وحرية المرأة وحقوقها .

(١٨) ديوان الرصافى ص ٣٣٩—٣٤١ وقد ألقى هذه القصيدة عام ١٩٢٢ .

ولا يكتفى بذلك بل يلقى قصيدة يدعو فيها إلى رأيه فى أحد الاحتفالات ، يندد فيها بجماعة الحجاب ويهاجم المحافظين والمتعصبين فيقول :

إلاما لأهل الشرق فى برحاء ... يعيشون فى ذل به وشقاء
لقد حكموا العادات حتى غدت لهم ... بمنزلة الأقياد للأسراء

وفى القصيدة يقول :

ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم ... على الذل شبوا فى جحور إماء
أقول لأهل الشرق قول مؤنب ... وإن كان قولى مسخط السفهاء
ألا إن داء الشرق من كبرائه ... فبعداً لهم فى الشرق من كبراء(١٩)

ويلاقى الرصافى حملة عنيفة من الحجابيين ويسمونه المارق والتافه الذى خرق العادات ، وغير ذلك من النعوت مثل قول إبراهيم الرحيمى :

تجاهلت فى كل الأمور سفاهة ... وما أنت إلا تافه الرأى جاهل
خرقت بنظم الشعر عاداتنا التى ... بها تحمد العقبى وترضى الأوائل(٢٠)

ومن الشعراء المشهورين الذين هاجموا الرصافى محمد السماوى، ولم أطلع على قصيدته غير أننى وجدت قصيدة لخيرى الهنداوى يرد بها على السماوى ، الذى قال بأن المرأة ناقصة عقل ودين ، ولا يجوز أن تمنح الحرية لأنها لا تحسن استعمالها (بنفس البحر والروى) :

تقول بنقصهن إذن فلم لا ... تكمل بالعلوم الناقصات
وهل عدت سكينة حين تبدو ... وتنتقد الكلام من السراة(٢١)
وهل عدت صفية يوم قامت ... لقتل العلج كالمتبرجات(٢٢)

ورد على قصيدته الهمزية عبد الحسين الأزرى فخاطب فيها بنت بغداد (كريمة الزوراء) وحذرها من شاعر خيالى بعيد عن واقع الحياة هو الرصافى ، ووقف موقفاً وسطاً ، فهو ما أراد أن تسفر الفتاة فقال :

---

(١٩) ديوان الرصافى ص ٣٤٤ .

(٢٠) الناشئة الجديدة العدد ١٧ السنة الأولى ١٩٢٣ .

(٢١) السراة : المتبرجة .

(٢٢) ديوان خيرى الهنداوى (المخطوط) .

أولم يروا أن الفتـاة بطبعهـا   كالماء لم يحفظ بغير إنـاء
من يكفل الفتيات بعد ظهورها   مما يجيش بخاطر السفهاء
ومن الذى ينهى الفتى بشبابه   عن خدع كل خريدة حسناء

ولكنه أرادها أن تتعلم وتتثقف على شريطة الاحتفاظ بالنقاب حتى لاتختلط بالرجال فقال :

ليس الحجاب بمانع تهذيبها   فالعلم لم يرفع على الأزياء
أو لم يسغ تعليمهن بدون أن   يملأن بالأعطاف عين الرائى

لأن السفور يملأ قلوب الرجال عشقاً وفتنة ، وعلى أبناء الوطن الحذر من دعاة السفور ؛ لأنهم كاللصوص يريدون أن يعيثوا بالوطن فساداً فقال متسائلاً :

ماذا يريبك من حجاب ساتر   جيد المهاة وطلعة الدلفاء
ماذا يريبك من إزار مانع   وزر الفؤاد وضلة الأهواء

ويقول صراحة إن اجتماع الفتاة بالفتى مجلبة للهوى :

هل فى مجالسة الفتاة سوى الهوى   لو أصدقتك ضمائر الجلساء(٢٣)

ولعل أعنف رد على الرصافى هو رد صديقه محمد بهجة الأثرى، فقد هاجمه عندما نظم قصيدته العينية (٢٤) ، فقال إن الرصافى طالب خلاعة وإنه جاهل ثم رماه بالكفر والضلال والمروق ، ومن الطريف أن ينشر الرد فى جريدة الرصافى (الأمل) ويرد عليه الرصافى رداً لطيفاً هادئاً ويعذره فيما ذهب إليه ، لأنه حماس الشباب دفعه إلى ماقال وختم مقاله بالرجاء له بالخير(٢٥) ، وقد صدق جانب كبير من رجاء الرصافى فقد وجدتُ فى مجموعة شعر الأثرى الخطية قصيدتين إحداهما نشرت فى مجلة الرسالة

---

(٢٣) الأدب العصرى جـ ٢ ص ٥٥ و ٥٦ وقد جمع مصطفى عبد الجبار القاضى (مختارات فى الحجاب والسفور) وطبعها فى بغداد سنة ١٩٢٤ وأعاد نشر هذه القصيدة ، وقال فى مقدمة لها « وحرى بكل أديب أو أديبة يحبان العفة والفضيلة أن يجعلا هذه المنظومة دستوراً لتعاليم الفتاة الشرقية » ص ١٣٠ .

(٢٤) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

(٢٥) جريدة الأمل العدد ٦٣ السنة الأولى ١٩٢٣ .

العدد ١٣٣ وصف ماتعانيه المرأة من مشاق وعذاب ، ووصف فى الثانية الرجل الذى إذا بشر بالأنثى (ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) وإن لم يكن الأثرى فيهما من دعاة السفور فإن فيهما دعوة إلى إنصاف المرأة قال :

عجبت للمــرء وكـــم داعيـــــة للعجب

إن بشـــروه بابنـــة يبت صـــريع الغضب

وكان الزهاوى مندفعاً فى تأييد حقوق المرأة وسفورها ، فقد قال عنه رفائيل بطى أنه نشر مقالاً فى جريدة المؤيد الأسبوعية المصرية فى عددها ٦١٣٨ بعنوان (المرأة والدفاع عنها) ، ولم يكن المسلمون على استعداد لتقبل هذه الآراء ، فقامت ضجة هاج لها المسلمون ، وأشاعوا بأن الشاعر تحامل على الدين الإسلامى فى مقاله وذهبوا متجمهرين إلى والى بغداد العثمانى ، وطالب أحد المبعوثين[٢٦] وإلى بغداد بعزل الشاعر من وظيفته فأجيب إلى ماطلب ، ولزم الزهاوى داره خوفاً من أذى الناس[٢٧] .

ولنعد نتلمس بعض الحقائق ، ونر الجو الذى أحاط بالزهاوى، فنقرأ مقاله فى جريدة الرقيب والذى وجهه إلى «ناظم الحكومة فى بغداد»، فقد قال فيه « .. أسمع أن أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى فى بغداد — هذا البلد الذى يسيطر عليه حكم الدستور ، وعدلك الواق — أخذ يدبر وحى فتنة ، فقام يحرض الجاهلين على الإيقاع بى باسم الدين البرىء من الظلم ، جزاء مقالة اجتماعية نشرت بإمضائى فى المؤيد الأسبوعى — كما فى تنوير الأفكار — دفاعاً عن المرأة .. » ثم أخذ يشكك بكاتب المقال وشخصيته فقال : « ... وهى عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها لم يتعين بعد أكاتبها أنا ، أم هى مزورة على لسانى من عدو لى فى العراق ؟ والذى أرجو من الحكومة الدستورية أن لاتقتص من الصابغين أكفهم بدمى إذا كان ما يريده المحرضون — أظنهم أكثر من واحد — بل تعنى بتعليمهم وإنقاذهم من

(٢٦) السيد مصطفى الواعظ .

(٢٧) الأدب العصرى جـ ١ ص ٩ ويلاحظ المقال فى عدد (المؤيد) المرقم ٦١٣٨ الصادر فى السابع من أغسطس ١٩١٠ .

الجهل لئلا تمتد أيديهم فى المستقبل إلى منكد آخر مثلى يتمنى فى كتاباته إصلاحاً للأمة اجتماعياً . . »(٢٨) وقد نظم الزهاوى قصة ذكر فيها أن الناس تجمهروا ثم جاءوه غضاباً صاخبين ، وكان منظرهم مضحكاً كما وصفه الزهاوى ، فهذا سائر على مهل وذاك يحبو وذاك يعدو وذاك يقفز (٢٩) ، وكأنهم ذاهبون إلى دعوة فرح لا إلى الانتقام من شخص كافر ملحد ، وقد كرر الزهاوى هذا المعنى فى قصيدة أخرى ، وعزا تجمهر الناس إلى أحد رجال الدين الذى أوغر صدورهم بأنه زنديق ، ومن يفتك به يدخل الجنة (٣٠) .

هذه ثلاثة مراجع ذكرت تألب الناس على الزهاوى ، وتظاهرهم ضده للفتك به وقتله وهدر دمه ، ولنناقش هذه المصادر وقضية المظاهرة ضد الزهاوى :

المصدر الأول رفائيل بطى وقد أخذ معلوماته من الزهاوى مباشرة وقد صاغ الزهاوى ما أراد وأسبغ على نفسه مااشتهى ، وهو لايخرج عما نظمه الزهاوى .

المصدر الثانى ماكتبه الزهاوى فى جريدة الرقيب وفيه يعبر عما حدث له من آلام ، شاكياً للوالى طالباً حمايته متبرئاً من أقواله ، وليس فى النص شىء عن تجمهر الناس وقيام مظاهرة ، وإنما هناك من يحرض الناس للإيقاع به ، وهذا كثيراً ما يحدث . فالمصدر الأول والأخير عن قيام مظاهرة ضد الزهاوى هو الزهاوى فى شعره ونثره ، وليس من المعقول أن تحدث مظاهرة ضد الزهاوى ، ولاتقف بجانبه جريدة الرقيب وتسنده كماساندت الرصافى ، لذلك فأنا فى شك مريب من حدوث مثل هذا الأمر وكل ماحدث للزهاوى إرسال كلمة تهديد مغفلة التوقيع (٣١) ، فصور خياله حدوث مظاهرة تريد الفتك به ، فنظم قصيدة رسم ما تخيله فيها واستحلى الأمر وكرره واعتقد هو بصحته . وقد يرد قائل لم يعزله ناظم باشا من منصبه ،

---

(٢٨) جريدة الرقيب العدد ١٧٢ السنة الأولى ٧ شوال ١٣٢٨ هـ .
(٢٩) ديوان الزهاوى (مصر ١٩٢٤) ص ٣٠٧ إلى ٣٠٩ .
(٣٠) نفس المصدر ص ٩٠ إلى ١٩٣ .
(٣١) حقيقة الزهاوى للعبيدى ص ٦٠ .

والجواب عنه بأن الزهاوى كتب المقال ولم يتفق مع رأى ناظم باشا ، وربما استرضى بعض رجال الدين ، وقد كان ضد الزهاوى لأنه كانَ يكره الاتحاديين الذين كان الزهاوى منهم ولكن لم تحدث مظاهرة ضد الزهاوى ، ولو كان الرأى إلى نشر شعره ، ثم إن الرقيب آزرته بمقال نشر فى ٦ذى الحجة ١٣٢٧ ، ونشر الزهاوى قصيدته ثم كلمته الموجهة إلى ناظم باشا فى ٧ شوال ١٣٢٨ وهناك فرق زمنى بين نشر القصيدتين ، ولعل ما أثار رجال الدين على الزهاوى هو تطرفه فى الدعوة التى لم تؤد إلى مظاهرة .

الزهاوى بطبعه خائف شكاء بكاء يهول الأمر ، لإبراز نفسه بصورة البطل لكى يغطى على خوفه ، وهو مريض سقيم إذا أصيب بألم صرخ وجأر وبكى واشتكى فيقول :

أشكو إلى أى هذى الناس مظلمتى   وقددرى باضطهادى الترك والعرب(٣٢)

وفى قصيدة أخرى يصف جزعه وكأنه طفل يبكى فيقول :

لى تحت أستار الدجنـــة رنـــة مشـــفوعة بتنهـدى وزفيرى
مرفوعة للخىّ سمـــع راحـــم مدفوعة من قلبى المكسور (٣٣)

بل يتصاغر فى هذه القصيدة حتى يصف نفسه بالعصفور الذى تهاجمه الغربان والنسور ؛ فيهربُ متوارياً خائفاً فى جحر جدار ، ومن كانت هذه صفاته لاشك بأنه يحاول أن يجعل من نفسه بطلاً بعد فوات الأوان ، ويسبغ على نفسه صفات الزعامة والإصلاح . ولو كان وجود المظاهرة حقيقة ، وأن الوالى عزله بسبب مطالبته فى الإصلاح ، فلمَ لم يذكر ذلك فى قصيدته التى سب بها ناظم باشا بعد عزله وكان سبب نكبته(٣٤) . وتظهر أخلاق الزهاوى جلية فى شعره فقد وجدناه يئن ويبكى ويزفر طول الليل ويذرف الدمع السخين خوفاً وهلعاً ، أما الرصافى فقد كان معتزاً بنفسه وبكرامته ، ويفخر بما يصيبه من الألم ويتحمله ولا أشك فى أن الرصافى

---

(٣٢) ديوان الزهاوى ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٣٣) المصدر السابق ١٠٩ .

(٣٤) المصدر السابق ص ٧٣ وقد فرقها فى الديوان حسب موضوعاتها فى الصفحات ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٧٦ و ٣٠٧ .

كان يتألم ويبكى ويهلع شأن كل إنسان ، ولكن الرصافى لم يحاول أن يرسم فى شعره شخصيته قلقة خائفة .

ولست أنكر فضل الزهاوى على تحرير المرأة وصدق دعوته ونضاله فى سبيلها ، فشعره يطفح بالأمثلة الحسنة ، ولكن لم يكن مركز الآراء موحد الموضوع عميق الفكرة ، فهو يطالب بحرية المرأة وسفورها وإعطائها المركز اللائق بها ولكنه يعالج بنفس القصيدة مشكلات أخرى ولا ينسى أن يحشر نفسه ، فمن شعره فى مهاجمة الحجاب يخاطب فيه الفتاة :

مزقى يا ابنة العــراق الحجابا   واسفرى فالحياة تبغى انقلابا
مزقيــه واحرقيــه بلا ريــــث   فقد كان حارساً كذابا
مزقيــه وبعــد ذلك أيضــاً   مزقيه حتى يكون هبـــابا
وانزعيــه بقوة وطئيـــــه   واجعلى فى فم الخنيــق ترابا

ويهاجم دعاة الحجاب ويرد عليهم فيقول :

زعموا أن فى السـفور سـقوطاً   فى المهـاوى وأن فيه ضرابا
وإذا ما طالبتهم بدليـــــل   يثبت الدعوى أوسعوك سبابا
كذبوا فالسفور عنوان طهـــر   ليس يلقى معرة وارتيابا (٣٥)

ويتلخص رأى الزهاوى فى السفور بقوله :

قال هل بالسفور نفع يرجــى   قلت خير من الحجاب السفور
إنما فى الحجاب شل لشــعب   وخفــاء وفى السفور ظهــور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب   منه نصف عن نصفه مستور (٣٦)

وقد عالج الزهاوى فى شعره مكانة المرأة وبحث ما تعانيه من سوء المعاملة وتطرق إلى تعليمها وعكس لنا أحاسيسه الشخصية أكثر مما عكس لنا مجتمعه ، فقد كان الزهاوى مريضاً مصاباً بالأوجاع والأسقام ، ولا يحنو عليه ويرأف به سوى زوجه ، وكان صدى هذه العناية عميقاً فى نفسه فأراد

(٣٥) اللباب ص ٣٣٥–٣٣٩ .
(٣٦) الأوشال ص ٣٣٥–٣٣٩ .

ن تعامل المرأة معاملة مثلى ، ولم يكن له من شفيع إليها غير لسانه فأطال فيها القول وأشاد فى شعره فى الدفاع عنها ، وطالب بمعاملتها برقة وحنان ، ولم يكتف بذلك بل هاجم الرجال وقال إنهم قساة غلاظ القلوب ، مع أن الرجل فى كل زمان ومكان يذوب رقة مع المرأة ويعاملها معاملة تختلف عن معاملة الرجال وخاصة فى المجتمع العراقى ، ولم يكتف بذلك بل بالغ فى أوصاف المرأة فوصفها بالربيع والأزاهير ، وأن صوتها الموسيقى الرائعة ، وهى التى ترعى زوجها بقلب محب عميق الحب ، ولولا وجودها لما طابت الحياة وأنه عبد مطيع لها ، ثم يجمل سعادته النفسية بأن تطيعه زوجه وأن يطيعها فقال :

سعادة المرأة زوج يطيعها وتطيع (٣٧)

فسعادته هو أن يطيع زوجه ثم استدرك وأضاف أن تطيعه لاستكمال البيت . وقد كان الزهاوى يعطى زوجه كل الأهمية فى شعره ، وكأنى به كان ينظم وأمامه زوجته وقد نسى فضل الأم التى لا تقل قيمة فى أهميتها عن الزوجة ، ولعل حرصه على رضا زوجه هو الذى دعاه إلى ذلك .. وقد كرر هذه المعانى كثيراً فى شعره وأكد على ضراوة الرجل وصبر المرأة كما بحث مشكلات المجتمع كالطلاق وزواج الفتاة بعجوز (٣٨) وبإنسان تكرهه ، أو برجل سيئ الخلق شرس الطباع(٣٩) ، وقد طالب الزهاوى بمساواة المرأة بالرجل واتخذ من الغرب نموذجاً لهذه المساواة فقال :

للمرأة اليوم فى مجلس القضاء محل

للمرأة اليوم فى البرلمان عقد وحل

للمرأة اليوم فى استكشاف الحقائق شغل (٤٠)

ورأى صورة الأسرة السعيدة الناجحة هى فى أوربا ، والبيت يقطر سعادة وهناء حين يمرح فيه الأطفال ، فقال :

(٣٧) ديوان الزهاوى ص ٣١٠-٣١١ .

(٣٨) المصدر السابق الصفحات ٣٨ و ٦٨ - ٧٣ و ٣١٧ و ٣١٨ والأوشال ص ٧١ .

(٣٩) ديوان الزهاوى ص ٣١٠ و ٣١٤ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٣١١ .

بيت نظيف وأولاد قد ازدهروا كأنهم زهر فى الروض ينتقل
والبيت فيه نظام حين تبصره وإنه لنظام مـا به خلـل
تبقى المودة حتى المـوت بينهما فما هنا شنآن ولا ملل (٤١)

وكما هوجم الرصافى فقد هوجم الزهاوى واتهم بالإلحاد والكفر والزندقة (٤٢)، وكان مركز دعاة السفور بغداد لأنها أكثر تأثراً بالحضارة والحركة ومركز الثقافة (٤٣).

أما دعاة الحجاب فقد قاوموا الدعوة إلى السفور منذ ظهورها فى يومها الأول، وبقى هؤلاء صامدين يحاربون الدعوة للسفور وحرية المرأة وتعليمها، ومن ثم بدءوا يتساهلون ويعلمون المرأة، فقد تغيرت الأحوال العامة ودخلت الحضارة فى الشرق، وتطورت المجتمعات الشرقية بصورة عامة، وأخذت تنخر فى القوى المحافظة يوماً بعد يوم. وقد كان من أشد المعارضين للسفور رجال الدين ومن أقواهم أسلوباً الشيخ جواد الشبيبى، فقد وضع مشكلة السفور فى مصاف مشكلات الوطن وخطوبه الجسام التى أقلقت باله وأرقته، فهى مشكلة لا تقل قيمة فى نظره عن الاستعمار وفساد الحكم وفقر العمال، وقد وصف السافرات بأنهن داعيات إلى الخلاعة وأن السفور منعه الرسول والقرآن، وسفور الوجه يكشف حمرة الخدود وزهو الوجوه، وقد تشدد الشيخ جواد فى رسمه للطريق الأمثل الذى يجب أن تحتذيه فى الكلام واللبس، ولو عدنا بأذهاننا إلى العصر الذى عاش فيه الشبيبى لوجدنا مقدار أهمية هذه القصيدة، فقد كانت الهوة سحيقة بين حياة الرجل وحياة المرأة ولكل من حياته ما يختلف عن غيره، ولعل وجود (الحرم) و (الديوه‌خانه) يعطينا فكرة واضحة عن هذين العالمين اللذين ابتعد بعضهما عن بعض. ولم يكن دعاة السفور يطلبون إلا كشف الوجه والاحتفاظ بالعباءة أو العباءتين،

---

(٤١) الأوشال ص ٧٠.

(٤٢) لاحظ قصيدة محمد رشيد الشيخ داود مدرس جامع الحيدرخانة فى (النجف) العدد ٥٤ السنة الثانية الصادر فى ٥ أيلول ١٩٢٦.

(٤٣) توجد إشارة للسفور فى شعر الصافى النجفى فى ديوانه الأمواج ص ٧٩.

فلا نعجب أن قاوم المحافظون السفوريين ، وفى قصيدة (الجواد) نموذج رائع لما كان يفكر به آباؤنا ، قال :

منع السفور كتابنا ونبينا فاستنطق الآثار والآيات
تلك الوجوه هي الرياض بها ازدهت للناظرين شقائق الوجنات
كانت تكتّم فى البراقع خفية من أن تمس حصانة الخفرات
واليوم فتّحها الصبا فتساقطت بعواطف الألحاظ والقبلات
صونى جمالك بالبراقع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات

ويمنع الفتاة من أن ترفع صوتها لأن الجهر بالصوت ليس للفتاة ، إنما للفتى المحاج أو الخطيب ، ويوصى الفتاة فى ملبسها فيقول :

وضعى الصدار على الترائب إنه حق عليك فحُق نهدك ناتى
وتماثلى فى البيت صورة دمية مكنونة الأعضاء فى الحبرات (٤٤)

وقد كانت أكثر الصحف تؤيد الدعوة إلى الحجاب ، فإذا قرأنا الجرائد التى صدرت بعد عام ١٩٢٢ نراها تحمل علم الثورة على السفور ، ومن هذه الجرائد والمجلات : تنوير الأفكار والرشاد والمفيد والبدائع . أما الجرائد التى كانت تؤازر حركة السفور فكانت أولها جريدة العراق والصحيفة والعالم العربى وليلى . وقد كان أنصار الحجاب توفيق الفكيكى وجميل المدرس وخليل إسماعيل ومصطفى عزة عبد السلام ومحمد بهجة الأثرى والملا عبود الكرخى وعبد الرحمن البناء وحسين الظريفى وغيرهم . وكان من دعاة السفور حسين الرحال ورزوق غنام ومصطفى على وعونى بكر صدقى ورفائيل بطى ومصطفى عبد الجبار القاضى وغيرهم(٤٥) . وقد كان كل مطبوع ينشر ما يراه ملائماً لخطته فكانت مجلة تنوير الأفكار

---

(٤٤) ديوان الشاعر المخطوط فى مكتبة الشاعر محمود الحبوبى .

(٤٥) لاحظ (مختارات فى الحجاب والسفور) جمعها مصطفى عبد الجبار ، ففيها نماذج فريدة مما نشر وقيل عن السفور والحجاب حتى ١٩٢٤ (بغداد ١٩٢٤) وقد كتب الصديق الأستاذ خيرى العمرى مقالات ممتعة عن هذه المشكلة نشرت فى ملحق جريدة الشعب الذى كان يصدر باسم (عدد الأسبوع) فى الأعداد ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ صدرت عام ١٩٥٨ .

تقول إن الحجاب مشروع وتذكر منافع الحجاب للفتاة والمجتمع(٤٦) ـ وتهاجم مجلة الرشاد رزوق غنام لأنه طالب بارسال الفتاة إلى أوربا لكى تتعلم أسوة بالرجل ، فترد المجلة قائلة : إن إرسال البنات إلى أوربا معناه إرسالهن للتمرين على الخلاعة والفساد (٤٧) ، وتنتشر قصيدة للبناء يهاجم بها السفوريين بقصيدتين ويعتبر كشف الوجه أمراً لا تقره الشريعة الإسلامية ، وخشى على نفسه من الفتنة والغواية والانصياع لداعى الهوى ، ولم يخف على المرأة من الفساد والتهتك واعتبر دعوة السفور شركاً لاصطياد الضعاف للتمتع بالمرأة ، لذلك خاطب المرأة بقوله :

وجـوه الغانيات بلا نقـــاب تصـــيد الصيد فى شرك العيون
إذا برزت فتاة الخدر حسرى تقود ذوى العقول إلى الجنون(٤٨)

ثم يحذر الفتاة من الفخاخ المنصوبة لها ، وفى القصيدة الثانية يظهر ألمه واضحاً ، واعتبر السفور فتنة وشراً ، وشبه المرأة بالزهرة فى كمها فإذا تفتحت قطفت أو كالجوزة يراد كسر قشرها لتؤكل ويبدو تمسكه بالحجاب فى قوله عن لسان الفتاة :

برقعى وسط محيطى شــــرفى لم أحُد عنه ولو ذقت العذابا

ولم يكتف بهذا إنما خاطب العراقيين بقوله :

أيها القوم أصلحوا أنفســـكم خاب من رام سفور الوجه خابا(٤٩)

وقد كانت جرائد دعاة السفور تناضل فى الذود عن كيان السفور وتستحسنه ، وتنشر أخبار نساء العالم ، وتذكر تقدمهن فى حركة الإصلاح فى تركيا ، وما تحوزه فى أمريكا وأوربا من المناصب بعناوين ضخمة ؛

---

(٤٦) تنوير الأفكار العدد ٣ السنة الأولى الصادر فى ١٩٢٨ .

(٤٧) مجلة الرشاد العدد ٨١ السنة الثانية الصادر فى ٣١ تموز ١٩٢٨ .

(٤٨) مجلة تنوير الأفكار العدد ١٠ السنة الأولى ١٩٢٩ .

(٤٩) المفيد العدد ٢٧٠ السنة الثانية ١٩٢٤ ونشرت فى الديوان ص ١٦٥ ج ٢ ونشرت فى مختارات من الحجاب والسفور ص ١٢٠ .

التدلل على مكانة المرأة وقدرتها ، وتصف حالة المرأة الاجتماعية ، وتبحث في أنجح الطرق لإصلاحها والدعوة إلى السفور لأنه التجديد والبناء ، غير أن أكثر هذه الجرائد لم يكتب له الاستمرار ولعل اختصاصها الزائد بالمرأة وعدم وجود المناصرين لها هما اللذان قضيا عليها ، لأن الشعب العراقي آنذاك شعب جاهل تؤثر فيه الخرافات ، ويسير دون تفكير مع الذين يراهم زعماءه.

ومن الطريف أن يشارك الشعر العامي في هذه الدعوة ، فقد هاجم الملا عبود الكرخي دعاة السفور بقصيدتين عنوان الأولى (بعداً ثم بعداً ياسفوريين) والثانية عنوانها (حرية النسوان وفتاة غسان)(٥٠)، وكانت الدعوة إلى تعليم المرأة تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى السفور ، فقد اتفق أكثر العراقيين بعد تشكيل الحكم الوطني على ضرورة تعليمها سواء منهم من يدعو إلى السفور ومن يدعو إلى الحجاب . فقد كان الإنسان لا يجرؤ على الدعوة إلى تعليمها خوف أن تؤدي معرفتها بالكتابة إلى فساد أخلاقها . ولما احتل الإنكليز العراق فكروا في إنشاء مدارس للبنات أسوة بمدارس البنين ، ولكنها لم تفاجئ الناس بفتحها ، وإنما أعلنت نظارة المعارف في ١٩١٩ إعلاناً في الجرائد قدمت له بمقدمة قالت فيها : «إن الهيئة الاجتماعية لكل أمة تتقدم برجالها ونسائها معاً ، فلا يصلح الرجل وحده إذا لم يستعن بالمرأة التي هي أساس العائلة وسعادة الأمة ، فالمرأة الجاهلة لا تعرف شيئاً من مطاليب هذا العصر ، عصر الحضارة والعلم ولقد أسهب علماء التربية والاجتماع في أبحاثهم عن ضرورة تربية المرأة تربية صحيحة، لأنها محور سعادة العائلة».(٥١) ثم ذكرت الدروس التي ستدرس وقد سار تعليم المرأة سيراً بطيئاً ، فلم تؤسس في سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ غير ثلاث مدارس ، بينما كان عدد مدارس البنين ٨٥ مدرسة ووصل في السنة الثانية إلى ٢٧ مدرسة حتى وصل العدد عام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ إلى ٢٥٦ مدرسة ابتدائية وتأخرت مدارس البنات

---

(٥٠) مختارات في الحجاب والسفور ص ١٢٣ — ١٢٨ .

(٥١) جريدة العرب العدد ٧٠١ السنة الثالثة ١٩١٩ .

الثانوية حتى علم ١٩٥٣ – ١٩٥٤ (٥٢) . وقد كان لدعوة الجرائد إلى
نشر التعليم بصورة عامة ودعوة السفور عامل حسن الأثر ، وقد آزر الدعوة
كثير من الشعراء ، ولم يقدر المعارضون على وقف عجلة الزمن والتقدم ،
وقد اكتسحهم سيل المدنية ؛ فانتشرت المدارس ، وشاركت المرأة الرجل
فى الحياة العامة ، وفى كل الكليات عدا (الشرطة والجيش والشريعة) وقد
برزت فى الحياة الاجتماعية برغم حملات الصحف التى كانت تثيرها النسوة
ليسمعن صوتهن ويثبتن وجودهن .

(٥٢) (فى التقرير السنوى لوزارة المعارف) التفصيل فى الصفحات ١٠ ، ٤٠ ، ٥٠ .

— ٣ —

الفلاح والاقطاع

حالة الفلاح العراقى تدعو إلى الألم والحسرة الموجعة ، فلم يصبه أى تطور اجتماعى ملموس طوال هذه الفترة ؛ لأن أكثرية مالكى الأرض أو المهيمنين عليها هم من رؤساء العشائر الذين يستخدمون أبناء العشيرة لمنافعهم الخاصة . وقد فقد الفلاح الضمان الذى يحميه من الرئيس الذى كان يعطيه أيام الدولة العثمانية (١) بعض الدخل ليعيش عليه ، لأنه كان يعتبره فرداً من أفراد العشيرة وعليه أن يضمن له شيئاً من المورد . غير أن هؤلاء الشيوخ أخذوا يستولون على الأرض ، ويسجلونها بأسمائهم ، بعد أن كانت تسجل باسم العشيرة وتبقى باسم الدولة . وقد ساعد قانون تسوية الأراضى الشيوخ على استملاك الأراضى وتسجيلها بأسمائهم ، وحول أبناء العشيرة إلى فلاحين ليس لهم غير جزء من الإنتاج ، فتحول ابن العشيرة الذى كان له أرض يملكها إلى أجير يتقاضى أجرته كمية محدودة من الإنتاج ، مع أنه يقوم بكل ما تحتاجه الأرض من حرث وبذر وعناية طول الموسم الزراعى ، ثم يحصد الإنتاج فيأتى شيخ القبيلة ويأخذ أكثره . ولم تجده (٢) عوامل الرفاه المتيسرة فى العراق ، من وفرة المياه ، وخصوبة الأرض ، وتدفق

---

(١) كانت الأرض فى العهد العثمانى ملك السلطان ، ولما خسرت تركيا الحرب ودخل العراق تحت سيطرة الاستعمار الإنكليزى ثم الحكم الوطنى أصبحت الأرض ملكاً للدولة ، وكانت تؤجرها لشيوخ العشائر وقد كان يدخل فى الاستئجار عدة عوامل كنفوذ الشيخ وعدد أفراد العشيرة ومقدار خطره .

(٢) Land Reform & Development in the Middle East p. p. 135, 136, 137.

النفط فى رفع مستواه وإسعاده (٣) فما يزال الجوع القاتل ، والمرض الفتاك والجهل المطبق تعبث به ، فيعيش فى فقر لم ير الغرب مثله (٤) ، وكثيراً ما اضطر إلى ترك الأرض التى بذل جهداً فى شق ترعها ، لأنه عاجز عن شراء البذور اللازمة (٥) لها لتحكم رجال الإقطاع والمرابين فى مورده (٦) .

وقد ساعد ضعف الحكومات المركزية المتوالية فى العراق على توسيع نفوذ الإقطاع ؛ إذ أخذ كل إقطاعى يوسع أراضيه دون حسيب أو رقيب (٧) بطرق شتى ، مرة بإغراق الفلاح بالديون وأخرى بأخذ الأراضى بنفوذه وقوته ، حتى غدا الفلاح أجيراً مستمراً ، يشتغل عند الملاك والشيوخ ، لاستحالة تسديد ديونه من الحصة الضئيلة التى يتسلمها من الحاصل ، فهو لا يأخذ إلا حصصاً تتراوح بين ٥٠٪ — ٤٠ ٪ وقد لا يتجاوز حقه من الإنتاج ٢٥ ٪ (٨) وقد قدرت الباحثة الإنكليزية « دورين وارنر » دخل الفلاح العراقى بين خمسة باونات وخمسين باوناً (٩) ، ومن هذا المبلغ يصرف لطعامه ولشرابه وكسوته له ولأسرته . فلا نعجب إذا سادت الأمراض بين الفلاحين ، وتفشى سوء التغذية بينهم ، إذ قلما يأكل الفلاح طعاماً يسمن من جوع ، أو يغذى حاجة الجسم المجهد الضرورية ، ويتبلغ بالخبز وحده فى أكثر الأحيان ، أما اللحم فلا يفكر فيه يوماً من الأيام ، لأنه لن يجده إلا على موائد الشيخ الإقطاعى الذى يقيم الحفلات لذوى

---

(٣) المصدر السابق .

(٤) مقدمة كتاب وارنر Land & Poverty in the Middle East.
ونظرات فى إصلاح الريف — عبد الرزاق الحسنى ص ٢٦ و ٢٨ (بيروت ١٩٥٤) ومجلة عالم الغد مقال باقر الدجيلى .

(٥) راجع الأسباب الموجبة لسن قانون استثمار أراضى الدجيلة .

(٦) الملكية الصغيرة فى العراق — بغداد ١٩٥٣ الصفحات ١ و ٢ و ٧٥

(٧) لبحث مشكلة الإقطاع فى العراق يراجع الإقطاع والديوان فى العراق لعبد الرزاق الظاهر . ونظرات فى إصلاح الريف لعبد الرزاق الهلالى . والإقطاع فى العراق لإبراهيم كبه .

(٨) نظرات فى إصلاح الريف (بيروت ١٩٥٤) ص ٢٦ و ٢٨ وعالم الغد العدد ٢٣—١ مقال لباقر الدجيلى .

(٩) الأرض والفقر لاحظ المقدمة .

السلطة ، ويعطى الفضلات للفلاحين الذين ينتظرون فروغهم من الأكل بصبر زائد .

وليس للفلاح قانون يحميه من الإقطاعى ، فهو يطرده متى أراد ويلاحقه بالديون التى أخذها ليأكل بها ، وليعيش ، وقد حكمت بعض القوانين عليه بالبقاء فى خدمة الإقطاعى حتى بسدد ديونه ، ولا يجوز لمالك آخر أن يستخدمه ما دام مديناً بمبلغ لمالك غيره (١٠) ، ومن هجر القرية تخلصاً من هذا الرق فالسلطات تلاحقه وتحجز أجرته اليومية لتسديد ديون الإقطاعى (١١) ، أما الماء النقى فهو من الكماليات التى لم يفكر فيها الفلاح ، فقد اعتاد على الماء يشربه من الأنهار مباشرة ، يحمله فى جرار وحباب لخزنه لا لتصفيته ، ويسكن فى بيوت مبنية من الطين وسقوفها من الجريد ومن جذوع النخل ، ويعيش مع حيواناته فى حجرة واحدة لا نوافذ لها لأنه يخشى البرد القارس إذا فتح نافذة ، وفى بعض المناطق من جنوبى العراق يسكن الفلاح فى صرائف معمولة من الحصر والباريات ، وقد يفترش الأرض أو يبنى له دكة من الطين مرتفعة عن الأرض قليلاً (١٢) . وقد انتشرت هذه الصرائف حوالى بغداد هرباً من جحيم الإقطاع وأملاً فى الكسب من العاصمة بما يقوم به الفلاح من أعمال فى مختلف مناحى الحياة . وقد حاولت بعض الحكومات العراقية إصلاح حال الفلاح العراقى بتشييد بعض القرى الحديثة لرفع مستوى حياة الفلاح وتشجيع الملكية الصغيرة فى مشروع الدجيلة (١٣) ، غير أن الإقطاعيين وكبار الملاكين كانوا يقاومون هذه الإصلاحات بقوة خوفاً من أن ينتبه الفلاح ويحد من سلطانهم ، وقد ساعد على موازرتهم تشابك مصالح رجال الحكم مع مصالح الإقطاع (١٤) ؛

---

(١٠) قانون حقوق وواجبات الزراع رقم ٨ لسنة ١٩٣٣ .

(١١) المادة ١٦ ب من القانون المار الذكر .

(١٢) الملكية الصغيرة فى العراق ص ٢٦ و ٧٨ ومقدمة الأرض والفقر .

(١٣) قانون تشييد القرى الحديثة رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٦ .

(١٤) الأرض والفقر ص ١١٩ ونظرات فى إصلاح الريف ص ٤٢ و ٤٦ .

لذلك لم ينفذ قانون تشييد القرى بالرغم من مرور عشرين سنة على تشريعه(١٥) ، لعدم وجود قوة تضطر الحكومة إلى العمل به ، والحد من شهوات هؤلاء ، ولن تحد من أطماعهم وسلطانهم غير صدق النية والقوة (١٦) .

أما التعليم بين الفلاحين فمتأخر جداً ، وشيوخ القبائل يكافحونه مكافحة جبارة فهم يرتعبون من تعليم الفلاح خوفاً من أن يشعر بالغبن الواقع عليه من قبلهم . ومما يؤسف له أن يساعد الإقطاع وشيوخ القبائل موظفو الدولة ليحصلوا على رضا الشيوخ وهداياهم ، وكثيراً ما هددت أرواح المعلمين وسرقت أمتعتهم حتى جزعوا وتركوا العمل من بين ظهرانيهم ، ولا ننسى معاملة المعلم بالاحتقار والازدراء ، وعدم حمايته من موظفي الإدارة ورد الأذى عنه وكثيراً ما يتعامون عما يصيبه ويلقون اللوم على المعلم نفسه (١٧) .

هذه حال الفلاح العراقي العامة انعكست في الشعر العربي في العراق ، وقد حاول الشعراء إسعاده لأنه جزء من هذا الشعب الكبير . والملاحظ أن شعراء الفرات ولا سيما النجف هم أكثر عناية بمشكلات الفلاح ؛ لاحتكاكهم المباشر به ، ولأن أكثرية الشعراء هم من طبقة فقيرة لهم صلات وثيقة به ، ويقابل هذا الأمر شعراء المدن الذين عنوا عناية خاصة بالفقر والفقراء ومشكلاتهم . ولعل أبرز شاعر عالج مشكلة الفلاح بعمق وبإخلاص هو محمد صالح بحر العلوم فقد أهدى ديوانه « العواطف » إلى الفلاح قائلاً :

تقبل أيها الفلاح مني عواطف يستبان بها شعوري
ولا تحزن إذا لم تلق ثوباً يقيك ، وثوب غيرك من حرير
فشأن الدهر لم يعرف ضعيفاً ولم يألف مجاراة الفقير

وقد فاض الديوان بوصف حالة الفلاح عامة ، وما أصابه من بؤس وشقاء وجهل واستغلال ومرض وتأخر وانحطاط في حياته ، ففي إحدى

---

(١٥) وقت كتابة هذا البحث كان أغسطس ١٩٥٦ .

(١٦) حدثت ثورة ١٤ تموز الخالدة من هذه الشهوات وحدت سلطانهم .

(١٧) قضى الكاتب بعض سني حياته معلماً في قرى ديالى وتلمس مشكلات الفلاح بنفسه .

قصائده سمى الفلاح (الحى المقبور) (١٨) ، وصف بها ما يعانيه الفلاح من آلام وكيف استغله أصحاب القصور ولم يعطوه ما يقابل أجره وكده ، إنما كان جزاؤه الحرمان والجوع ، فهو يأكل أردأ الأطعمة ، ويتحمل برد الشتاء وزمهريره ، وحر الصيف ورمضاءه ، صابراً على عيشه مع الحيوانات ، وبعد أن أتم وصفه حفّز الفلاح وأثاره على أولئك الذين تآمروا على قتله البطيء، لأن قلوبهم خالية من الشعور ونفوسهم مجردة من الأحاسيس والعواطف ، مبتعدة عن الإنسانية والرحمة . وفى قصيدة أخرى يحيي الثورة ويسمى الثورة العراقية ثورة الفلاح (١٩) اعترافاً بما بذله من جهد ، فقد ضحى بروحه وبماله ، وحارب المحتلين لكى يجليهم عن أرضه بعزيمة لم تعرف الكلل وقوة لم تعرف التوانى والملل ، وناضل بصبر ما عرف المهادنة حتى انتصر على الدخيل وأذله ، لكن عاد إلى الكوخ المتهدم يعيش مع السوائم ، فقد أذله السادة ، وهدر كرامته الحاكمون ، فقدغنموا الهناء وعاد هو يجرر رجليه للشقاء ، وفى قصيدة ثالثة سماها (الفلاح) استعرض مشكلات الفلاح العامة وقارن بين حياته وحياة أولى الترف والنعيم الذين سرقوا كده وتعبه ، وقد ألقى هذه القصيدة فى النجف وكان من جرائها أن حكم المجلس العرفى العسكرى عليه بالسجن المؤبد سنة ١٩٣٥ ، خاطب الفلاح بها قائلاً :

أنت يا فلاح عانيت البلاء واجتنى غيرك أثمار التعب
تسهر الليل لجعل الأغنياء بارتياح وهناء وطرب

وفيها يقارن بين النعيم الذى يرفل فيه أصحاب القصور وبؤس الفلاح الذى يرزح تحت وطأته ، مع أن هذا النعيم هو من عمل الفلاح ومن كده وهو أجدر به وأحرى بالانتفاع منه فقال :

كم نعيم أحرزته فئة هو من دونك بؤس فاتك
وقصور سلبتها سلطة منك بالجور وأنت المالك

---

(١٨) العواطف (النجف ١٩٣٧) ص ٢٠ — ٣٢ .
(١٩) نفس المصدر ٨٩–٩٥ .

ومصابيح علتهــــا بهجـــــة هى لولاك ظلام حالك
أبهذا الوضع تحيــا أمــة وبهــــا الظلم وبــاء هــالك

غير أن هؤلاء المتنعمين لا يعرفون له حقاً ، فيجب أن يفرضه عليهم ويأخذه منهم ، فقد سرقوا هذا الحق منه فيجب أن يترك المنجل جانباً ، ويفرض قوته عليهم لأنهم قوم لا يعرفون غير القوة قال :

حلقت آهــات شكواك عــلى جاحدى فضلك ليلاً فى السما
فاستحالت شــهباً ترعى المــلا وتــــرى من لا يراعى الذمما
فاترك الــزرع ونــحّ المنجــلا عنك حينــاً واملأ الأرض دما
وبحــد السيف حاســب دولاً بينها حقك أضحى مغنما (٢٠)

وليس فى الديوان حلول لمشكلات الفلاح ، أو تركيز على فكرة محدودة للإصلاح ، إنها عواطف ثائرة اتقدت عند ما رأى حالة الفلاح المتردية ، فأراد أن يصلحها بإسعاد الفلاح ورفع مستوى حياته ،وليس من عمل الشاعر أن يقدم مشاريع إصلاحية ، إنما عليه إبراز الحالة السيئة لينبه الشعور ، وقد كان محمد صالح بحر العلوم عميق الشعور صادق الإحساس ، فاندفع بشعوره وإحساسه للمطالبة بالإصلاح وتغيير الأوضاع السيئة التى يئن منها العراق . والشاعر عنيف فى المطالبة صريح فى الدعوة إلى الثورة وتحطيم كل ما يقف أمام رغبات الشعب ؛ لذلك لم تكن دعوته فى يوم من الأيام تلاقى بالقبول من الحاكمين فقد قضى جل حياته سجيناً معذباً منكلاً به أشد التنكيل ، حتى ابتلى بأمراض وأسقام وأصيبت أعصابه بالأمراض ، ولكنه لا يزال يناضل بصبر وجلد وعزيمة ومضاء ولا يزال مودعاً فى السجن من جراء المطالبة المستمرة فى سبيل الإصلاح والتى تبلورت فيها آراؤه أخيراً (١٩٥٦) ، ولعل ما يرعب قلوب الحاكمين منه الثورة العارمة التى تكتنف شعره ، فهو يقول :

يا ابنة الريف اجمعى لى حطبــا وخذى من رفــراتى ضــرما

---

(٢٠) العواطف ص ١١٩ .

واحرقى كل ظلــــوم غاشــم بجــد اللــذة فى أن يظلما
واتركى الرحمـــة فالناس هنـــا همج يحتقرون الرحمـــا (٢١)

والشاعر النجفى الثانى الذى عالج مشكلة الفلاح ، هو محمد مهدى الجواهرى ، فقد عالجها بهدوء وسكون ووصف المشكلات ، وحذر مما تئول إليه مثل هذه المشكلات فالترف العاطر والبطر المترف والهناء المغرور ، إلى جانب الجوع الكافر ، والعرى المخزى ، والمرض الفتاك ، والفاقة المهلكة ، أمور ستودى بالبلاد إلى أسوأ النتائج وأفظع العواقب ، فسيأتى اليوم الذى يستفيق فيه هؤلاء الفلاحون الفقراء الجياع المعذبون بسياط الجشع ، ويقف متسائلاً كيف ترضى دولة تحترم نفسها أن يكون شعبها متأخراً إلى درجة الفلاح العراقى فقال :

ألا قوة تسطيع دفـــع المظـــالم وإنعاش مخلوق على الذل نائم
ألا أعين تلقى على الشعب هاوياً إلى حمأة الإدقاع نظرة راحم
وهل ما يرجىّ المصلحون يرونه مواجهة أم تلك أضـــغاث حالم
تعالت يد الإقطـــاع حتى تعطلت عن البت فى أحكامها يد حاكم

ويتحدث عن الأرض التى هى ملك الجميع فيقول :

هى الأرض لم يخصص لها الله مالكاً يصرفهـــا مستهتراً بالجـــرائم

ويصف حالة الفلاح وكوخه المظلم وجوعه ويستثير همم ذوى النخوة والضمير بقوله :

حنـــايا من الأكواخ تلقى ظلالها على منل جب باهت النور قاتم
تلوت سياطٌ فوق ظهـــرٍ مكرم من اللوم مأخوذ بسوط الألائم
وباتت بطون ساغبات على طوى وأتخمت الأخرى بطيب المطاعم
أهذى رعايا أمـــة قد تهيـــأت لتستقبل الدنيا بعزم المهـــاجم

وحاول إقناع الحاكمين بالمنطق والحجة بوجوب مساعدتهم ورفع مستوى حياتهم ، ليكون شعبهم قوياً يدافع عنهم يوم الكريهة ، إذ كيف يحمى

---

(٢١) العواطف ١٤٦ .

الضعيف وطنه وهو الهزيل الخاوى ، وهل يرضى أولو الأمر أن تكون الرعايا جياعاً عراة متهدمين ؟ ، فقال ، :

أمن ساعد رخو هزيل وكاهل عجوز نريد الملك ثبت الدعائم(٢٢)

ويضرب الأمثلة على تردى الحالة العامة وإلى أين وصلت من التدهور والانحطاط ، فقال :

ومروا بأنحاء العراق مضاعة وزوروا قرى موبوءة وبقاعا
تروا ما يثير الصابرين أقله عراة حفاة صاغرين جياعا
وإن شباباً يرقب الموت جائعاً متى اسطاع عن حوض البلاد دفاعا(٢٣)

وقد أدرك الجواهرى أثر الإقطاع فى تأخير الفلاح ، وأثر الإقطاع فى الدولة ، عندما أصبح بمقتضاه شيخ القبيلة صاحب الملك والإقطاعى الكبير وأصبح أبناء القبائل والفلاحون لا يملكون المأوى ، فوصف الحالة التى شملت الفلاحين بعد الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العراق وصفاً رائعاً فريداً ، قال :

جل معى جولة تريك احتقار الشعب والجهل والشقاء جماعا
تجد الكوخ خالياً من حطام الدهر والبيت خاوياً يتداعى
واستمع لا تجد سوى نبضات القلب دقت خوف الحساب ارتياعا
فلقد أقبلت جباة تسوم الحى عنفاً ومهنة واتضاعا
إن هذا الفلاح لم يبق إلا العرض منه بجله أن يباعا (٢٤)

وقد عالج على الشرقى مشكلة الفلاح واهتم بها اهتماماً كبيراً ، واعتبرها من المشكلات الجديرة بالاهتمام ، فهى ليست مشكلة الفلاح إنما هى مشكلة الشعب جميعه ، والفلاح عنوان رقى الأمة ومظهر من أبرز مظاهر حضارتها ،

---

(٢٢) ديوان الجواهرى ص ١٩ ج ١ بغداد ١٩٤٩ .

(٢٣) لاحظ قصيدته عقابيل ص ١٤٥ ج ١ بغداد ١٩٤٩ .

(٢٤) نفس المصدر ص ١٦٢ ج ١ . وقد نشرت فى جريدة الإخاء الوطنى العدد ١٨-١-٩٣١ .

وركيزة من ركائز التقدم ، إذ ليست المدنية الحقيقية هى المتركزة فى المدن الكبرى ، إنما يقاس تقدم الشعب بقراه وأريافه ، فقال :

إن تفتش عن ارتياح بلادٍ فتفقد شئونها والنواحى
وإذا ارتاحت البلاد تبدت فى قراها علائم الارتياح

ووصف ما يعانيه الفلاح العراقى من حرمان من خيراته التى يكد فى سبيلها ، ولكنه لا يفوز إلا بما يسد الرمق فهو يعيش فى جنة ، ولكن حياته العذاب والآلام ، وقد وصف قرى الفلاحين بقرى النمل ، وهو وصف جميل فقال :

ما لهذا الفلاح فى الأرض روح أهو من معشرٍ بلا أرواح
هو فى جنة ينال عذاباً وهو تحت الأشجار أجرد ضاح
وقرى النمل لهف نفسى أثرى من قراه إلا من الأتراح

ويثير مشكلة من المشكلات التى كان يئن منها الفلاح العراقى طويلاً وهى فرض الضرائب الثقيلة التى أرهقته حتى اضطر إلى الدين ، فزادته ديونه عبئاً جديداً على أعبائه ، وأخذ يضمحل شيئاً فشيئاً ويقتل بغير سلاح ، وهل هناك أنفذ من الفقر سلاحاً ؛ لذا فقد غدا قلبه الجريح ينتزى ألماً ويفيض حسرة ولوعة وكيف لا يطفح هذا القلب بالحسرة ، والحيوانات والبهائم راضية سعيدة ، فقد أكلت وشبعت ، أما الفلاح وهو الإنسان ذو المواهب الفذة والقيمة الغالية ، فقد حرم حتى من ضروريات الحياة ، ولم يظفر بالعناية اللازمة ، فقال :

يا ضعيفاً أرى الولاة عليه أعرضت من نصائح النصاح
لم يفده سلاحه فهو ليث قتلوه صبراً بغير سلاح
لو نفذنا لقلب ذاك المعنّى لوجدناه مثخناً بالجراح
خص من نهره ومن شاطئيه بخسيس المرعى وبالضحضاح
فى مروج من حولها قد تناغت كل صداحة إلى صداح

يا ربوعاً حيوانهـــــا يتغنى بسرور وأهلهـــا فى نيـــاح (٢٥)

وقد وصف أثاث كوخ الفلاح عندما فاض نهر الفرات ، فقال :

طافت حنايا الكوخ فوق خصاصه الـ ـغرقى وعام البيت بالأخشاب
ولقد نظرت أثاثه الطـــافى فلم أبصر سوى حصرٍ وجرد ثياب (٢٦)

والشعر النجفى فى الفلاح كثير ، وكله عالج مشكلات الفلاح ، ومن الشعراء حسين كمال الدين (٢٧) ومحمود الحبوبى (٢٨) ومحمد رضا المظفرى (٢٩) ومحمد جواد السودانى (٣٠) ، كما عالجه من العمارة حسين الحاج وهج (٣١) ، ومن كربلاء عباس حلمى (٣٢) ، ولعل قصيدة أحمد الصافى هى القصيدة التى حوت جميع المعانى التى تطرق لها الشعراء وهى رائعة الفلاح بحق ، فقد افتتح بها ديوانه (الأمواج) وخاطب فيها الفلاح طالباً منه أن يترفق بنفسه ، ولا يحملها كل هذا التعب لأن جميع سعيه ذاهب إلى غيره ، ولا يعود عليه إلا بالفقر المدقع والعيش الحقير والبيت المظلم الداكن الذى يطير إذا هبت الرياح عليه ، فقال :

---

(٢٥) جريدة العراق العدد ١٨٩٨–٧–٢٦ ونشرت فى ديوان على الشرقى ص ١٦٣ ولاحظ من السنة نفسها العدد ١٩٦٨ والعدد ١٩٨١ ومن الديوان ص ١٠٢ و ١٠٩ .

(٢٦) ديوان على الشرقى ٢٠٣ ولاحظ ص ١٢٨ .

(٢٧) النهضة العراقية العدد ٢٧٢–٢–١٩٢٨ ولاحظ قصيدة هادى الشماع العراق ٣٨٣٧ – ١٣–٣٤ .

(٢٨) ديوان الحبوبى ص ٢٨ جـ ١ النجف ١٩٤٨ .

(٢٩) الأدب الجديد ص ١٣٠ النجف .

(٣٠) النهضة العراقية العدد ٣٢٥–٢–١٩٢٩ ، ويلاحظ العدد ٢٨١–٢–١٩٢٨ .

(٣١) النهضة العراقية ٢٥٤–٢–١٩٢٨ ، وقصيدة ابن الفرات العدد ٤٠٣–٢–٩٢٩ ومن طريف قول حسين الحاج وهج :

تخـــذنا من نبـــات الأرض قوتاً ولم نشبـــع بمكسبنـــا البطونا
جهـــدنا زارعين بكـــل آن فلسنـــا فى المزراع ناجحينـــا
بـــذلنا النفس فى جـــد وجهـــد وعند الحاصلات (مفلسينـــا)

(٣٢) العراق ١٨٦١–٧–١٩٢٦ .

رفقا بنفسك أيهـا الفـلاح تسعى وسعيك ليس فيه فـلاح
لك فى الصباح على عنائك غـدوة وعلى الطوى لك فى المساء رواح
هذى الجراح براحتيك عميقـة ونظيرها لك فى الفؤاد جراح
فى الليل بيتك مثـل دهرك مظلم ما فيه لا شمـع ولا مصبـاح
فيخر سقفك إن همت عين السمـا ويطير كوخك إن تهب ريـاح

وبالرغم من هذا العناء والعيش الذليل فى الكوخ الحقير فإن الإقطاعيين لم يتركوا له حتى حريته ، فقد أثقلوه بالديون بعد أن أخذوا حصة الأسد من الإنتاج الذى أذاب لأجله قلبه ودمه وعرقه ، فجاءه الطامعون يستغلون هذا الربح دون رحمة :

هذى ديونك لم يسـدد بعضهـا عجزاً فكيف تسدد الأربـاح
بغضون وجهك للمشقة أسطر وعلى جبينك للشقا ألـواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئـاً فيزان منها للغنى وشـاح
أتصد جيش الطامعين ولم يكن لك فى الدفاع سوى الصياح سلاح

ومتى سمع القوى الطامع الصياح والبكاء فهو فى شغل شاغل عنه فى لذاته وشهواته ، يستبق الكأس المترعة والحان المغرية فى قصر يفيض بالنور المشرق ، ويتلألأ بالسعادة الهانية ، ويطفح بجمال الرياش وغالى الأثاث وبديع الثياب والستائر . ومتى استمع مستغل جشع إلى صوت ضعيف معذب أحدق به البؤس وأضناه المرض وأقعده الفقر وإن كان هذا الضعف هو الحق الصريح ، لذلك وجدنا النجفى يثور ثورة عارمة بعد أن استحال الإصلاح فى ظل السلم والمنطق ، وطلب من الفلاح أن يترك العمل الذى لا يعود نفعه عليه ، ويعيث بالزرع فساداً ؛ لأنه لاينتفع بحاصله ، ويهلك الضرع الذى يدر على المالكين الخير ، فقال الشاعر والألم المرير واليأس الحزين فى شعره :

يا غارس التمر المؤمل نفعه   دعه فإن ثماره الأتراح
اقلعه فالثمر اللذيذ محرم   للغارسين وللقوى مباح

وستبقى مشكلة الفلاح الذى لم يطرأ على مستوى حياته الاجتماعية أى تقدم محسوس إن بقيت سلطة كبار الملاك مسيطرة على دفة أمور الدولة فى العراق (٣٣) .

---

(٣٣) أصدرت حكومة الثورة فى العراق قانون الإصلاح الزراعى لتوزيع الأراضى على الفلاحين للقضاء على الإقطاع . .

مشكلة الفقر

إن مشكلة الفقر من المشكلات المتمركزة فى مدن العراق فهى مثل مشكلة الفلاح فى الريف . تعيش أغلبية الشعب العراقى فى فاقة لامثيل لها فى العالم المتمدن ، فهم محتاجون إلى الطعام الضرورى بله المسكن والملبس .. وبيوت الفقراء قذرة ، يعيش الفقراء جماعات متكتلة فى غرف غير صحية مظلمة ، فإذا أمطرت السماء امتلأت الدور بالأوحال والأطيان . وقد لايغير الفقراء ملابسهم حتى تبلى ، وأكثرهم يستعمل ما يرد من أوربا من الثياب المستعملة ، ولولا النوم فى الهواء الطلق وحرارة الصيف التى تستمر حوالى ستة أشهر ، فتقتل كثيراً من الأمراض وتغذى الجسم بالشمس ، لبلغت نسبة الوفيات عدداً هائلاً . وغالباً ما يموت المريض دون أن يرى الطبيب ، إما للضعف المادى أو لعدم العناية فيترك المريض للقضاء والقدر ، ولا يزال هؤلاء يطببون مرضاهم بالتعاويذ والطلاسم والأدعية . ونسبة وفيات الأطفال مرتفعة جداً (١) وأكثر الأطفال يموتون من سوء التغذية ، وأكثر الوالدين مصابون بأمراض معدية ، ويرزحون تحت وطأة الملاريا والبلهارزيا والانكلستوما ، وإذا استثنينا المدن الكبيرة فلا تزال بعض أقضية العراق لاتعرف المياه المعقمة ولا الكهرباء ، فهم يشربون الماء بعد تصفيته فى الحباب ، ويستعينون فى المدن بالإضاءة البدائية اقتصاداً فى نفقات إيصال النور الكهربائى إلى بيوتهم .

وجل الشعراء كانوا من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة ؛ فقد كان

(١) نشرة الإحصاء الصحى والحياتى ١٩٥٢ ، أصدرته وزارة الصحة العراقية (بغداد ١٩٥٥) الصفحات ١٥ و ١٢٧ و ١٢٩ .

شعورهم عميقاً وإحساسهم صادقاً . وعلى رأس الشعراء الذين عالجوا مشكلة الفقر كان الرصافى ، الذى عاش فى محيط فقير ، فالفقر غول محلته الأولى هى النبع العذب الذى تدفقت فيه أشعاره واصفة عذاب الإنسانية وأنينها ، فقد عكس لنا صورة حية صادقة من حياة هؤلاء الفقراء . وديوان الرصافى فياض بوصف الفقر والفقراء تارة فى صورة اليتيم فى أيام العيد ، الذى لايملك ما يملكه أبناء الأغنياء من غالى الثياب ونفيسها ، وهو يرى أترابه يرفلون بالملابس الزاهية الجديدة ، فيعود إلى أمه حزين القلب كسير الفؤاد هضيم الآمال (٢) . ومرة يصور الفقير الذى يموت جوعاً ومرضاً ، لأنه لايملك أجر الطبيب(٣) ، وآونة يصف أرملة تريد الغذاء لولدها (٤) ، وقد عالج الرصافى هذه المشكلات معالجة دقيقة ونظمها على شكل قصص مبرزاً كل العواطف والأحاسيس ، والقصة أشد أثراً فى النفوس ثم يمزج القصة بالدعوة إلى الإصلاح ويرسم سبل الإصلاح شأن الاجتماعى الماهر الخبير . وقد كانت أكثر قصص الرصافى واقعية مستمدة من الحياة . فقد سئل مرة لماذا نظم (اليتيم فى العيد) فقال خرجت لصديق لى بائع تبغ أمام جامع الحيدر خانة ليلة عيد الأضحى ، وبينما كنت جالساً فى حانوته أشارت إليه امرأة متحجبة بدا فقرها من عباءتها أن ينزل فتهامسا وانصرفت فسألت صديقى عن خطبها ، فقال إنها أرملة تعيل يتيمين وجاءت بصحن لترهنه لقاء أربعة قروش ، لأنهما جائعان فلحقتها مسرعاً وسلمت لها اثنى عشر قرشاً وهى جميع ما أملكه فأخذت المبلغ بتردد وخوف ، ثم ناولتنى الصحن قائلة : الله يرضى عنك ، خذ الصحن ، فرفضت ذلك وعدت إلى بيتى والدمع ينهمر من عينى راسماً للبشرية المعذبة صورة حقيقية من صور (اليتيم فى العيد) . وسرد قصص الرصافى كثير ، وسآخذ صورتين من الصور التى رسمها الرصافى . فمن هذه الصور صورة فقير جائع ، ليس له من يساعده فى

---

(٢) الديوان ٥٨ .

(٣) ديوان الرصافى ٩٤ .

(٤) » » ٢٠٤ .

مرضه غير أخت يعولها غير أن المرض حال دون ذلك فاشتد به الجوع والمرض ، وعندما طلب الخبز للأكل قدمت له الماء لعدم وجود كسرة خبز فى البيت :

رام خبزاً والجوع أذكى الأوارا فى حشاه فعللته اصطبارا
ثم جاءت بالماء تبدى اعتذاراً وهل الماء وهو يطفى أوارا
يطفئ الجوع ذاكياً فى التهاب

إنها صورة رائعة للفقر فى أجسم مظاهره، عندما يدهم الإنسان الجوع والمرض والعوز ، فما كان من أخته المسكينة إلا الاستعانة بالجيران ، ولكن هل يساعدها الجيران ويحسنون إليها كل يوم ، وإذا أمدوها بالطعام فمن أين الطبيب المداوى . ويصور الرصافى المريض وهو يشرف على الموت بعد أن اتحد المرض والجوع عليه وجلست أخته القاصرة عن عمل أى شىء ، وهى ترى معيلها يزحف الموت نحوه ، وتصاب ببلية أخرى بعد موته هى بقاؤه بدون كفن أو دفن حتى يحسن أحد الاغنياء إلى الميت بالكفن . فيؤنب الرصافى الأغنياء فيقول :

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما قد رحمتم
سهر البائسون جوعاً ونمتم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوع وشراب

كم بذلتم أموالكم فى الملاهى وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتدرون أنكم فى تباب (٥)

ويعالج الرصافى مشاكل العراق الاجتماعية متأثراً بالدين وإن صلحت معالجته فى العصر الإسلامى . فلا تصلح لعصره ، فالناس غدوا لا يخافون الحساب ولا يرهبون سوء المصير ، فالقليل منهم يبذل فى سبيل الله

---

(٥) ديوان الرصافى ١٠٢ .

ومرضاته ، وجلهم منصرف إلى نفسه إذ لم يبق مر القرون المثل الفاضلة ، فيعتمد على إحساس الناس وإحسانهم وإنصافهم للفقراء وشعورهم بآلام الفقير أملاً برحمتهم للأرامل (٦) ، لأن الإحسان إلى الفقراء حلو جميل يقيد النفوس بالحب ، ويطلق الألسنة بالثناء والحمد ، ويكون الفوز المبين للرجل المحسن (٧) . ولم يكن الرصافى ثائراً فى شعره الاجتماعى كثورته فى شعره السياسى ، ولعل نظرية القضاء والقدر هى التى أثرت فى تفكيره ؛ فهو يطالب بالإصلاح ولكنه يطالب الأغنياء بمساعدة الفقراء وهذا شيء غير واقعى لأن الأغنياء إذا لم تكن هناك قوة تجبرهم لا يحسنون ولن يجودوا .

أما الزهاوى فعلى كثرة ما نظم من الشعر وما طبع من الدواوين فلم يعن العناية الكافية بالفقر ، وكأنى به لا يحس ولا يشعر بآلامه . وله بعض قصائد نظمها قبل الاحتلال الإنكليزى عالج فيها مشكلة أرملة جندى مات زوجها وخلف لها راتباً تقاعدياً لا يفى بحاجتها ، وكانت قد أصيبت بالسل ، وذهبت وهى مريضة تطلب من المسئولين استعجال دفع الراتب التقاعدى ، بعد أن تخلى عنها الأهل والأصدقاء لفقرها . ويصف فى القصيدة قسوة موظفى الحكومة العثمانية وشتمهم المراجعين لقضاياهم (٨) ولم يعالج الزهاوى مشكلة الفقر على أنها مشكلة اجتماعية وإنما باعتبارها مشكلة فردية قد تكون له صلة بها ، وآلمه أن تكون زوجة ضابط فقيرة بعد غنى وذليلة بعد عز ، ويبعد فى قصته هذه عن المشكلة الاجتماعية ويبحث فى أشياء بعيدة عن الموضوع ، ويضرب الحكم والأمثال فى غير حاجة لها . وفى القصة موضوع من أرق الموضوعات الإنسانية ، وهو موضوع الأمومة وجوع الطفل ، وقد تطرق له الزهاوى ، ولكنه لم ينجح فى إبرازه بإطار عاطفى رقيق ، فيصور اختلاج العواطف الرقيقة مع أنه وصل إلى كبد الموضوع وتلمسه فأفلت من يده ، وأخيراً تضطر

---

(٦) ديوان الرصافى ٢٠٦ .

(٧) « الرصافى ٢٢١ .

(٨) ديوان الزهاوى ٢٤٧ .

امرأة الضابط إلى الاستجداء وطلب الرحمة من الناس لكى تغذى ولدها الجائع فى البيت ، وهذه نقطة إنسانية أخرى تعالج بأرق العواطف وأسماها وهى نقطة حساسة فى الشعور الإنسانى ، غير أنها أفلتت منه مرة أخرى. وأجدر نقطة التفت إليها الزهاوى وبحثها بحثاً وافياً هى إلقاء اللوم على كاهل الحكومة التى لم ترع حقوق الجنود ، ولو كان الزهاوى يملك الشعور الاجتماعى العام ، لألقى جميع تبعات الفقر على الحكومة ، ورسم بعض طرق الإصلاح التى يراها ، كما فعل الرصافى . وأخيراً ختم القصة واصفاً آلام الاستجداء ، والاستجداء وحده مشكلة اجتماعية نتيجة للفقر ، قال :

عليها ثيـاب رثة ومـــــــلاءة	كأحشائها فى كل حين تبزل
تكفكف دمعـــــاً بالبنان وكلما	مشت خطوة أو خطوتين تمهل
تمد يمينـاً للسؤال ضعيفــــــة	وتخجل منهم حينما هى تسـأل
أأرملة الجنـــــدي لاتخجلى فمن	حقوق العلا أن الحكومة تخجل(٩)

ولا بد لى أن أشير إلى محاضرات الزميل الكريم الدكتور ناصر الحانى التى ألقاها عن (جميل صدقى الزهاوى عام ١٩٥٤) والتى أفرد جانباً منها فى أثر الفقر والمرض والفلاح فى شعره واعتبره ذا قيمة اجتماعية ، إذ لم يكن الزهاوى يكترث كثيراً بالطبقة الفقيرة ، وينصرف إلى مشكلاتهم كما انصرف إليها الرصافى والبناء وغيرهما ، فقد كان فى سعة من العيش . أما الإشارات العابرة التى تمر فى شعره فليست لها القدرة على جعله من الشعراء الاجتماعيين .

ولعل البناء أكثر احتكاكاً من غيره من الشعراء بالطبقة الفقيرة ، فقد كان بناء ولابد أنه اشتغل كثيراً أجيراً يحمل الطين (طياناً) ، وذاق صنوف العذاب والإرهاق الذى يقاسيه العمال الصغار فى العراق من جور البنائين ومساعديهم وتحكم أصحاب المال . وطبقة البنائين دائماً فى العراق من أفقر الطبقات . ويبدأ البناء حياته طياناً ، وكلما طالت به الأيام وأبدى

(٩) ديوان الزهاوى ص ٨٦ .

براعة وذكاء ووجد أستاذاً يرعاه ويقدمه تقدم فى الصنعة حتى يتقنها فيكون بناء مستقلاً بذاته . وقد ظهرت آثار هذه البيئة فى شعر البناء واضحة المعالم صادقة الصور ، ولو أتيح للبناء الوقت الكافى لدراسة أساليب اللغة العربية وتمكن من السيطرة عليها لأصبح من خيرة شعراء العراق فهو شاعر بالفطرة ، ذو ملكة متأججة ، وعاطفة دافقة ، ولكن العاطفة والفطرة جانب من جوانب الأداء وإذا لم يملك الشاعر لغة سليمة واتساعاً فى مفردات اللغة ، وعلماً بأساليب الشعراء ، فالأداة تكون ضعيفة وهذا ماحدث للبناء . فقد كان عليه أن يكد ويكدح ليكسب قوته ويعيش ، ولكن العاطفة المتدفقة كانت تسيطر عليه والملكة كانت تدفعه لأن ينظم شعره خلال مراقبة العمال ، فقد رآه الأستاذ الأثرى يوماً واقفاً يدير أمور العمل والعمال وبيده صفيحة من الطابوق الأصفر يدون فيها شعره(١٠) وعلى الرغم من أن شعره لم يكن متين الأسلوب رائع الديباجة ، إلا أنه رسم لنا خير الصور الواقعية وأصدقها عن حياة الفقير فى العراق ، فقد وصف امرأة فقيرة أنهك جسمها الذل تعيش فى كوخ مهدم ، وابنها الطاوى الجائع يطلب الطعام وهى تعلله ، ولكن لاتقدر على إطعامه فقد نضب الحليب فى ثدييها ، لأنها جائعة مثله وقد عالج مشكلة الطفل الجائع الرصافى فى الأرملة المرضعة ، فوفق وعالجها الزهاوى فى قصيدة أرملة الجندى فأخفق وعالجها البناء فخانه التعبير ، وبقيت صورة بدائية تتدفق منها الحياة ، قال البناء :

رأيت فتاة أنهك الذل جسمها　　　يحيط بها كوخ هناك مهدم

ووصف الطفل الجائع وكيف تعلله أمة الجائعة :

تعالج طفلاً يشتكى شدة الطوى　　　وتحنو عليه والمدامع تسجم
وتعطيه ثدياً أذهب الجوع دره　　　فينظرها تبكى عليه فيبغم
تعلله واليأس ملء جفونها　　　يكلم عنها وهى لاتتكلم (١١)

---

(١٠) لاحظ مقدمة ديوانه الثانى .

(١١) ديوان البناء الثانى .

إنها أم جائعة معها ولدها جائع ، وهى موزعة الأحاسيس بين نفسها وولدها . ويتطرق البناء إلى مشكلة مؤلمة فى العراق هى مشكلة معاملة الموظفين للفقراء واحتقارهم ، وكأن الموظفين من عالم غيرعالم الشعب ، وكثير من هؤلاء كانوا من نفس الطبقة .

وقد لاحظنا أن أكثرية الذين عالجوا مشكلة الفقر كانوا يحملون عواطف كريمة ، يريدون أن يحصل الفقير على حظ وافر من الغذاء والكساء ، وألا يُستغل ولا يُستثمر ، غير أن هذه العواطف كانت عواطف ذاتية تمثل حالة مر الشاعر بها فشعر بشعور الآخرين ، فكان من ذلك أن شعر بالرحمة والحنان ، فجاء بشعره مطالباً الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء والرحمة بهم ، مع أن حق الحياة الكريمة حق طبيعى لكل إنسان فى كل بلد متقدم ، وكان الأولى أن يطالب الشعراء بتغيير نظام الشعب الاجتماعى ليشمل العدل الاجتماعى الجميع ، غير أن الظروف التى نظم فيها الشعراء شعرهم ، كان شعرهم متأثراً بمثل محدودة الفكرة لعدم تبلور الفكرة الاشتراكية وظهور المطالبة بحقوق الشعب ، وأخذ العالم هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية ، فمن أمثلة العطف على الفقراء قول محمد الهاشمى :

سألقى نظرة ملئت حناناً على بؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء ونحن نعيش فى بؤس وجوع

والقصيدة وصف لحالة الفقير ومسكنه القذر وأطفاله العراة النائمين على الأرض الجائعين بالليل ، يقضون ليلهم بالدموع والحسرات (١٢) . كما أوصى الأزرى الناس بالإحسان إلى الفقراء أو اليتامى لأن الله أوصى بهم فقال :

لو تنطق الأموات عن حال الألى ذهبوا ضحايا ذلة وخمول
لبكيت من ألم المصيبة رحمة وكفاك مجملها على التفصيل
إنى لأشعر فى اليتيم إذا بكى خوف الأسير وذلة المعلول

---

(١٢) الأدب العصرى ٢٠ و ٢١ ج ٢ .

والله أوصى فى اليتيم عبـــاده   فى محكم القرآن والتنزيل (١٣)

وتردى حالة العراق وانتشار الفقر بين أبناء الشعب أثار الشعراء ، فسرت فى شعرهم روح النقمة والثورة على سوء الوضع الاجتماعى ، فأخذوا يشنون حملة شعواء على الترف الذى يرفل فيه الأغنياء ، بينما الفقر المدقع يصل بالفقراء إلى الجوع المهلك ، وأخذوا يقارنون بين حياة المترف والفقير التعس ولم يكن يخلو شعر شاعر من العطف على الفقراء . قال الجواهرى :

ألم تر أن الشعب جـــل حقوقه   هى اليوم للأفراد ممتلكات

وطالب بالعدل بين الفقراء والأغنياء فقال :

ولو كان حكم عادل لتهـــــدمت   على أهلهـــا هاتيكم الشرفات

ويصف بيوت الفقراء فيقول :

بيوت على أبوابها البؤس طـــافح   وداخلهن الأنس والشهـــوات(١٤)

وفى قصيدة أخرى يفضل الفقير على الغنى ويدعو إلى احترامه وتقديره(١٥) . وبحث مشكلات المجتمع العراقى بحاجة إلى دراسة وحدها ولكننا نوجز فنقول بأن الشعراء عالجوها بروح مخلصة ومنهم : محمد بهجة الأثرى (١٦) ومحمود الحبوبى (١٧) وإبراهيم الباجـــــه جى (١٨) وجواد الشبيبى (١٩) وكاظم الدجيلى (٢٠) وعلى الشرقى (٢١) والشبيبى (٢٢)

---

(١٣) الأدب العصرى ص ٦٦ و ٦٧ ج ٢ .

(١٤) الديوان الثانى بغداد ٩٥٠ ص ١٦١ — ١٦٥ العراق العدد ٢٥٨٥—١٠—٢٩ .

(١٥) العراق العدد ٨١٢ السنة الثامنة ١٩٢٣ .

(١٦) مجموعته الخطية .

(١٧) الغرى العدد المزدوج ٢٩ و٢٠—٩—٩٤٨ .

(١٨) العراق العدد ١٢٣٦—٥—٢٤ .

(١٩) ديوان الشيخ جواد المخطوط .

(٢٠) دار السلام الأعداد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠—٢—١٩١٩ .

(٢١) ديوان الشرقى ص ١٨٨ .

(٢٢) ديوان الشبيبى ص ١٠٩ .

والزهاوى (٢٣) ومحمد صالح بحر العلوم الذى وصف حال الفقير وما يقاسيه ووصف رب القصر وما يرفل فيه من النعيم ، وألقى تبعة ذلك بصراحة على الحكومة والبرلمان الذى لايجدى الفقراء نفعاً ، فعليهم أن يخرجوا الأخشاب المسندة ، فقال :

فالظلم منتشر والعـــدل مندرس والزيغ متبـــع والحق مهتضم

حكومة صوت من يشكو ظلامتـــه لها يبعّده عن سمعهـــا الصمم

ومجلس فيه أخشاب مسنـــدة بلا حراك فأين النفط والضرم (٢٤)

وبعد الحرب العظمى الثانية تبلورت مُثُل الرحمة بالفقير والعطف والإحسان إلى الفقراء ، فقد أخذ المفكرون يطالبون بالمساواة وإتاحة العيش الشريف للشعب أجمع لأن الشعب هو صاحب الحق ، وإن الظروف الشاذة التى مرت بالعراق هى التى خلقت طبقة من الأغنياء استغلت الأكثرية بطرق متنوعة ، ويجب أن يعود الحق إلى أهله ، وأن ينال هؤلاء قسطاً وافراً من الرفاه والسعادة . وكان من طليعة هؤلاء المفكرين جماعة عادت من أوروبا ، وأخذوا يقارنون بين حالة الشعب السيئة وحالة أوربا ، وما حصلت عليه الشعوب من هناء وسعادة ورفاه ، وقد تبعهم جل الشعراء الشباب والطبقة الواعية المثقفة فى البلد .

وختاماً يا قارئى العزيز

هذه جولة سريعة قدمتها لك عن الشعر العربى فى العراق فى تياراته السياسية والاجتماعية وقد ذكرت لك أهم هذه التيارات التى هيمنت على الشعر العربى ، وأثرت تأثيرها العميق فى توجيهه ، وهو بحاجة إلى دراسة أكثر تفصيلاً واتساعاً من كتابى هذا فقد كنت مضطراً إلى العناية بالاتجاهات أكثر من عنايتى بالشعراء أنفسهم وقد سرت والتاريخ فى

---

(٢٣) اللباب ص ١٢١ .

(٢٤) العواطف ص ١١٨ .

دراستى هذه لتكون على بينة من أمر وطنك ولتعلم مقدار تأثير التاريخ فى حياتك وشعبك وأثر الأدب فى تاريخك ، وقيمة أحاسيس الشعراء الغالية وإخلاصهم العميق لتربة هذا الوطن .

ومعذرة مما وقعت فيه من أخطاء ولكل عالم كبوة فكيف بى وأنا طالب بحث مستجد فخذ بيدى وعاونى على الصواب ، ولك من الله العلى الكبير والتاريخ القاسى فى عدله المنصف فى حكمه ومنى أجزل الثواب .

يوسف عز الدين السيد أحمد

المصـــادر(*)

١ ـ المخطوطات

أمثال بغداد والموصـــل	أنستاس ماری الكرملی
الإصابة فی منع النساء من الكتابة	نعمان خير الدين الآلوسی
حديقة الورود	عبد الفتاح الشواف
مجموعة الأشعار والخطب	محمد الباقر الحلی
ديوان الهنداوی	خيری الهنداوی
ديوان التفتاف	أنستاس الكرملی
الشعور المنسجم	مصطفى جـــواد
مجموعة شعـــر	محمد بسيم الذويب
» »	محمد صالح بحر العلوم
» »	حسن الجواهری
» »	ناجی القشطينی
» »	خضر القزوينی
ديوان الأثری	محمد بهجة الأثری
مذكرات الرصافی	معروف عبد الغنی الرصافی
نيل المـــراد	عباس البغدادی
العراق فی القرن التاسع عشر	يوسف عز الدين
غاية المرام	ياسين العمـــری
قصائد من شعر	عيسى عبد القادر

(*) هذه المصادر التی أمكن الاستفادة منها مباشرة وهناك مصادر أخرى لم أذكرها لأن فائدتها لم تكن مباشرة .

٢ ـ الكتب المطبوعة

الكتاب	المؤلف		
ادب الرصافى	مصطفى على	القاهرة	١٩٤٠
اعلام العراق	محمد بهجة الأثرى	القاهرة	١٣٤٥ هـ
الأدب العصرى	رفائيل بطى	جزءان القاهرة	١٩٢٣
الأخبار فى سير الرجال	خالص حمادى	بغداد	
الأدب الجديد	محمد جمال الهاشمى	النجف	
الاتجاهات الوطنية	الدكتور محمد حسين	جزءان القاهرة	٥٤ و١٩٥٦
الاتجاهات الادبية	أنيس المقدسى	ج ١ بيروت	
التيارات الادبية الحديثة فى العراق	جميل سعيد	مصر	١٩٥٤
الاتجاهات الجديدة	جميل سعيد	ج ٢ مصر	١٩٥٢
الأمواج	احمد الصافى النجفى	دمشق	١٩٣٢
الأوشال	جميل صدقى الزهاوى	بغداد	١٩٣٤
آراء الرصافى	سعيد البدرى	بغداد	١٩٥١
أربعة قرون من تاريخ العراق	ترجمة جعفر الخياط	بيروت	١٩٤٩
أمثال وأقوال بغدادية	ظافر الآلوسى	بغداد	١٩٥٦
أدب العصر	سعد ميخائيل	مصر	١٩٢٢
الاقطاع فى العراق	ابراهيم كبه	بغداد	١٩٥٧
تاريخ الصحافة العراقية	عبد الرزاق الحسينى	النجف	١٩٣٥
تجارة العراق	يوسف غنيمة	بغداد	١٩٢٢
تحرر العراق من الانتداب	مجيد خدورى	بغداد	١٩٣٥
تذكرة الشعراء	عبد القادر الخطيبى الشهربانى	بغداد	١٩٣٥
تاريخ الشعر السياسى	احمد الشايب	القاهرة	١٩٤٥
الترياق الفاروقى	عبد الباقى العمرى	القاهرة	١٣١٦ هـ
تاريخ القضية العراقية	محمد مهدى البصير	بغداد	
تاريخ مقدرات العراق السياسية	أمين العمرى (١)	جزءان بغداد	٩٢٤ و ٩٢٥
تكوين العراق الحديث	«فوستر» ترجمة عبد المسيح جويدة	بغداد	١٩٤٦
تقرير حول العراق	احمد فهمى		١٩٢٦
الثورة العراقية	عبد الرزاق الحسنى	صيدا	١٩٣٦
الثورة العربية الكبرى	أمين سعيد	ثلاثة أجزاء القاهرة	١٩٣٤

---

(١) كتب المؤلف عليه اسم اخيه محمد طاهر العمرى لأنه كان موظفا عندما الف الكتاب

ثورة العرب مقدماتها أسبابها نتائجها
أحد أعضاء الجمعيات العربية مصر ١٩١٦

جنايات الانكليز على البشر
وعلى المسلمين خاصة **محمد حبيب العبيدى** بيروت ١٩١٦

الحقائق الناصعة فى الثورة
العراقية **فريق مزهر الفرعون** مجلدان بغداد ١٩٥٣

حرب العراق **طه الهاشمى** بغداد ١٩٣٦

حبل الاعتصام ووجوب
الخلافة فى دين الاسلام **محمد حبيب العبيدى** بيروت ١٩١٦

حقيقة الزهاوى **مهدى العبيدى** بغداد ١٩٤٧

حالة العراق الصحية فى ربع قرن **موسيس ديرهاكوبيان** بغداد ١٩٤٨

دراسات فى الشعر العربى المعاصر **شوقى ضيف** مصر ١٩٥٣

ديوان كاظم آل نوح **ثلاثة أجزاء** بغداد ١٩٤٩

ديوان الكاظمى **عبد المحسن الكاظمى** المجموعة الأولى دمشق

ديوان الكاظمى **عبد المحسن الكاظمى** المجموعة الثانية القاهر ١٩٤٨

ديوان الرصافى **معروف الرصافى** القاهرة ١٩٤٧

ديوان الشبيبى **محمد رضا الشبيبى** القاهرة ١٩٤٠

ديوان التميمى **صالح التميمى** النجف ١٩٤٨

ديوان الجواهرى **محمد مهدى** بغداد ١٩٢٨

ديوان الجواهرى **محمد مهدى** بغداد ٤٨و ٥٠و٥٣

ديوان البناء **عبد الرحمن البناء** بغداد ١٩٣٢

الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده **سليمان البستانى** مطبعة الأخبار ١٩٠٨

ذكرى فيصل الأول **محمد عبد الحسين** بغداد ١٩٣٣

ذكرى الخالصى **عبد الرزاق امين** بغداد ١٩٣٣

ذكرى استقلال العراق **عبد الرحمن البناء** بغداد ١٩٢٥

ذكرى السعدون **على الشرقى** بغداد ١٩٢٩

ذكرى يوسف السويدى **طه الراوى** بغداد ١٩٣٠

الرصافى **مصطفى على** القاهرة ١٩٤٨

الرصافى فى أعوامه الأخيرة **نعمان ماهر وسعيد البدرى** بغداد ١٩٥٠

الروض الأزهر **مصطفى الواعظ** الموصل ١٩٤٨

زنابق الحقل **ابراهيم منيب الباجه جى** بغداد ١٩٣٩

زعيم الثورة العراقية	**عباس علي**	بغـداد	١٩٥٠
سحر الشعر	**رفائيل بطي**	القاهرة	١٩٢٩
سياسة العراق التحررية	**مظفر حسين الجميل**	القاهرة	١٩٤٩
سعد صالح	**محمد علي كمال الدين**	بغـداد	١٩٤٩
الصحافة في العراق	**رفائيل بطي**	القاهرة	١٩٥٥
الشذرات	**محمد مهدي البصير**	بغـداد	١٣٤٠ هـ
شعراء الغري	**علي الخاقاني**	١٢ جـ النجف	٥٤ ـ ١٩٥٦
شعراء الحـلة	**علي الخاقاني**	٥ جـ النجف	٥١ ـ ١٩٥٣
الشعر العراقي في القرن التاسع عشر	**يوسف عز الدين**	بغـداد	١٩٥٨
شرح ديوان زهير بن أبي سلمى	**ثعلب**	مصر	١٩٤٤
الطراز الأنفس	**عبد الغفار الاخرس**	الاستانة	١٣٠٤ هـ
العراق الحديث	**متي عقراوي**	بغـداد	١٩٣٦
العواطف	**محمد صالح بحر العلوم**	النجف	١٩٣٧
على هامش الثورة العراقية	**فـراتي**	بغـداد	
العراق في دوري الاحتلال والانتداب	**عبد الرزاق الحسني**	صيدا	١٩٣٥
على طريق الهند	**عبد الفتاح ابراهيم**	بغـداد	١٩٣٥
عواطف وعواصف	**علي الشرقي**	بغـداد	١٩٣٥
غرائب الأثر	**ياسين العمري**	الموصل	١٣٥٩ هـ
غرائب الاغتراب	**أبو الثناء الآلوسي**	بغـداد	١٣٢٧ هـ
في غمرة النضال	**سليمان فيضي**	بغـداد	١٩٥٢
الفجر الصادق	**جميل صدقي الزهاوي**	القاهرة	١٩٠٥
فيصل بن الحسين في خطبه وأقواله	**مديرية الدعاية العامة**	بغـداد	١٩٤٥
القوى المؤثرة في الدساتير	**طلعة الشيباني**	بغـداد	١٩٥٤
اللبـاب	**جميل صدقي الزهاوي**	بغـداد	١٩٢٨
لب الألبـاب	**محمد صالح السهروردي جزءان**	بغـداد	١٩٣٣
الكلم المنظوم	**جميل صدقي الزهاوي**	بيروت	١٣٢٨ هـ
محاضرات عن جميل الزهاوي	**ناصر الحاني**	بغـداد	١٩٥٤
المعدان أو سكان الأهوار	**(ثسكر) ترجمة باقر الدجيلي**	بغـداد	١٩٥٦
مشروع اصلاح القرى في العراق	**محمود نديم اسماعيل**	بغـداد	١٩٥٤
مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى	**تحسين العسكري**	بغـداد	١٩٣٦

مقدمة فى كيان العراق
الاقتصادى **هاشم جواد** بغداد ١٩٤٦
مقالات **فهمى المدرس** ج ١ بغداد ١٩٣١
مذكراتى فى نصف قرن **احمد شفيق باشا** ج ١ القاهرة ١٩٣٤
مقدمة فى دراسة العراق المعاصر **زكى صالح** بغداد ١٩٥٣
مجموعة امثال الموصل **القس الفونس شوريز**
معروف الرصافى **احمد بدوى طبانة** القاهرة ١٩٤٧
المعلوم والمجهول **ولى الدين يكن** مصر ١٩٠٩
محاضرات عن العراق من مصر معهد الدراسات
الاحتلال الى الاستقلال **عبد الرحمن البزاز** العربية العالية
مشكلة الموصل **فاضل حسين** بغداد ١٩٥٥
مختارات فى السفور والحجاب
مصطفى عبد الجبار القاضى بغداد ١٩٢٤
النظام السياسى فى العراق **محمد عزيز** بغداد ١٩٤٠
النظام النقدى فى العراق **عبد الرحمن الجليلى** بغداد ١٩٣٦
نظرات فى اصلاح الريف **عبد الرزاق الهلالى** لبنان ١٩٥٤
الوقائع الحقيقية فى الثورة
العراقية **على البازركان** بغداد ١٩٥٤

٣ ــ المصادر الرسمية

الملكية الصغيرة فى العراق **حسن محمد على** بغداد ١٩٥٣
مجموعة مذاكرات المجلس
التأسيسى العراقى **وزارة الداخلية** بغداد ١٩٢٤
الاصلاح الزراعى واعمار الأراضى **وزارة الاعمار** بغداد ١٩٥٠
تقدم العراق الاقتصادى **البنك الدولى للانشاء والاعمار** بغداد ١٩٥٤
معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا **مطبعة الحكومة** بغداد ١٩٣٠
نشرة الاحصاء الصحى والحياتى **وزارة الصحة** بغداد ١٩٥٥
التقرير السنوى عن سير المعارف ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤ بغداد ١٩٥٥

٤ ــ الجرائد والمجــلات

الاخاء الوطنى	عبد الاله حافظ	١٩٣٤
الاخاء الوطنى	على جودة الايوبى	١٩٣١
الانقــلاب	محمد مهدى الجواهرى	١٩٣٦ ــ ١٩٣٧
الأخلاق « مجلة »	عبد الرحمن البناء	١٩٢٦ ــ ١٩٢٨
الامــل	معروف الرصافى	١٩٢٣
الأهالى	كامل الجادرجى	١٩٣٥ ــ ١٩٣٧
الاستقلال	عبد الغفور البدرى	١٩٢٦ ــ ١٩٤٠
الاخاء	عبد الرحمن السيد	٢٦ ــ ٩٢٧ البصرة
الارشاد « مجلة »	عبد الجليل آل جميل	١٩٢٥ ــ ١٩٢٧
البلاد	رفائيل بطى	١٩٢٩ ــ ١٩٤٠
بغداد	عبد الرحمن البناء	١٩٣١ ــ ١٩٣٣
تنوير الافكار	عبد الهادى الاعظمى	١٩١٠
التقـــدم	سلمان الشيخ داود	١٩٢٨ ــ ١٩٢٩
الحرية « مجلة »	عبد المولى الطريحى	١٩٢٧ نجف
الحارس	مكى الجميل	١٩٣٦ ــ ١٩٣٧
الحرية « مجلة »	رفائيل بطى وعبد الجليل رزق الله	١٩٢٤ و ١٩٢٥
دجلة « مجلة »	داود السعدى	١٩٢١ ــ ١٩٢٢
دار السلام	انستاس مارى الكرملى	١٩١٨ ــ ١٩٢٠
الرقيب	عبد اللطيف ثنيان	١٩٠٩ (١٣٢٨ هـ)
الرشاد	يوسف السامرائى	١٩١٠ البصرة
الرأى العام	محمد مهدى الجواهرى	١٩٣٧ ــ ١٩٤٠
الزمـــان	ابراهيم صالح شكر	١٩٢٧
الزمان	توفيق السمعانى	١٩٣٧ ــ ١٩٤٠
الزنبقة « مجلة »	عبد الأحد حبوش	١٩٢٢
السياسة	يوسف غنيمة	١٩٢٥
شط العرب	خلف شوقى الداودى	١٩٢٤ ــ ١٩٢٥
صدى العهد	عبد الرزاق الحصان	١٩٣٠
صدى العهد	عبد الهادى الجلبى	١٩٣١
صدى بابل	داود صليوا	١٩٠٩ ــ ١٩١٤
صدى الاسلام	عطاء الخطيب	١٣٣١ ــ ١٣٣٤

الدستور	عبد الله الزهير	١٩١٢
الصحيفة	حسين الرحال	١٩٢٥
الطريق	توفيق السمعاني	١٩٣٤ ـ ١٩٣٦
العالم الآسلامي	مجلة رسمية	١٧ ـ ١٩١٨ استانبول
العـرب	جريدة رسمية	١٧ ـ ١٩٢٠
العاصمة	حسن الغصيبة	٢٢ ـ ١٩٢٣
العـراق	رزوق غنام	١٩٢٠ ـ ١٩٤٦
العقـاب	يونس بحري	١٩٣٨ ـ ١٩٣٩
الغري « مجلة »	عبد الرضا شيخ العراقين	٣٩ ـ ٩٤٧ النجف
الفلاح	عبد اللطيف الفلاحي	١٩٢١ ـ ١٩٢٢.
الفضيلة	عبد الرزاق الحسني	١٩٢٥ ـ ١٩٢٦.
لغة العرب « مجلة »	انستاس الكرملي	١٩١١ ـ ١٩١٤
لغة العرب	انستاس الكرملي	١٩٢٦ ـ ١٩٣٢
لسان العرب	ابراهيم حلمي العمر	١٩٢١ ـ ١٩٢٢
البيان « مجلة »	علي رضا الغزالي	١٣٣٧ ـ ١٣٣٨ هـ
ليلى « مجلة »	بولينا حسون	١٩٢٣ ـ ١٩٢٤
المرشد « مجلة »	محمد الحسيني	٢٠ و٢٨ و١٨٢٩
المفيد	ابراهيم حلمي العمر	١٩٢٤ ـ ١٩٢٥.
المستقبل	ابراهيم صالح شكر	١٩٢٩ ـ ١٩٣٠
المعـرض	أحمد عزة الأعظمي ونوري الأورفهلي	٢٥ ـ ١٩٢٦
المؤيد	أحمد ماضي وعلي يوسف	١٩١٠ القاهرة
الموصل	مجلة رسمية وصدرت جريدة	١٩٢٠ ـ ١٩٢٨.
المنـار	محمد رشيد رضا	٩٠٢ ـ ١٩١٢ القاهرة
المقتبس « مجلة »	محمد كرد علي	٩١٠ ـ ١٩١١ مصر
النجف	يوسف رجيب	٤٤ ـ ١٣٤٥ نجف
النـور	عبد الرحمن البناء	٢٩ ـ ١٩٣٢
النهضة العراقية	حزب النهضة العراقية	١٩٢٧ ـ ١٩٣٠
نداء الشعب	حزب الشعب	١٩٢٦ ـ ١٩٢٩
نداء الشـعب	ياسين الهاشمي	١٩٣٠
الناشئة	ابراهيم صالح شكر	١٩٢١
الناشئة الجديدة	ابراهيم صالح شكر	١٩٢٢ ـ ١٩٢٥
اليقين	محمد الهاشمي	٢٢ ـ ١٩٢٥

(1) **ENGLISH BOOKS**

BELL, Lady Florence. — Letters of Gertrude Bell. Vol. 2 London 1927.

Miss Gertrude Bell. — Review of the Civil Administration of Mesopotamia. London, 1920.
Civil Administration of Mesopotamia London, 1920.

Churchill, Winston — The Second World War, Vol. 3, London, 1950.

Foster, Henry — The Making of Modern Iraq, London, 1936.

Haldane, Sir Aylmer — The Insurrection in Mesopotamia, 1920, London, 1922.

George Antonius — The Arab Awakening, London, 1938.

Ireland, P. — Iraq. A Study in Political Development, New York, 1936.

Longrigg, S. H. — Iraq. 1900—1950, London, 1953.
Four Centuries of Modern Iraq, London, 1925.

Muir, R. — Political Consequences of the Great War, London, 1932.

Toynbee, A. — Turkey, London, 1926.

Wilson, Sir A. T. — Mesopotamia, London, 1943.

(2) **OFFICIAL REPORTS**

Report by H. M. Government in U.K. of G. B. and Northern Ireland to Council of the League of Nations on the Administration of Iraq for the year 1928 and Colonial No. 44 H. M. Stationery Office, London, 1929.

League of Nations, Question of Frontier between Turkey and Iraq, C. 400 M. 47, 1925.

The Official Story of the Persia and Iraq Command 1941—46, H. M. Stationery Office.

Anglo-Iraq Treaty, Baghdad, 1929.
Encyclopaedia Britannica, XIIIth edition, Vol. 2.

(مقتطفات من معاهده التحالف بين العراق وبريطانيا الموقع عليها فى ٣٠ من حزيران سنة ١٩٣٠)

أ — من المقدمة :

ولما كانت حكومة جلالة (بريطانيا .....) قد أعلمت الحكومة العراقية بلا قيلولا شرط فى ١٤ أيلول ١٩٢٩ أنها مستعدة لعضد ترشيح العراق لدخول عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ وأعلنت لمجلس العصبة فى ١٤ كانون الأول ١٩٢٩ أن هذه هى نيتها ، ولما كانت المسئوليات الانتدابية التى قبلها صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق ستنتهى من تلقاء نفسها عند إدخال العراق عصبة الأمم ، ولما كان صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة ملك بريطانيا يريان أن الصلات التى ستقوم بينهما بصفة كونهما ملكين مستقلين ينبغى تحديدها بعقد معاهدة تحالف وصداقة . فقد اتفقا على عقد معاهدة جديدة لبلوغ هذه الغاية على قواعد الحرية والمساواة التامتين والاستقلال التام تصبح نافذة المفعول عند دخول العراق عصبة الأمم .

ب — من المادة الرابعة :

إن معونة صاحب الجلالة ملك العراق فى حالة حرب أو خطر حرب محدق تنحصر فى أن يقدم إلى صاحب الجلالة البريطانية فى الأراضى العراقية جميع ما فى وسعه أن يقدمه من التسهيلات والمساعدات استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانى والمطارات ووسائل المواصلات .

جـ — من المادة الخامسة :

يتعهد جلالة ملك العراق بأن يمنح صاحب الجلالة البريطانيه طيلة مدة التحالف موقعين لقاعدتين جويتين ، ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية فى البصرة أو فى جوارها موقعاً واحداً لقاعدة جوية ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية فى غرب نهر الفرات .

وكذلك يأذن جلالة ملك العراق لصاحب الجلالة البريطانية ، فى أن يقيم قوات فى الأراضى العراقية فى الأماكن الآنفة الذكر وفقاً لأحكام ملحق هذه المعاهدة ، على أن يكون مفهوم أن وجود هذه القوات لن يعتبر بوجه من الوجوه احتلالاً ولن يمس على الإطلاق حقوق سيادة العراق .

المحتـــوى

الصفحة

الفصل الرابع : مشكلات العراق السياسية

الفصل الخامس : أثر الحياة الاجتماعية فى الشعر

المـــلاحق :

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومى

المكتبة العربية

— ٣٥ —

التــأليف] ٢١

الأدب (٢١)

القاهرة
١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

المكتبة العربية

تصدرها

الثقافة والإرشاد القومى

يوزعها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر

"الدار القومية للطباعة والنشر — الدار المصرية للتأليف والترجمة"



الثمن ٣٥ ص